

من أفعال اللغة إلى بلاغة الخطاب السياسي  
**تبسيط التداولية**

**د. بهاء الدين محمد مزيد**

قسم دراسات الترجمة  
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية  
جامعة الإمارات العربية المتحدة

من أفعال النفاة إلى بلاغة الخطاب المياسي

## **تبسيط التداولية**

د. بهاء الدين محمد مزيد

الكتاب: تبسيط التداولية

المؤلف: د. بهاء الدين محمد مزهد

الطبعة الأولى: القاهرة ٢٠١٠

رقم الإيداع: ١٣٧١٦ / ٢٠١٠

التسجيل الدولي: 3 - 042 - 493 - 977 - ISBN 978

الناشر

شمس للنشر والتوزيع

٨٠٥٢ ش ٤٤ طهجة الوسطى - حلفوظ - القاهرة

ت. الفاكس: ٢٧٢٧٠٠٠٤ (٠٢) - ٠١٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

[www.shams-group.net](http://www.shams-group.net)

تصميم الغلاف: بسلام الشماخ

حقوق الطبع والنشر محفوظة

لا يسمح بطبع أو نسخ أو تصوير أو تسجيل  
أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة كانت  
إلا بعد الحصول على موافقة كتابية من الناشر

من أفعال اللغة إلى بلاغة الخطاب السياسي

# تبسيط التداولية

د. بهاء الدين محمد مزيد

قسم دراسات الترجمة

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

جامعة الإمارات العربية المتحدة

قسم اللغة الإنجليزية، كلية الآداب، جامعة سوهاج



إلى ميرال و مريم و مروة،

اعتذاراً عن الانشغال والتقصير

وإلى اساتذتي،

عرفاناً وتقديراً ..

بهاء

## المحتويات

١١	§ لما قبل: طرائق الترجمة ودرجاتها
١٤	- هذا الكتاب
١٨	§ ما هي التداولية؟
٢٠	- كيف تطوّرت؟
٢١	§ السياق
٢٤	- فن داك: مقّمة عن السياق
٣٥	- من ضرورات التلقي
٣٧	§ لنحو الوظيفي
٤٠	§ لمبدأ التعاوني
٤٧	§ للتضمنين
٥٠	§ لماذا نفعل بالكلمات؟
٥٧	§ لتأب والكياسة
٦٨	- كياسة أون لاين
٧٠	§ الإشارة
٧٥	- اللغة، إنن، تشير
٧٨	§ للتداولية العامة
٨٠	§ للتداولية المقارنة
٨٥	§ تحليل الخطاب ولغويات النص
٩٩	- اقتصاص وما إليه
١٠١	- علاقات بين نصية
١٠٣	- بين المعظم والمتعلم

١٠٥	§ التحليل النقدي للخطاب
١١٥	- عن لغة الإعلام واستعارات شتى
١١٦	- حملة وصقر
١١٦	- الإسلام فضاء وصراط
١١٧	- استعارات منها ما ورد في القرآن الكريم
١١٨	- استعارات معاصرة
١٢١	§ تحليل الخطاب السياسي
١٢٦	- خصائص الخطاب السياسي
١٣٠	§ في العالم العربي
١٣٢	§ نصوص وتطبيقات
١٣٣	- دعاء
١٣٥	- بلاغة إسلامية
١٣٥	- خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع
١٣٩	- عن الإقناع في البلاغة الإسلامية
١٤٠	- خطابة سياسية إسلامية
١٤٢	- لدعاية في التراث الإسلامي
١٤٣	- من لصداء المسيرة الذاتية
١٤٥	- خطاب الكرة
١٤٩	- عن خطاب الكرة
١٥٣	- نافذة على النافذة
١٥٩	- هوامش وتعقيب على مقتطفات من خطاب سياسي
١٦٧	- نصوص بصرية
١٦٩	§ المراجع
١٨٠	§ المؤلف في مطور
١٨٢	§ شمس للنشر والإعلام

## فهرست الاستطادات

١. ولترجمة في النقل طريقان ١١
٢. وهذا كتاب ١٤
٣. أيها القارئ ١٦
٤. ما البلاغة؟ ٢١
٥. عن اللغويات النقدية ٣٧
٦. تخلص ٤٢
٧. العلم والأدب ٤٤
٨. إن لصاحب الحق مقالاً ٥٠
٩. دعكم الكلام أربع ٥٠
١٠. اللغة والبيسبول ٥١
١١. الإنشاء: بذور نظرية لفعال اللغة في البلاغة العربية (١) ٥٣
١٢. الإنشاء: بذور نظرية لفعال اللغة في البلاغة العربية (٢) ٥٥
١٣. صدق الخبر وكذب ٥٦
١٤. فعال لغوية سياسية ٥٦
١٥. لو قد قل ما يجمعها كتاب ٥٩
١٦. الكلمة الطيبة ٦٦
١٧. بلاغة الصمت ٦٩
١٨. عن الالتفات في القرآن الكريم ٧٠
١٩. مثل: أوباما في القاهرة ٨٥
٢٠. مصطلح تحليل الخطاب ٨٦
٢١. والنص ٨٦
٢٢. مزالق ومحاذير ٩١
٢٣. الجنس الخطابي، لا الأنبي ٩٦
٢٤. مصطلح وترجمة ٩٨
٢٥. في نقد التحليل النقدي للخطاب ١٠٩
٢٦. ترجمة المربع الأيديولوجي ١١٤
٢٧. تحمين القبح وتقبيح الحسن ١٢٦
٢٨. إضفاء الشرعية وتجريد الآخرين منها ١٢٧



## أما قبل : طرائق الترجمة ودرجاتها

### وللترجمة في النقل طريقتان

"قال للصلاح الصاوي: وتترجمة في النقل طريقتان: أحدهما طريق يوحنا بن بطريق وابن قناعة الحمصي وغيرهما. وهو أن ينظر في كل كلمة مطردة من الكلمات اليونانية. وما نذل عليه من المعنى. فيأتي باللفظة مفردة من الكلمات العربية ترفعها في دلالة على ذلك المعنى فينبهه وينقل إلى الأخرى كذلك حتى يأتي على جملة ما يريد تعريبه. وهذه الطريقة رديئة بوجهين: أحدهما أنه لا يوجد في الكلمات العربية كلمات تقابل جميع الكلمات اليونانية. ولهذا وقع في خلال هذا التعريب كثير من الألفاظ اليونانية على حلقها. فتأتي في خواص التركيب والنسب الاستدعية لا تطبق نظيرها من لغة أخرى دقما. ويضا يقع الفشل من جهة استعمال المجزآت وهي كثيرة في جميع اللغات. الطريق الثاني في التعريب طريق حنين بن إسحق والجهوري وغيرهما. وهو أن يأتي بجملة فيحصل معناها في ذهنه ويعبر عنها من اللغة الأخرى بجملة تطلقها. سواء سلوت فلفظها لم يخالفتها. وهذا الطريق لاجود ولهذا لم تحتاج كتب حنين بن إسحق في تهذيب الألفاظ العلوم الرياضية لأنه لم يكن فيها بها. بخلاف كتب الطب والمنطق والطبيعي واللاهني فإن الذي عربه منها لم يحتج إلى الإصلاح. فلما كتبهم لقد ذهب ثابت بن قرة العربي ومكثك المعسطي والمتوسطت بينهما" (فيهاه للعلمي: فكشكول). وقد قيل هذا تصنيف بكثير من النقد لما فيه من تبسيط ولأن كثيرا من المحدثين يستشهدون به نهلا على سيق العرب في التمييز بين الترجمة الحرفية والترجمة الوظيفية. ولهذا مقام غير ما نحول هنا من تبسيط.

من الراسخ في دراسات الترجمة فتفريق بين ترجمة حرفية literal. وترجمة حرة. أو وظيفية functional. في هذه القسمة ما فيها من تبسيط. لأن الترجمة الحرفية والوظيفية قد تجتمعان في نص مترجم واحد. وليس هناك ما يبرز الاحترار فنطلق في أي منهما. كما أن طرق الترجمة تتجاوز هاتين الطريقتين. فيما يلي تفصيل هذه الطرائق تليسا على تصنيف روبنسون Robinson (٢٠٠٣. ص ١٢):

١. ترجمة حرفية literalism. وتعني نقل النص الأصلي إلى اللغة المترجم إليها حرفيا مع النصحية - التي تتشا عن عدم الكفاءة أو عن ضرورة - بجماليته وعناصره الوظيفية. لهذه الطريقة وجاهتها في النصوص العلمية وبعض

النصوص القانونية والدينية والوثائق والأوراق الرسمية.

٢. ترجمة تغريبية foreignism. وفيها يحتفظ النص المترجم بغضائر الغربة في النص الأصلي. على سبيل التمثيل: هل تبقى "boyfriend" و "girlfriend" "صديق" و "صديقة"، أم تتحول إلى "زوج" و "زوجة" أو "زميل" و "زميلة" - من منطلق أن المفهوم الذي تعبر عنه المصطلحات الإنجليزية لا يتماشى مع الثقافة العربية الإسلامية؟ يحدث هذا كذلك من العربية إلى الإنجليزية. فنجد من يترجم "الحج" مثلا إلى "Hajj"، ومن يترجمها إلى "pilgrimage". وقد وقع متشابهة. فمن يبقى على المفردة الإسلامية ويكتفي بتغيير الأبجدية ربما يقبل دخولها الثقافة الغربية. ومن يستبدل بها مفردة إنجليزية ربما يسمى إلى أضواء روح ثقافته على المفردة العربية. هذا على سبيل التبسيط. لأن التغريب والتغريب لا يمكن لاختلافهما إلى لرقم. كما لا ينبغي الإصرار على الاتهام. لأن الاختيار ربما يحدث لمجرد الجهل بالبديل. سوف يجد التغريب من يدفع عنه من خلال الحديث عن ضرورة الأمانة في الترجمة، والارتباط الذي لا ينبغي أن ينقسم بين لغة وثقافتها وتهافت الرقبة في زمن السموات المفتوحة. وسوف يجد التغريب من يدفع عنه كذلك من خلال الحديث عن نمسية مفهوم الأمانة. وعن ضرورة الحفاظ على الهوية والقومية.

٣. ترجمة رشيقة fluency تحتفظ قدر استطاعتها بهجاءات النص الأصلي. ونراعي لساليب اللغة المترجم إليها وتركيبها، ولو على حساب بعض الدقة. هذه النصيحة - التي ربما تكون اضطرارية أو قسرية - تبرز استعارة "الجميلة الخفنة" les belles infideles في الحديث عن الترجمة (ومفادها أن ترجمة لا بد أن تنتهك النص الأصلي لكي تكون ترجمة جميلة). في الاستعارة بعض الحقيقة. لكن فيها كثيرا من التجني على للجملات الفضليات، وعلى الترجمات التي تجتمع فيها الأمانة الطمعية مع رشاقة الأسلوب وجمال الصياغة.

٤. ترجمة تلخيصية **summary**، ولها تلخيص فكل النص الأصلي. دون تشغل بلفظه، أو تراكيبه، أو أساليبه البلاغية. والخطر الداهم هنا هو ما نعين من سرقة أفكار الآخرين دون الرجوع إلى مصادرها. لا عيب في التلخيص، إلا ما يشتمل لحيقا من إقحام، أو حذف يشوه الأصل، أو يجمّله لحاجات في نفوس المترجمين، أو من يستخدمهم - إضافة إلى رد الفضل إلى غير أهله.

٥. تعقيب على النص الأصلي **commentary**، لا يترجمه، ولا يترجم أفكاره، إلا للاستدلال أو إقامة الحجة. ولا عيب في التعقيب إذا لم يحاسب النص الأصلي على ما لم يرد فيه، ولا قل به مؤلفه. حتى عند التعقيب تبقى الإمانة ضرورية لازمة.

٦. تلخيص وتعقيب **summary and commentary**، حيث يجتمع تلخيص الأفكار مع مناقشتها والتعقيب عليها، وهو ما يحدث عادة في الدراسات العليا ورسائل الماجستير والدكتوراه. ولا حاجة إلى تكرار الحديث عن المزلق والمضطر، لأن ما يجرّم التلخيص أو التعقيب منفردين يجرّهما مجتمعين.

٧. القياس ومعالجة **adaptation**، يعني وضع فكرة أو فكر النص الأصلي في قالب أو جنس خطابي مغاير، ومن ذلك ترجمة قصيدة إلى قصة قصيرة، أو ترجمة لوحة إلى مقالة، أو ترجمة مسرحية إلى قصيدة. ومن ذلك ما قلنا في الثقافة العربية من وضع قواعد النحو وأحكام التلاوة في قالب شعري حتى يتيسر حفظها واسترجاعها.

٨. تشفير **encryption**، يعني ترجمة النص إلى شفرة سرية لا يفهمها إلا نخبة يجمعها الفن أو التخصص، أو الميول والاهتمامات.

## هذا الكتاب

### وهذا كتاب

"وهذا كتاب موعظة وتعريف وتغفة وتببيه. ورفق فيه عينه قبل أن تغرق على خنوده. وتتفرغ في فصوله. وتعتبر لغيره بلونه. ومصرعه بمورده. وقد غطك فيه بعض ما رأيت في أشعة من مزج لا تعرف معناه. ومن بطلة لم تطلع على غورها. ولم تتر لم اجلت. ولا لأي علة تكلف. وأي شيء لريد بها. ولاي جذ لعنل تلك الفهل. ولاي رخصة لجنسنت تلك البطلة؛ ولم تتر أن المزاج جذ قد يجنب ليكون علة للجذ. وأن البطلة وقار ورزقة. فاكلف لتلك العقبة. ولما قال الفحل بن لعمد: لا يصل لحد من علم النحو إلى ما يحتاج فيه. حتى يتعلم ما لا يحتاج إليه. قال ليو شعر: فاكلف لا يتوصك في ما يحتاج إليه إلا بما لا يحتاج فيه. فقد صار ما لا يحتاج فيه يحتاج إليه. وذلك مثل كتابنا هذا؛ لأنه إن حملنا جميع من يتكلف قراءة هذا الكتاب على من لحق. وصعوبة الجذ. ونقل العنونة. وحنية فوقار. لم يصبر عليه مع طوله إلا من تجرد للطعم. وفهم معناه. وذاق من ثمرته. واستشعر قلبه من عزه. ونال سروره على حسب ما يورث لطول من كلف. والكثرة من السعة..." (الجلعظ: العمون. موقع الورق. ص ١٢).

لعل من الملام أن نسوق هذه المقدمة (ولمها بشرح الجاعظ علة ما يحتويه كتابه من مزج) في مقام التبرير. تبرير الكلام عن الترجمة في مقدمة تبسيط التداولية. في مقدمة الجاعظ جملة لعلها ذهبت مثلاً. وإن لم تكن قد فعلت فهي جديرة أن تفعل. ألا وهي "لا يصل لحد من علم النحو إلى ما يحتاج فيه حتى يتعلم ما لا يحتاج فيه". أما تبرير الكلام عن الترجمة في مقامنا الراهن فهو بيل أن الترجمة في معاشها الرحب تشمل ما يجد القارئ في هذا التبسيط من تلخيص وتعقيب ومعالجة. هذا إلى ما فيه من ترجمة بالمعنى الضيق للمصطلح.

ما علاقة كل ما سبق بما نحن بصددده في هذا التبسيط؟ إذا كانت العقبة هي تقديم التداولية للقارئ العربي. دون دعاء السبق. لأن المقاربة ليست الأولى. فلماذا لا نترجم نصاً من النصوص المؤسمة في التداولية - كتاب لجون سيرل أو لجون أوستن أو لجويفري لينش. على سبيل المثال؟ الإجابة يسيرة وحاضرة: لأن نأيا من هذه النصوص لا يحتوي كل طروحات التداولية ومفاهيمها وأدواتها. ولأن ما في كل نص على حدة ربما لا يلبي القارئ في السياق العربي - من تفاصيل. واستطرادات. وإحالات إلى سياقات غريبة. وهولمش مرهقة. وغير ذلك. على أن هذا لا ينبغي أن يكون مبرراً

لمعرفة أفكار الآخرين. من هنا، تؤثر المقاربة الراهنة ترجمة التفكير الأسلمية والمصطلحات وتعريفاتها وبعض الأمثلة، على سبيل التلخيص، مع تطوير تلك المصطلحات والتعريفات بما يناسب اللغة العربية، بما يضمن حداً فنياً من القبول، وإضافة لمسة وتوضيحات قريبة من العقل العربي وتطبيقات وحالات في البلاغة العربية، على سبيل المعالجة والتأصيل، بما يناسب المقام والفكرة والمصطلح.

هذه فتدولنية، إذن، تبسيط مُخلّ مهما طال، ينطلق من كتابات أوستن Austin (١٩٦٢)، وجرايس Grice (١٩٧٥)، وسيرل Searle (١٩٧٥)، وليكوف Lakoff (١٩٧٣)، وليتش Leech (١٩٨٣)، وهالداي Halliday (١٩٨٥)، وغيرهم، ودراسات الخطاب عند دي بوجراند De Beaugrande، وفان ديرك van Dijk، والتحليل النقدي للخطاب، وتحليل الخطاب الميامي عند الأخير وعند بول تشيلتون Chilton وشيفنر Schaffner، وغيرهم، لكنه لا يتوقف عندها. والفنية في كل ما يرد بعد هذه المقدمة هي التبسيط وتقديم بعض المفاهيم والنماذج والقواعد والأنواع القابلة للممارسة والتطبيق. لا تثريب على هذا التبسيط إذا أغفل المنهات الفلسفية، وتفاصيل التفاصيل، والانتقادات، والانتقادات المضادة، والتعريفات، وجنل المصطلحات، وقضايا الحدود بين التخصصات، والنظريات والاتجاهات اللغوية، لأن هذا له مقامات أخرى. ولا تثريب على هذا التبسيط إذا وجد فيه فرائز كثيرة من التصرف، لأن التصرف بما يضمن وصول الفكرة على حساب ترجمة الحرفية الكاملة هو بعض أنواعه. غير أن التصرف لا يضي بحال من الأحوال أن ننسب إلى مؤلف ما لم يقل، إنما يعني أن نقرأ له بالفضل في ترسيخ الفكرة وتقديم المصطلح وتطوير النظرية أو النموذج، ثم ننطلق منه في التعريب والتوضيح والتمثيل، وهي ما يناسب ذلك من نصوص البلاغة العربية ومفولاتها.

قد تبدو فصول هذا  
 التبسيط غير  
 مترابطة، لكنها ليست  
 كذلك. إن الفصول  
 التي يضمها هذا  
 الكتاب هي  
 الموضوعات الكبرى  
 في التدولية، وما  
 ينصل بها من تحليل  
 الخطب على وجه  
 الصوم، وتحليل  
 الخطب السياسي  
 على وجه  
 الخصوص. يبدأ  
 التبسيط بمؤلين: "ما  
 هي التدولية؟"  
 وكيف تطورت؟  
 وتشمل هذه البداية  
 موجزة تعريف  
 التدولية، وترجمتها،  
 ونبذة عن جذورها  
 وخلفياتها. يتبع ذلك  
 الكلام عن السياق،  
 خصوصاً ذلك

## أيها القارئ

"أيها القارئ!

هذه مقالات مختلفة في مواضيع شتى كتبت في وقت  
 متفاوتة، وفي ظروف ولحوا لا علم لك بها ولا خبر على  
 الأرجح. وقد جمعت الآن وطبعت وهي شاع المجموعة  
 منها بشرة قروش لا أكثر! ولست ادعي تنفسي فيها  
 شيئاً من الصق أو الابتكار أو السداد، ولا تأرّعها  
 ستحدث انقلاباً فكرياً في مصر أو فيما هو دونها، ولكني  
 أقسم أنك تشترى عصارة عقلي وإن كان فجاً، وشرة  
 إطلاعي وهو واسع، ومجهود أعصابي وهي سفهة،  
 بلهس الأمان! وتعل نتحسب! ... وفي الكتاب عيب هو  
 الوضوح لأعرفه! وستروه بلا نصب، وتعلمه بلا عناء  
 ثم يخيل إليك من أجل ذلك أنك كنت تعرف هذا من قبل  
 وأنك لم تزد به علماً! فرجتي إليك أن توفّر من الآن أن  
 الأمر ليس كذلك وإن فعل على نقض ذلك" (إبراهيم عبد  
 القادر المازني: حصص الهشيم، الطبعة، ١٩٢٤، القاهرة  
 طبعة مكتبة الأسرة، ٢٠٠١، ص ٣-٤). هذه مقدمة  
 أخرى لطيفة لكن طرفتها ليست تبريراً شافياً لوجودها  
 هنا. السياق مختلف - سياق هذا الكتاب وسبق حصص  
 الهشيم - وكذا قيمة كل من الكتابين واهداهما  
 وأسلوبهما. لكن من اللائق أن أعترف بمثل ما اعترف به  
 المازني في قوله "لست ادعي تنفسي فيها شيئاً من الصق  
 أو الابتكار أو السداد، ولا تأرّعها ستحدث انقلاباً فكرياً  
 في مصر أو فيما هو دونها".

لما إن الكتاب "عصارة عقلي... وشرة إطلاعي...  
 ومجهود أعصابي..." فهذا مما لا يستطيع أن ذهب فيه  
 إلى ما ذهب إليه المازني. هذا التبسيط ثمره سنوات من  
 التعلم والقراءة والتعظيم. والحال هكذا، فلابد أن رد  
 الفضل لأطه من لسانة لغت من علمهم تتمنا أو قراءة  
 أو استماعاً أو مراسلة، ومن تحاورت معهم من زملاء  
 وأصدقاء وطلاب، ومن لم أشرف بالتحرف إليهم من  
 لسانة قرأوا ما كتبت فأعذوني على إصلاح كثير مما فيه  
 من عيوب. أما ما بقي يغير إصلاح، فلا تثريب فيه  
 عليهم. ولا تثريب عليهم فيما يضم الكتاب من ترجمت.  
 وكلها لكتبه ما لم يرد غير ذلك في موضعه.

التصور الذي قدمه دل هايمز، ثم النحو الوظيفي والطروحات هقيداي. وتصنيفه وظلف اللغة وأفعالها، ثم المبدأ التعلوتي لبول جريمن. وهو الأسس الذي قامت عليه نظريات الكيامة واللياقة، وأمثلة لتوظيفه توظيفاً نكياً في النشر العربي. ثم التضمين وما يرتبط به من الافتراض المسبق والمعطوم من التفتظ أو الجملة بالضرورة. وجميعها تتصل اتصالاً وثيقاً بهذا المبدأ. وتفسر كثيراً من قتهلقة لتحقيق غايات بلاغية. ثم نظرية لأعمال اللغة في فصل "ماذا نفعل بالكلمات؟". وهو فصل تاسيسي مهم تتطلى منه جملة مفاهيم تدولية. ثم التلقب والكيامة والنظريات المهمة في هذا الصدد للكوف ولينش وبرون ولوكسون. ثم الإشارة التي تتجاوز ما نعرف من أسماء الإشارة إلى الإشارة الاجتماعية والخطائية والزمنية والوجدانية، تتبعها نبذة عن التدولية العلمة التي طورها هابرمنس. وتسمى إلى التوفيق بين النظرية والتطبيق. ثم تحليل الخطاب ولغويات النص. وما يرتبط بهما من دراسة لسبك والحبك وشروط النصية، ثم التحليل النقدي للخطاب ومفاهيمه. ومنطلقته. وأخوته. ثم تحليل الخطاب السياسي، وهو امتداد مهم لتحليل الخطاب التقليدي والنقدي. يلي ذلك تعريج على دراسات تحليل الخطاب (السياسي) في العلم العربي. وينتهي الكتاب بمجموعة من النصوص والتطبيقات لبعض ما ورد فيه من أدوات ومفاهيم.

وفي الكتاب عدد كبير من الاستطرادات ترد في نهاية كل فصل من فصوله. لعلها لا تبدو نظرة أو منقحة، بعضها استطرادات مهمة عن المفاهيم. أو الاموات. أو الأطروحات التي يتناولها الكتاب، وبعضها أمثلة طريقة في مواضيعها، وبعضها اشارت إلى البلاغة العربية بما يناسب المقام. وبعضها قدامات مهمة ذات صلة بموضوعات الكتاب، أو تعليقات على ما فيه من مصطلحات. أو على مشكلات ترجمة تدولية في الثقافة العربية.

## ما هي التداولية؟

التداولية لغة من التداول، والتداول تفاعل. وكلُّ تفاعل يلزمه طرفان على فكرٍ تفسير: مرسل ومستقبل، متكلم وسماع، لو مستمع، كاتب وقارئ. على معنى أن مدار اشتغال التداولية هو مقاصد وغايات متكلم، وكيف تبلغ مستمعا أو متلقيا. وكلُّ تداول تحكمه ظروف واليات وعوامل تحيط به، لذا فالترجمة لها ما يبرزها، ويبدو أنها قد استقرت بالفعل على حساب "البراغماتية" و"البراغماتكية"، وهما، بالإضافة إلى "اعجميتهما"، ربما تزيان إلى خلط بين المقصود في هذا التمهيط والمدرسة الفلسفية المعروفة بالنتيجة أو النزاعية Pragmatism (البراغماتية أو البراغماتية)..

لنا اصطلاحا، فالتداولية Pragmatics هي دراسة اللغة قيد الاستعمال أو الاستخدام language in use، بمعنى دراسة اللغة في سياقاتها الواقعية. لا في حدودها المعجمية، أو تركيبها النحوية، هي دراسة للكلمات والعبارات والجمل كما نستعملها ونفهمها ونقصد بها، في ظروف ومواقف معينة. لا كما نجدها في القواميس والمعاجم، ولا كما تقترح كتب النحو التقليدية. خذ مثلا كلمة "شكرا"، في لسان العرب لابن منظور "الشكر: عرفان الإحسان ونشره، وهو الشكور أيضا. قل ثعلب: فشكر لا يكون إلا عن يد، والحمد يكون عن يد وعن غير يد، فهذا الفرق بينهما. فشكر من أفه: المعجزة والثناء للجميل، شكره وشكر له يشكر شكرا وشكورا وشكرافا.

وفي استعمالاتنا اليومية، تتجاوز الكلمة مجرد العرفان بالإحسان ونشره. ففتشا عنها معان جديدة، ودلالات تتجاوز حدودها المعجمية الضيقة مهما توسعت، فهنا لوحات بالفرض، أو التهم، أو الضيق. مثل آخر: ماذا تقول معلجنا العربية عن "الحرارة"، و"البرودة"، و"البينة"؟ لا بد أن ما يرد فيها (من نكر الحر بوصفه نقیض البرد، والبينة بوصفها ما يحيط بنا من كلنات وأشياء وظروف) يقصر عن إبراز كل ما تحي تلك المفردات في سياقاتها الراهنة المتباعدة (من قبيل الغناء الحارة، وحرارة



اللقاء، وبرودته، وبرودة المشاعر، والبيئة صفة لكل ما هو حقيق في بعض اللهجات العربية (المعاصرة) . يصدق هذا على العبارات والجمل والنصوص.

بهذا المعنى، تمثل التداولية، في تشغالها بعلاقة العلامات بمنتجها، ومستقبلها، وسباق إنتاجها، وتلقيها، الضلع الثالث من أضلاع مثلث علم العلامات وفق توصيف موريس Morris (١٩٣٨)، أما الضلعان الأول والثاني فهما النحو Grammar وعلم دلالة Semantics. ينشغل النحو بعلاقة العلامات بعضها ببعض، أي علاقة المفردات، والأقوات، والروابط في العبارة، والجملة، والنص، أي ببناء الجملة والعبارة، والعلاقات التي تربط بين مكوناتها، أما علم المعنى أو دلالة فيتناول علاقة العلامات بما تشير إليه، سواء كانت أشياء، أو كائنات، أو تصورات.

على سبيل التبسيط، نتوقف عند مثال واحد، وهو كلمة "عسل". من وجهة نظر نحوية يلتفتنا أفراد هذه الكلمة وبخولها في علاقات بنائية، كصفة في علاقتها بالموصوف، والتعريف والإضافة، في عبارات وجمل من قبيل "عسل طيب"، و"عسل التحل"، و"فصل فيه شفاء للناس". من ناحية المعنى، تحيل المفردة إلى مادة نعرفها، وإلى ما يرتبط بها من الصفاء والشفا، أما من ناحية التداولية، فتكتسب المفردة دلالات متباينة، وربما متناقضة، في سياقات مختلفة، وإغراض شتى، كالمدح، والوصف، والفزل، وربما التهكم.

يصدق هذا - على ما فيه من تبسيط - على سائر المفردات والعلامات، وقد كان من أثر تطور علم العلامات - وهو يستحق تبسيطا منفردا ومعالجة وفية - أن تجاوزت أضلاع المثلث الثلاثة - النحو وعلم الدلالة والتداولية - حدود اللغة لتقتدينية الضيقة، في رحابة العلامات، على معنى أن للصورة يعدها تركيبية ودلالية وتداولية، وللون، وللحركة، وللرائحة، وللإيماء، ولغير ذلك من صنوف العلامات، ولها ما للمفردات من معان قريبة، وأخرى بعيدة، وفيها ما فيها من تشبيهات واستعارات. وسوف نجد طرفا من ذلك في هذا التبسيط.

## كيف تطوّرت؟

تطوّرت التّدوليّة ضمن مجموعة من المقاربات اللّغويّة. من بينها تحليل الحوار Conversation Analysis، وتحليل النصّ Text Analysis، وتحليل الكلام/ الخطاب Discourse Analysis. بوصفها امتداداً طبيعياً لاطروحات النحو الوظيفي Functional Grammar التي طوّرها هابيداي (١٩٨٥)، كما ترد الإشارة إلى ذلك لاحقاً، ومنها أنّ المعنى ليس فيما بقول فتُحاف، ولا ما نقول للمعجم، على ما لكليهما من أهمية، ولا في الصّليات المعرفيّة المجردة من سياقاتها، لكن فيما يقصد من يستخدم اللفّة وما يريد، وفيما يلهم من يتلقاها - استماعاً أو قراءة - وفيما ينتج من دلالات من خلال ظروف السّيق.

وقد أصبح السّيق، وهو موضوع الفصل التّالي من هذا الكتاب، مفهوماً مركزياً في كل الاتجاهات الوظيفيّة، بما في ذلك التّدوليّة، وكان لتصور دل هابيز عن عناصر السّيق أصدوه الواسعة التي تظلّ تتردّد حتى اليوم. ومن مفنّعات التّدوليّة كذلك نظرية فَعَال اللّغة/ الكلام كما طوّرها جون أوسن وجون سيرل. والمبدأ التّعاوني ومفهوم التّضمين عند بول جرايمس. حتّى إذا استنوت التّدوليّة وتحليل الخطاب (مترافقين، أو متمايزين، أو متداخلين) على سوقهما، نشأت الحاجة إلى منظور نقدي سياسي، فكان التحليل النقدي للخطاب، وتحليل الخطاب السياسي.

## المسياق

### ما البلاغة؟

"قول للفارسي: ما البلاغة؟ قل: معرفة الفصل من الوصل. وقيل لليوناني: ما البلاغة؟ قل: تصحيح الاقلام. واختيار الكلام. وقيل للرومي: ما البلاغة؟ قل: حسن الاختصاص عند البداة. والقررة يوم الإملة. وقيل للهندي: ما البلاغة؟ قل: وضوح الدلالة. وتهيؤ الفرصة. وحسن الإشارة. وقيل بعض أهل الهند: جماع البلاغة لبصر بالخطبة. والمعرفة بمواضع الفرصة. ثم قل: ومن البصر بالخطبة. والمعرفة بمواضع الفرصة. أن تدع الإصباح بها في كناية عنها. إذا كان الإصباح نوعاً طريقة. وربما كان الضرب عنها صلياً يبلغ في الترك. ونحى بالظفر. قل: وقيل مرة: جماع البلاغة لتمس حسن الموقع. والمعرفة بساعت القول. وقلة الخلق بما التمس من المعاني أو غرض. وبما شرد عليك من التلظ أو تحز. (جملحظ: الميزان والنبيين. ص ٢٧. من موقع الورق).

في مربع النص المرفق بعض ما ورد

في البلاغة العربية عن "المقام" -

وهو ما يقابل مفهوم speech

situation في المقاربات الغربية

- عند الجلحظ من الكتابات تؤكد

على تحيّن الفرصة المتاحة

وظروف المناسبة لإجراز المهام

لبلاغة التواصلية، ومن كلامه عن

بلاغة الإقناع، وعند الجرجاني، في

ربطه العبارة بالمقاصد في دراسته

لتنظيم والإعجاز، وغيرهما.

في الغرب، كان لمقولات دل هابيز

Hymes (١٩٧٢) عن الكفاءة

تواصلية Communicative

Competence - التي تتجاوز

مجرد الكفاءة النحوية والصرفية

والصوتية وفهم المفردات المجردة،

في فهم الموقف والمسياق، واختيار المفردة المناسبة في المكان المناسب، إذا جاز

التعبير، وما إلى ذلك - تأثيرها البالغ في تطور التداولية اللغوية، ومن طروحات

هابيز المهمة كلامه عن المسباق، وما يندرج تحته من عوامل ومتغيرات لخصها في

كلمة SPEAKING (١٩٧٤، ص ٥٤-٥٧). فيما يلي يبين وتوضيح مضاهيا،

مع استطرادات مضافة، وسوف تتردد هذه العناصر والمكونات في كل ما ينسب من أجزاء هذا التبسيط:

§ المكان والزمان - Setting - ما يقال في البيت ربما لا يجوز أن يقال في المسجد أو الجامعة، وما يمكن أن نقبله في توقيت بعينه ربما لا نقبله في غيره.

§ المشاركون - Participants - من يتحدث إلى من؟ وعن؟ وفي حضور من؟ وما العلاقة التي تربط أطراف الحوار أو الخطب؟ بنوة، أم صدقة، أم زمالة، أم زواج، أم عداوة، أم تنتم، أم غير ذلك - كلها متغيرات مهمة تشكل اللغة. وتؤثر في اختيارات من يستخدمها على مستوى المفردات، والتركيب، والصيغ. غير أن ما ينبغي أن يركز عليه المتناول هو علاقات التقارب والتباعد التي تصل أو تفصل بين المشاركين. وهذا جانب من التحليل وجد عناية خاصة من نقد التدوينية النقدية فيما بعد.

§ الغايات والأهداف - Ends - لماذا نتكلم، أو نتحاور، أو نكتب؟ ربما بفرض الإقناع، أو الإخبار، أو الإيهام، أو الكذب، أو الخداع، أو الترغيب، أو التهريب، أو النصيح، أو التحذير، أو التطويم، أو التهذيب، أو التجميل، أو التشويه، أو المدح، أو الذم، أو غير ذلك. في البلاغة العربية فصول ناصعة عن الأغراض الشعرية، من وصف، وغزل، وتشبيب، ورثاء، وهجاء، وفخر، وهكذا، ولا بد أن من طالع بعض هذه الفصول قد وقف على تأثير الغرض الشعري في المفردات، والصياغة، والإقناع. على أن دراسة غرض الخطاب لا ينبغي أن تقتصر على النصوص الشعرية، ولا اللغوية، بل يجب أن تتجاوز ذلك إلى كل ما ينتج دلالة، لانه ينتج لتحقيق غاية.

§ تتابع وحدات النص/ الخطاب، وترابطها Act Sequence - كل خطاب يقع بين خطابين: سابق ولاحق، ويرتبط بهما، فربما تروي طريقة تعقياً على بعض ما يقول منحنك. وربما تنفخه بآية من القرآن الكريم. أو حديث شريف. وربما يعقب الاعتذار القبول، أو الإعراض، ويعقب التهنية الشكر. وفي الرسالة تحية، وسلام، فصول عن الحال والمآل، ثم الوفاء بغرض الرسالة، فالأمنيات الطيبة. والسلام.

§ الجو النفسي ونضة الحوار/ النص Key. يتجاوز مفهوم نضة في هذا السياق مجرد الحزن أو البهجة، إلى غير ذلك من سخرية، أو تهكم، أو جدية، أو قسار، أو فكاهة. ولا بُدّ أننا لاحظنا أنّ الحدود التي تفصل بين الجو النفسي وغرض النص وأهية. لا تكاد تبين في غالب الأحوال، فلا بُدّ أن يشتمل الهجاء على شيء من التهكم، والبكاء على الأطلال على حزن ولججعة.

§ ثبات تحقيق الغايات البلاغية والخطابية Instrumentalities ووسائلها وفواتها - من مفردات مختارة بضائية، وتركيب ملائمة، وصور وتعبير، وتوظيف لصنوف الاتصال غير اللفظي. لا حصر لما يمكن أن يستخدم المتكلم أو الكاتب من أدوات لتحقيق غاياته البلاغية والتواصلية.

§ القواعد التي تحكم إنتاج النص/ الخطاب وتلقيه Norms من قواعد لغوية خطابية تتسم مع جنس الخطاب وغاياته، وقواعد اجتماعية تنظم استخدام اللغة وإنتاج الخطاب عموماً، وقواعد تقنية تتسم مع الوسيلة التي ينتقل من خلالها الخطاب.

، الجنس/النوع الخطابي الذي ينتمي إليه النص/ الخطاب Genre (من لازم في هذه المرحلة من نضج التداولية وتحليل الخطاب أن نتخلى عن مفهوم الجنس الأدبي. ما معنا لا نتحدث عن الأدب، لصالح المصطلح الأرحب. وهو الجنس أو النوع الخطابي). تفرض لجناس الخطاب المتباعدة قيوماً مختلفة على قتلجه. حين نقرأ تقريراً لخبزياً عن مباراة في كرة القدم، نتوقع أن نجد استعادة لما جرى في شوطيها، وما حطت به، أو لم تحفل به، من أهداف، وحدث آخر مؤثرة، ونتوقع أن نعرف أسماء اللاعبين، وطاقم التحكيم، وزمان المباراة، ومكانها، وما إلى ذلك. نتوقع كذلك سرداً في صيغة الماضي، وأفعال حركة، وتحول، واستعارات "حربية"، وطرقت سبك وحبك تحيل إلى الزمان من بداية مباراة حتى نهايتها.

ومن الكلام عن السياق ما ورد عن مالفينوسكي ومن بعده روجر فلور Fowler (١٩٨٦) من تصنيفه إلى سياق الجملة أو العبارة (السياق اللغوي) context of

utterance، وسباق الموقف context of situation، وسباق الثقافة context of culture، وهو تصنيف ينتقل من الضيق إلى المنعة - من سياق الكلمات والتركييب، إلى ما يحيط بها من ظروف الزمان والمكان، والظروف الاجتماعية، والعلاقات بين المشاركين في الخطاب، إلى الثقافة التي ينتج فيها الخطاب. وما تشتمل عليه من قيم، ومعتقدات، وعادات وتقاليد، وطقوس وشعائر، وأساطير، وغير ذلك.

# 1

فان دايك (٢٠٠٨)

## مقدمة عن السياق

قبل ثلاثين عاما، ألفت كتابا بعنوان (النص والسياق) تناولت فيه مفهوم النص تناولاً شاملاً جداً مسهباً، لكن السياق - وبما له من أهمية بالغة في فهم الجنور الاجتماعية للخطاب - لم يحظ بنفس هذا التناول في الكتاب. فيما أعقب ذلك من دراسات في مجال التحليل النقدي للخطاب - على سبيل المثال في دراستي عن الضمنية والأيدولوجيا والخطاب - تناولت السياق بتوسع وإسهاب بوصفه خلفية اجتماعية للخطاب، غير أنني لم لتناوله من الناحية النظرية.

لقد درج تناول السياق في دراسة اللغة والخطاب بالنظر إلى عدد من المتغيرات الاجتماعية المعقدة، كالنوع والطبقة الاجتماعية والخلفية العرقية والسن والهوية، أو الظروف الاجتماعية التي تحيط بالخطاب نصا كإن لم كلاما. في دراست الإشارة indexicality سواء من جوانبها الشكلية النحوية أم من زاوية بينتها الاجتماعية، يرد تعريف السياق دلاليا بمعنى ما يُشار إليه أو ما تحيل إليه تعابير

الإشراطية. لكن يبقى هذا التعريف قاصرا ومحدودا بالإشارة إلى الزمان والمكان. ففى نظرية فعل الكلام (اللفظة) **Speech Act Theory** تفصيل بعض سمات من يتكلم ومن يسمع أو يستمع - من خلفياتهما المعرفية ورغباتهما ومكتبة كل منهما الاجتماعية - تفصيل يسعى إلى صياغة لشراط للملازمة وضرورتها. لكن نظرية فى نسخها المتعاقبة لم تسع إلى تحليل هذه الأشرط والضرورات السياقية تحليلا منهجيا رصينا.

فى التحليل النقدي للخطاب **Critical Discourse Analysis**. تحظى الظروف الاجتماعية التى تحيط بالخطاب باهتمام كبير، خصوصا ما يتصل منها بالقوة (أو السلطة) **Power** وسوء استخدامها، لكن هذا الاتجاه فشل أيضا فى تطوير نظريات واضحة المعالم للمبىاق تعينه على ترسيخ مشروعه النقدي. إن القوة لا تتبدى فى بعض بعد "خطاب الأقوياء" فحسب، بل تبقى الحاجة إلى فهم سياقها فواسع المرشأ حتى تتجلى علاقتها بالخطاب نصا كان لم كلاما وحتى نفهم كيف يعيد الخطاب إنتاج البنى والامباق والعلاقات الاجتماعية.

و قد تطورت الدراسات النفسية المعرفية للخطاب وكذا درست الفناء الاصطناعي تطورا ملموسا فى العقود الأخيرة فيما يتصل بالتعرف على العمليات والتمثيلات الذهنية التى يشتمل عليها إنتاج الخطاب وتلقيه. لقى هذا التطور الكثير من الأضواء على الدور الجوهرى للمهم للنماذج الذهنية والمعرفية فيما يتعلق بمعالجة الخطاب وتداوله. غير أن هذه النماذج ظلت دلالية فى جملتها على حساب الجوانب التداولية. وبإستثناء عدد من الدراسات التجريبية التى تناولت الفروق الفردية واختلاف المقاصد والأهداف، لم يحظ أثر المبىاق فى معالجة الخطاب بما يستحق من دراسة عملية منهجية منتظمة.

فما علم نفس الاجتماعى فهو من بين فروع المعرفة القليلة التى طورت وقسمت أفكارا عن بنية المواقف والوقائع والأحداث الاجتماعية من الممكن أن تكون أساس نظرية سياقية. غير أن هذه الأفكار لم يكن يقصد بها مبىاق الخطاب. فى الحقيقة يبقى

الانشغال بدراسة الخطاب هامشياً في علم النفس الاجتماعي إجمالاً. إلا أن في التحليل النفسي للخطاب أو "علم نفس الخطاب" إذا جاز التعبير - Discursive Psychology و إذا كان لأي من فروع المعرفة أن يلقى الضوء على طبيعة السياق وفكره في الخطاب. فلعلم الاجتماع أن يفعل ذلك، لكن المفارقة هي أن لتأثير المهم نظم الاجتماع في دراسة وتحليل الخطاب قد ذهب إلى تحليل المحادثة أو الحوار conversation analysis الذي ظل - على الأقل في بدايته - منجساً من سبيله أكثر من تحليل الخطاب، يركز على بنية التفاعلات اللغوية وتنظيمها على حساب زمتها ومكانها وسمات المشاركين فيها. غير أن علينا أن نتوقف هنا عند المحاولات المنتشرة في عقود سابقة لتحديد وتعريف الموقف الاجتماعية social situations في علم الاجتماع والتي بلغت نضجها في كتابات رفنسج جوفمان Goffman - ولعله أكثر علماء الاجتماع إسهاماً في لقاء الضوء على أثر الموقف الاجتماعي في الكلام والتفاعلات اللغوية.

غير أن الأنثروبولوجيا، خصوصاً دراسة بينات الكلام ethnography of speaking والأنثروبولوجيا اللغوية، هي الوحيدة من بين الاتجاهات البحثية التي تشق باللغة التي اهتمت اهتماماً واضحاً لعقود عدة بدراسة السياق بوصفه مكوناً جوهرياً من مكونات "الواقع أو الأحداث التواصلية". بداية من طرح دل هابمز Hymes تصوراً عن تلك المكونات والذي اختزل في كلمة SPEAKING في ستينيات القرن الماضي. يتصل بذلك ما قلم به جون جومبيرز Gumperz من دراسات تنويرية وما أجرى غيره من دراسات في علم لغة الاجتماع التفاعلي Interactional Sociolinguistics تتناول تحليل لغة في سياقها الاجتماعية contextualization. وحتى يومنا هذا، يظل هذان الفرعان من الأنثروبولوجيا منفردين فيما ينشر من دراسات وكتب عن السياق ووضع اللغة في سياقها الاجتماعية.



من خلال ما سبق من عرض موجز، نستطيع أن نخلص إلى أن هناك اهتماماً متزايداً بدراسة السياق في كل فروع المعرفة في الإستاتيكت والطوم الاجتماعية. غير أن هذا الاهتمام ما زال يعوزه التركيز. هناك آلاف من الكتب في غير فرع من فروع المعرفة نجد في عناوينها كلمة "السياق" context لكن في جُلّ هذه الكتب تفتقد المفردة لصرامة الدلالة، فتشير إلى "البيئة" أو "الموقف" أو "الخلفية" أو "ظروف" الاجتماعية أو السياسية أو الجغرافية أو الاقتصادية. ويندر أن ترد بمضاهها المحدد وهو "سياق النص أو الكلام".

وهناك عدد لا بأس به من الكتب في اللغويات ودراسات الخطاب والطوم الاجتماعية يرد فيها السياق بوصفه مجموعة من القيود التي تحيط بالخطاب وتحدد نتائجه ونواحيه. غير أن هذه الدراسات تركز في جملتها على الخطاب ذاته. لا على سياقاته المعقدة المتشابكة. ليس هذا بمستغرب لأن مفهوم السياق لا يمكن أن يتجلى إلا بالنسبة إلى النص. على معنى أن النص - أو الكلام - هو الظاهرة المحورية وبؤرة الاهتمام. أما السياق فتكمن أهميته في إلقاء مزيد من الضوء على الخطاب وتيسير تحليله وفهمه. وإذا لم يؤد السياق هذا الدور، فلن دراسته المجردة تنتمي إلى علم النفس أو علم الاجتماع أو الأنثروبولوجيا في دراستها الزمان والمكان والفاعلين في المجتمع وسماتهم المميزة وكذا مداركهم ونشاطاتهم وتفاعلاتهم وممارساتهم وتنظيماتهم الاجتماعية.

لقد ن الأولن لأخذ السياق مأخذ الجد ولصياغة نظريات واضحة المعالم عن السياق والطرق التي يربط بها بالخطاب والتواصل. هذا الكتاب. وكذلك كتاب (المجتمع والخطاب) (van Dijk, 2008) الذي يتناول دراسة السياق في الطوم الاجتماعية، محاولة لصياغة نظرية يصدق عليها ما سبق من وصف. في سبيل هذه الغاية، يتناول هذا الكتاب بالدراسة مفهوم السياق واستخدامه وما يمكن أن يندرج تحته من عناصر في اللغويات وعلم اللغة الاجتماعي وعلم النفس المعرفي. أما كتاب (المجتمع والخطاب) فينتقل بهذا التناول النظري إلى علم النفس الاجتماعي وعلم الاجتماع

والأنثروبولوجيا، وسوف ترد إشارات إلى بعض الدراسات في هذه العلوم في غير موضع من هذا الكتاب. ورغم أن الكتابين متصلان لا سبيل إلى فصلهما، يظل كل منهما دراسة مستقلة بذاتها حيث يخاطب هذا الكتاب المهتمين باللغويات وعلم اللغة الاجتماعي وعلم النفس المعرفي، بينما يخاطب الآخر المهتمين بعلم النفس الاجتماعي وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا والعلوم السياسية. ولعني رجو أن يتمكن من قراءة كتابي هذا من قراءة قرينه الذي يتناول السبيل في العلوم الاجتماعية لما بين الكتابين من وثيق الصلة ولما بين السياقات الاجتماعية للخطاب من ناحية ودراسة المؤلف والتفاعلات التواصلية في العلوم الاجتماعية من الناحية الأخرى من علق وصلات.

و لأن هذا الكتاب هو أول دراسة مستقلة تجعل من مفهوم السياق شقها فشاغل، فلا بد أن نقرأ بوصفها دراسة استكشافية. وهي دراسة نظرية تمتلهم أفكاراً وتطورات ذات صلة في اللغويات وعلم اللغة الاجتماعي وعلم النفس المعرفي. وترجع عددا كبيرا من الأبحاث التطبيقية، لكنها لا تقدم جديدا فيما يتصل بدراسة السياق في بنات الكلام والتواصل. عوضاً عن ذلك، يوضح الكتاب النظرية التي يبنورها من خلال نتوله نحد أكثر للخطابات المعاصرة تأثيراً وأهمية وهو الجدل الذي دار حول العرق في مجلس العموم البريطاني. لقد تقدم توني بلير في خطبه ضمن هذا الموضوع بطلب يجيز الحرب على العراق - وهي الحرب التي علينا جميعاً عوئها فوخيمة - ودفع عن طلبه.

في خطاب بلير وفيما تلاه من كلمات لهاها أعضاء البرلمان البريطاني أمثلة تثبت أن أية مقارنة تجرد الخطاب أو الحوار من سياقاتهما تظل مقربة فاصرة وربما ينتج عنها مجرد توصيفات سطحية شكلية، وربما سانجة، لا تقي الخطاب أو الحوار حقهما من التحليل، نك لأن الخطاب وما أعقبه من كلمات لا يمكن اجتثاثهما من الواقع الاجتماعي والسياسي الذي أحاط بهما. ولأن من فيديهي أن كل شيء يمكن أن يكون له صلة بالخطاب عموماً - على الأكل تلك الموضوعات التي نتكلم عنها أو فيها وما لا حصر له من المقامات والمواقف التي نتكلم أو نكتب أو نستمع أو نقرأ فيها - فإن نظرية السياق يتهددها خطر جسم هو أن تنتهي إلى نظرية بلا معلم

محددة، "نظرية عن كل شيء". لذا فمن الأهمية بمكان أن نحدد مجال النظرية وأن نفصلها عما يحيط بها من ظواهر اجتماعية. وليس من قبيل المبالغة أن نقول إن خطاب توني بلير ينبغي أن يقرأ لا بوصفه مجرد خطاب رئيس وزراء يتوجه به إلى أعضاء البرلمان - وإلى الأمة البريطة إلى العلم - في سياق التفككت البرلمانية التي جرت في مجلس العموم البريطاني يوم الثامن عشر من مارس، ٢٠٠٣. بل بوصفه كذلك جزءا لا يتجزأ من سياسة المملكة المتحدة الخارجية وعلاقتها بالولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي ومن موقفها من قضية الشرق الأوسط وما إلى ذلك.

فإذا شئنا ألا نضيع في متاهة السيفات التي لا نهاية لها، فلا بد أن نقع بأن ليس كل ما نراه "خلفية" للخطاب جزءا من سياقه بالضرورة، طالما أننا نلتزم الصرامة في تعريف مصطلح السياق على المستوى النظري. إن بلورة وتطوير نظرية عن السياق تعني أول ما تعني اختيار تلك العناصر التي يتكون منها الموقف التواصلية وتتصل اتصالا وثيقا بما يشتمل عليه من نص أو كلام. يستلزم هذا أن نتعرف بداية على مفهوم الموقف التواصلية في اللغويات وعلم اللغة الاجتماعي وعلم النفس المعرفي وكذا الاجتماعي وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا، ثم نتوصل إلى معايير تحدد ما تشتمل عليه نظرية السياق وما لا تشتمل. هذا الكتاب ليس دراسة استكشافية أولية أو مراجعة لعدد كبير من الدراسات السابقة فحسب، بل يضيف إلى ذلك طرح مقولة نظرية ربما تبدو من قبيل الكلام المعاد، على الأقل بالنسبة لعلماء النفس وبعض علماء الاجتماع القدامى الذين اهتموا برصد الظواهر الاجتماعية المعقدة والسلوكيات الواعية، لكنها تبقى غير واضحة في كثير من العلوم الاجتماعية وكثير من الاتجاهات التي تهتم بالخطاب والتواصل اليوم. لما المقولة فبسيطة، لكنها بلغة الأهمية في فهم ماهية السياق وطبيعته وعلاقته بالخطاب:

"ليس ما يؤثر في الخطاب أو يتأثر به هو الموقف الاجتماعي. بل رؤية المشاركين في الخطاب هذا الموقف وإدراكهم إياه".

ليست الميقات إذن مجموعة من العطل المباشرة التي تبرز الخطاب ولا من الظروف الموضوعية المجردة، بل هي مجموعة من التصورات الذاتية الشخصية التي تتشكل وتتغير باستمرار أثناء التفاعل بين المشاركين في الخطاب بوصفهم أفراداً يتمتعون في جماعات ومجتمعات. أية ذلك أننا إذا سلمنا بأن الميقات هي مجموعة من الظروف والقيود الاجتماعية الموضوعية المجردة، فلا بد أن نتوقع ممن يفتقرون الموقف الاجتماعي نفسه أن يتكلموا بنفس الطريقة والأسلوب. لذا ينبغي أن تتجاوز نظرية السياق الوضعية الاجتماعية والواقعية والحنفية في أن، فالميقات ما هي الا تصورات المشاركين في الخطاب. لهذا السبب أيضا تبقى الفرضية الأساسية لنظرية السياق فرضية اجتماعية معرفية ويبقى المنظور الذي يتلمس عليه هذا الكتاب منظورا اجتماعيا معرفيا في دراسة السياق في إطار مقارنة بين نوعية، عبر تخصصية شاملة.

تفسر مقولة الميقات بوصفها تصورات ذاتية للمشاركين في الخطاب كذلك تمايز النصوص وتفردها وتمايز أجزائها مكتوبة كانت لم منظوفة. وتفسر كذلك الأرضية المشتركة والتمثيلات الاجتماعية المتجاسمة للمشاركين في الخطاب عندما يبلورون من خلالها تصورهم الموقف الاجتماعي الذي نطلق عليه السياق على سبيل الاصطلاح. وسوف نرى أن في علم النفس مفهومنا نظريا مفيدا يضع النظرية على أساس معرفي متين، ألا وهو مفهوم النموذج الذهني. لذا سوف نستبدل بمفهوم الميقات، بوصفها تفسيرات ذاتية للمواقف التواصلية، مفهوم نماذج السياق.

لما ما تفعل هذه النماذج وما يجب عليها أن تفعل فيبحث فيما يلي:

§ تؤثر في إنتاج الخطاب وتلقيه من قبل المشاركين فيه.

§ تتيح للمشاركين في الخطاب تطويعه بما يناسب الموقف التواصلية ويناسب ظروفهم أثناء التفاعل أو التواصل.

§ تضع الحلقة المفقودة المهمة في النظرية المعرفية للنص، بين النموذج الذهنية للأحداث موضع الخطاب أو الإشارة وبين صورة الخطاب وطريقة صياغته في الواقع.

§ تحدد ظروف الملاءمة والمناسبة للخطاب ومن ثم تصبح أساساً للنظرية التداولية عموماً.

§ تضع أساس نظرية الأسلوب والنوع الخطابي ومستوى اللغة وكل ما يقع في الخطاب من تنوع وتباين.

§ تمثل الحلقة المفقودة بين الخطاب والمجتمع، بين الشخصي والاجتماعي. بين المضي والمبني. وهي لذلك تتيج تناول إشكالية البنى الصغرى والبنى الكبرى بما يرب الصدع بينهما بنفس الطريقة على الأقل فيما ينطلق باللغة والتواصل.

§ يمكن صياغتها في اللغويات التكلدية والنحو والقواعد الشكلية المجردة بما يتجاوز الأبعاد الدلالية للتعبير الإشارية - وقد تبلورت هذه الصياغة لكن على استحياء.

§ تضمن استمرار البحث اللغوي الاجتماعي في تجاوزه دراسة الترابط بين الخطاب والمتغيرات الاجتماعية، وفي اهتمامه بآثر العوامل الاجتماعية على التركيب والأساق الخطابية.

§ تجلّى بعض أفكار ومفاهيم علم الاجتماع للتقليدية التي لم تفقد أهميتها ومن تلك تعريفه الموقف، الذي يبقى صالحاً للتطبيق في تحليل التفاعلات اللغوية والحوارات أو المحادثات.

§ تبين كيف يمكن للمصاق أن يتحكم في أبعاد الخطاب نصاً كان أم كلاماً، تلك الأبعاد التي تستعصى على الملاحظة لكن تبقى لماعة مؤثرة.

§ تسهم في إعادة صياغة بعض الأطر النظرية التقليدية في الأنثروبولوجيا فيما يتصل بدراسة الوقائع التواصلية.

§ كما يتضح من خلال التحليل المصاقي النقدي لخطاب توني بليز وما أعقبه من تدخلات في موضوع العراق، يظل الوصف المنهجي المنضبط للمصاق أساساً من الأسس التي تقوم عليها دراسات الخطاب النقدية وغيرها من الاتجاهات الاجتماعية السياسية في تحليل الخطاب.

ولأنّ النظرية ما زالت في طور التشكل، لم تكتمل صياغتها بعد. فبقني أرجو من هذا الكتاب أن يكون دعوة إلى مزيد من الدراسات والأبحاث. فلكتاب يتناول عددا كبيرا من القضايا التي تنتظر مزيدا من البلورة النظرية والدراسات التجريبية النفسية والوصف الإثنوجرافي الذي يهتم ببيانات الخطاب وكذا مزيدا من تحليل موسّع للخطاب. أن تأثير السياق عادة ما يكون عميقا وغير مباشر ومعقدا ومربكا وربما ولم به القائل. تتجاوز عواقبه الأثر التقليدية للمتغيرات الاجتماعية المستقلة.

إنّ السياق يشبه غيره من الخبرات والتجارب الإنسانية، ففي كل لحظة وفي كل موقف يحدد السياق كما تحدد تلك الخبرات والتجارب كيف نرى الموقف فإراهن وكيف نتصرف إزاءه أو فيه. لذا فإنّ من أوجب واجبات العلوم الإنسانية والاجتماعية عموما ودراسات الخطاب خصوصا أن تنق على تأثير السياقات المختلفة في الخطاب نصا كن لم كلاما، وكذا على تأثيره فيها.

لقد بذلت من الجهد المضني لسنتين عدة في تأليف هذا الكتاب وكتاب (المجتمع والخطاب) أكثر مما بذلت في أي مما سبق من كتبتي. ومع أنّ صياغة نظرية، وما يتصل بذلك من تحليل بعض الأمثال الطريفة، فيه ما فيه من متعة، فربما يقع من بطور نظرية ومن بحلل فريسة اليأس لما في القضايا والأسئلة التي تطرحها من تعقيد. ذلك لأنّ صياغة نظرية عامة عن السياق وعلاقته بالخطاب لا ينبغي أن تتوقف عند مجرد الدراسة المركزة الدقيقة للضمائر أو تبادل أطراف الحوار أو الاستعارة، على سبيل التمثيل لا الحصر، مع أن في كلّ منها ما فيه من تفرعات وتعقيدات.

إنّ صياغة نظرية سياقية تستلزم أن تؤخذ كلّ أبعاد الموقف الاجتماعية وجوهرها وكذا كل المتغيرات البنائية في الخطاب واللغة المتداولة بعين الاعتبار. لا غربة، فن. في أنني قضيت سنين عدة حتى أتم بالقضايا والإنشائيات الأسلمية التي تشتمل عليها النظرية. ولا عجب أنّ هذه الدراسة، على ما قرّمت به نفسي فيها من حدود. قد أخذت تربو وتكبر حتى خرجت في صورتها الراهنة في كتابين منفصلين مثليين.

وما زال يرودني ذلك الشعور المؤزق قنني. على ما كتبت وتفتت. ثم لجأوز بعد سطح الأشياء. وهو نفس الشعور الذي خلط فهمي الخطاب وتصوّري ليهاء عندما انتهيت من تأليف كتاب (النص والميلق) منذ ثلاثين علما.

ولعل هذا الكتاب وقرينه الذي أشرت إليه فيما سبق. على ما فهمها من قصور وعيوب. أن يستفزا آخرين فيقبلوا التحدي وياخذوا على عواقبهم تطوير دراسات الميلق بوصفها مجالا مهما من مجالات دراسات الخطاب في كل فروع المعرفة الاستتابة والاجتماعية.

يبقى أن أرهب. كما دأبت. بكل الاقتراحات والتطقيات النقدية على هذا الكتاب.

## § هوامش على مقدمة فأن دايك عن الميلق

(١) لكتاب Text and Context ترجمة الى العربية بخون (نص والميلق: استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي)، ترجمة عبد القادر قينسي. لدار البيضاء: أفريقيا للشرق، ٢٠٠٠.

(٢) في الأصل: "دراسات الخطاب النقدية" critical discourse studies وهو المصطلح الذي اقترحه المؤلف بديلا لكثير شمولاً من مصطلح "تحليل النقدي للخطاب" critical discourse analysis.

- (٣) التحليل النفسي للخطاب هو أحد فروع تحليل الخطاب. يركز على ما فيه من قضايا نفسية كما نجد في كتابات جوناثان بوتنر (Potter, 1996a, b)
- (٤) ورد فيما سبق بيان وتوضيح ما يشير إليه كل حرف من حروف كلمة SPEAKING وفق شرح دل هابمز (Hymes, 1974: 54-57).
- (٥) ليس هناك ما يبرر العنت في ترجمة contextualization بحثاً عن مفردة واحدة تقابل المصطلح الإنجليزي من قبيل التمسيق والمسايفة وليس هناك ما يعرب ترجمة المصطلح إلى عبارة عربية، وذلك لاختلاف طبيعة العربية عن طبيعة الإنجليزية، من قبيل "وضع اللغة في سياقها" أو "تحليل الخطاب في سياقها"، فالمصطلح الإنجليزي نفسه يشتمل على جذر واحد وسابقة وثلاث لولحق.
- (٦) يعبر عن العلاقة الوثيقة بين النص والتمسيق شتقاً لشتى context من الأول text في اللغة الإنجليزية بإضافة con التي تعيد المصلحية والإحاطة. لا تبدو هذه العلاقة جلية بين المفردتين العربيتين "النص" و"المسيق"، لكن هناك ما يشير إليها في الجناس بين المصطلحين البلاغيين العربيين "المقال" و"المقام".
- (٧) للملازمة أو المناسبة هي بعض ما تشتمل عليه المقولة البلاغية العربية "ككل مقام مقال ولكل حادثة حديث" - وليس هذا "مقام" الإسهاب في موضوع المقام في البلاغة العربية، لكن ربما ترد إشارات إليه في غير موضع من التبسيط.
- (٨) في الأصل agency لما ترجمتها إلى "المعنى" فبلغية جمالية بوقاية في المقام الأول، حيث تتسم مع المعنى في عبارة المعنى والمعنى، على أن للترجمة مبرر آخر، فالفاعل والفاعلية في النحو الوظيفي هما جوهر المعنى في الجملة.



## من ضرورات التلقي

"في يوم الثلاثاء الثامن عشر من مارس عام ٢٠٠٣،لقى رئيس الوزراء البريطاني توني بلير خطابا في مجلس العموم تقدم فيه بطلب بجيز تخلا عسكريا بريطانيا في العراق،"بسبب استمرارها في رفض الانصياع لقرارات مجلس الأمن". وبعد ان قرا طلبه، استهل خطبه بقوله:

بلير: "في البداية افول لقد احسن المجلس صنعا بمنقشة هذه القضية ومن ثم اصدار قراره بشأنها، هذه هي الديمقراطية التي نمتحقها والتي يجاهد غيرنا لتحقيقها دون جدوى. وقرر اني لا استهين باراء من يعارضونني. نحن نراة لختيار صعب في وقع الامر - خياران أحلاهما مر: ان نعلق عملياتنا العسكرية هناك ثم تعود القوات البريطانية فارجعها او ان نثبت على موقفنا ونكمل الطريق الذي بدأه. انني اعتقد مخلصا أننا يجب ان نواصل مسيرتنا، ان السؤال الذي يطرحه كثيرون عادة هو: من اين تكتسب القضية كل هذه الأهمية الكبيرة - لا يسألون لماذا هي مسألة مهمة. ها نحن لولاء وها هي حكومتنا تواجه اختبارا صعبا يهدد الاغلبية فيها وينذر باستقالة مجلس الوزراء على خلفية سياسات الحكومة، وها هي الاحزاب الكبرى تنقسم وهي التي طالما تلتقت في كل الامور"

الاعضاء: "الاحزاب الكبرى؟"

بلير: "نعم، بالطبع أعني أيضا الديمقراطيين الليبراليين الذين ظنوا على وحدتهم في تهترهم الفرص المتاحة وفي لخطتهم".

حتى يتمكن الحضور من أعضاء البرلمان وحتى يتمكن - نحن القراء والمحاليين - من فهم هذه الفقرة كما ترد في سجلات هانسارد Hansard الرسمية فلا بد بديهة من الإلمام بقواعد اللغة الإنجليزية وقواعد الخطاب. في الوقت ذاته، يستلزم هذا الفهم قترا كبيرا من المعرفة بمجريات الأمور والعلم الذي يحيط بها - عن الديمقراطية وعن القوات البريطانية وعن العراق كما تشير هذه الفقرة ضمنيا. نلجسنا على ذلك، نستطيع أن نفهم من بين ما نفهم أن المتحدث يدفع عن رسل قوات إلى العراق حتى تتحقق الديمقراطية هناك، حيث يفترض من بين ما يفترض أن العراق ليس فيها ديمقراطية، وأن القوات التي ستذهب إلى هناك وما تعزّمه من حرب يمكنها أن تحقق الديمقراطية.

هذا الفهم الذي يتلّس على قواعد النحو وقواعد الخطاب والمعرفة بما يجري حولنا ما هو إلا جزء من الصورة. إن ما يفهم أعضاء البرلمان البريطاني يشمل إلى ما سبق أن مناقشة التدخل العسكري الذي يدعمه بلير تناسب المقام وهو مقام نقاش برلماني. ويفهمون كذلك مبررات طرح الموضوع للمناقشة وما ينافي بالبرلمان من وظائف في هذا الصدد وما يفعل المتحدث توني بلير في هذه الأثناء بالمقارنة بما ينقشه من أمور وما يعنيه وما يشير إليه ومن ذلك أنه يشير إلى القوات البريطانية التي تنتظر قرار التدخل. على مضي أن أعضاء البرلمان لا يفهمون نص خطاب بلير فحسب، بل يفهمون كذلك ما يحيط به من سياق وما يرد فيه هذا الخطاب من مضمون (لن ديك van Dijk، ٢٠٠٨، ص ١).

## النحو الوظيفي

### عن اللغويات النقدية

اللغويات النقدية (CL) Critical Linguistics هي الامتداد الطبيعي للنحو الوظيفي. وهي في وقت نفسه من مقدمات التحليل النقدي للخطاب الذي ترد مناقشته لاحقا. بل ترد في غير موضع بوصفها مرفعا لهذا النوع من التحليل. تطورت اللغويات النقدية في كتابات فولر وزملائه، ومن أكثرها تأثيرا ونبوعا كتاب اللغة والمسيطرة، لو التحكم *Language and Control* (١٩٧٩) الذي يجمع بين روجر فولر *Fowler* وجنشر كريس *Kress* وبوب هودج *Hodge* وتوني ترو *Trew*، وفيه تلميح لمقولات اللغويات النقدية، وخلفيتها الفلسفية، واللغوية والاجتماعية. ومنقشة اثر جورج اورويل وغيره في تطور هذا الاتجاه النقدي اللغوي. وشرح اتوجه ومنطقه وتطبيقات تلك الافوت في دراسة مختلف انواع النصوص. ومن منطلقات اللغويات النقدية التي يتناولها الكتاب ان البنى والتنظيمات الاجتماعية تؤثر في البنى والتركييب والاختيارات اللغوية. وان هذا التأثير ينتظم كل مستويات اللغة من اصوات، ووحدات صرفية، ونحوية، ودلالات، واختيارات أسلوبية وبلاغية، وان من أكثر العوامل الاجتماعية تأثيرا فيما سبق من الاختيارات توزيع السلطة والقوة بين المشاركين في الخطاب (ص ١٩٤). ما زالت اللغويات النقدية تمارس حضورها المؤثر في التحليل النقدي للخطاب، وفي تحليل الخطاب السياسي، رغم تطور كل منهما وتفرعهما إلى اتجاهات معرفية، وأخرى اجتماعية أو تاريخية، وأخرى تركز على الاستعمارة والمجاز. أو الجنس الخطابي وأشراطه وخصائصه، وغير ذلك من اتجاهات تتناول مختلف جوانب الخطاب والعوامل التي تؤثر في إنتاجه وتلقيه، وتلتقي جميعها في التأكيد على الارتباط بين العوامل الاجتماعية والاختيارات اللغوية.

وفق هذا السياق ومتغيراته والعناصر الفاعلة فيه. تتشكل اللغة. وعلى هذا، وعلى تأثير اللغة في سياق كذلك، يتأسس النحو الوظيفي كما طوره هاليداي (١٩٨٥). ليس هذا تخصصا لنظرية النحو الوظيفي عند هاليداي، وهي نظرية اتسي استندت إليها اللغويات النقدية التي ترد إشارة جتية إليها لاحقا، ولكنه مجرد مرور كريم على نمق ثري بوصفه خلفية ضرورية لتطور التدولية، وما تلاها. وما زانها من مقاربات لغوية وخطابية. في هذا

النسق. لا تقتصر اللغة على كونها ظاهرة معرفية. أو جملة من الترهيب، بل تتجاوز ذلك إلى أداء وظائف في سياقات متباينة، وتتلون بالموسيقى الذي تستخدمها فيه، من خلال استجابتها لتغيرات الموضوع field (في الفلسفة، أو الدين، أو الأحياء، أو التاريخ، إلى غير ذلك من مجالات وتشغالات) والعلاقات المتباينة بين المشاركين في الخطاب tenor (تقارب، أو تباعد، وما بينهما، وما حولهما من درجات وظلال) ووسقل الخطاب وقواته mode (كتابة أو شفاهة، مباشرة أو غير وسيطة أو قساة، وهكذا).

تنظم وظائف اللغة في فئات ثلاث نلاحظها هاليداي ومزات لاس ما تلاهما من مفاهيم تدلوية:

§ وظيفة تصورية: وهي تمثيل الواقع (التقرير، والوصف، والاختيار والاتباء) ideational (الكلام أو الكتابة عن العالم: "إنها تمطر"، "شرب الطفل للسن/الحليب")

§ وظيفة تفاعلية: وهي التفاعل مع الآخرين interpersonal (تأسيس علاقات مع الآخرين أو ترسيخها أو إعادة صياغتها: "يا سيدي"، "يا بني")

§ وظيفة نصية: وهي إنتاج النصوص والخطبات، وتنظيمها، ودرستها textual (الكلام أو الكتابة عن الكلام أو الكتابة - اللغة للشرح، ووسقل تنظيم الخطاب: "في المفرة السابقة")

يرتكز تمثيل الواقع في الأساس على التعدية أو التحدي transitivity، وهي ليست مجرد خاصية في الفعل في تعارض مع لزومه، بل هي خاصية في الجملة بأكملها، وتتكون الجملة كذلك من المشاركين في الفعل وظروفه. في "هنا محمد عليا بنجلحه أمس"، الفعل فعل الفتهنة، والمشاركان هما "محمد" و"علي"، وظروف الفعل تشمل السبب والزمان. من هنا تكون البداية - من الفعل، أو ما يقع أو يحدث. تنقسم الأفعال والحالات والأحداث في نسق هاليداي (١٩٨٥) إلى:

- § فعل كينونة وصيرورة أو تحويل (لفعل إسناد) relational مثل "يبدو"،  
 "يصبح"، "ما برح"، "ما زال"، "والقي"، "ووجد".
- § فعل مادية material مثل "ضرب"، "قتل"، "كسر"، "اغتل"، "صدم".
- § لفظية/ كلامية verbal مثل "هنا"، "تدأ"، "حيا"، "وكتب"، "وخط".
- § ذهنية نفسية mental مثل "يحب"، "يكره"، "يعتقد"، "يشعر"، "يخشى".
- § فعل سلوكية behavioral مثل "ضحك"، "يبكي"، "يهنئ"، "يهمس".
- § فعل وجود (ية) existential كما في "على الطاولة كوب"، "هناك قصور  
 واضح".

لا تحظى أفعال الكينونة والوجود في اللغة العربية بنفس الحظ من القتل الذي نجده  
 في الإنجليزية، لأنها في جملة الأحوال تقديرية، فحين نقرأ "على الطاولة كوب"، ندرك  
 أن تفسير الكلام "يوجد كوب على الطاولة" - هذا إذا دعت الضرورة إلى التفسير. فسي  
 "رقه ما فطنت"، المشاركون هما أنت وهو، ومن خير الفعل هو هو. وما كان له الأثر  
 هو ما فعلت أنت. وفي "أعجبتني قصيدتك"، المشاركون هما أنا وأنت. والفعل هو  
 الإعجاب. ومن خير الفعل هو أنا، وما أحدث الأثر هو قصيدتك.

## المبدأ التعاوني

يعدُّ المبدأ التعاوني Cooperative Principle في الحوار. والذي قمناه بول جريس Grice (١٩٧٥)، ركيزة أساسية من الركائز التي تقوم عليها التداولية. وداة مهمة من أدواتها هي أن. ينقسم هذا المبدأ إلى أربع قواعد على من يستخدم اللغة اتباعها إذا أراد أن يكون "متعاوناً". علينا أن نتذكر أن المبدأ التعاوني يصف ما ينبغي أن يكون، لا ما هو كائن بالفعل في مجمل الحوارات والتفاعلات الاستمعية. هنا قواعد الأربع فهي:

§ الكمية / الكم Quantity: قم القدر المطلوب من المعلومات، لا تكثر ولا تقل. "خير الكلام ما قل ودل". تتعلق هذه القاعدة بمقدار المعلومات أو كمها، لا بصحتها أو ملامتها.

§ الصق / الكيف Quality: كن صادقاً، لا تقدم معلومات خاطئة، أو معلومات لا تستطيع أن تبرهن على صحتها. "الصق منجاة"، "الأمعة فضل الطرق". كما تقول الحكمة الإنجليزية.

§ الملاءمة Relation: لتكون معلوماتك ومساهماتك ملائمة للحوار، فلا تخرج عن الموضوع، لأن "كلّ مقام مقالاً"، و"كلّ حادثة حديث".

§ الطريقة Manner: كن واضحاً ومنظماً، وتجنب الغموض والربطية، وخطب الناس على قدر عقولهم وتخصّصاتهم وخلفياتهم المعرفية - وليس "معرفة الخلفية" background knowledge، كما تذهب بعض الترجمات.

فيما يلي نماذج لتوظيف المبدأ التعاوني لتحقيق غايات تواصلية (مزيد، ٢٠٠٢). في الرقعة العربية ألف ليلة وليلة، (الجزء التاسع، ص ٦٣٤) تحكي شهرزاد لشهرير - بداية من الليلة الثامنة والمستين بعد المائة الثالثة حتى الليلة الحادية والستين بعد

لمعة الثالثة - حكاية (أتمس الوجود مع محبوبته الورد في الأكمام) وفيها نجد "أتمس الوجود" هتماً محظاً بعد أن حول بينه وبين محبوبته "الورد في الأكمام"، "و بينما هو كذلك إذ خرج عليه سبع رقبته مختنقة بشعره، ورأسه قدر القبة، وقصه توسع من الباب. وفيابه مثل أتياب الليل. فلما رآه أتمس الوجود أيقن بالموت واستقبل القبة وتشهد واستعد للموت. وكان قد قرأ في الكتب أن من خدع سبع خدع له. لأنه يندع بالكلام الطيب وينتشي بالمديح، فشرع يقول له: يا أسد القبة. يا لثب الفضاء. يا ضرغام. يا أبا الفتيان، يا سلطان الوحوش، أني عاشق مشتاق. وقد اتلفني العشق والفرق. وحين فارقت الأحباب غبت عن الصواب. فسمع كلامي ورحم لوعتي وغرامي".

يتحتم على قارئ هذه القصة أن يتحلى بقدر كبير من التسامح لمعرفة حتى يصنع وصف الأسد. وحتى يصنع ما قالته الكتب لأتمس الوجود من أن "من خدع الأسد خدع له". "لأنه يندع بالكلام الطيب" وحتى يتعاطف مع استعطاف أتمس الوجود لسبع أن يسمع كلامه ويرحم لوعته وغرامه.

من الواضح أن أتمس الوجود في أزمة حقيقية: "يقن بالموت واستقبل القبة وتشهد واستعد للموت". إزاء هذه الأزمة الطارئة، يقرر أتمس الوجود اللجوء إلى حيلة لغوية تقوم على ركنين أساسيين هما: المديح والشكوى. يبدأ أتمس الوجود بلسباغ القلب "أسد القبة" و"لثب الفضاء" و"ضرغام" و"أبي الفتيان" و"سلطان الوحوش" على الأسد. ثم ينتقل بعد ذلك إلى الشكوى مما يجد: "أنني عاشق مشتاق. وقد اتلفني العشق والفرق. وحين فارقت الأحباب غبت عن الصواب". مستعيناً بالسجع والتجسس الصوتي. ثم يأتي في النهاية الرجاء والاستعطاف. وقد فتم أتمس الوجود لنفسه بأن قرن قوة الأسد وجبروته بضطه هو ولوعته وعذابه، والحقيقة أن هذه "الخطبة المحرية" لم تحقق لأتمس الوجود مجرد النجاة من الموت المحقق. بل دفعت الأسد إلى التعاطف معه ومساعدته في الوصول إلى مكان حبيبته "الورد في الأكمام": قام الأسد ومشى نحوه بلطف، وعيناه مغرورتان بالدموع. ولما وصل إليه لحسه بلسبته،

ومشى قدماه وأشار إليه أن التبعي، فتبعه. بالطبع لم يكن هدف "قصر الوجود" الأساسي مدح الأسد، بل كان هدفه من وراء المدح أن يستدر عطف الأسد. فنجو منه: لم يكن يطمع في أكثر من هذا، ولكن الشتاء مع الاستطاف كانت لهما آثار أخرى إيجابية كما رأينا، لو صدقت شهريزاد فيما روت. فلنا أن نؤمن بأن حب الشتاء ليس طبيعة الإنسان وحده بل طبيعة الحيوان كذلك. هكذا نرى أن في هذه القصة - وفي ما يشابهها من أمثولات - خرق صريح لقاعدة الصدق في المبدأ فتعولني بفرض الإقالات من برائن الأسد.

ومن نواير شعب: (١) "قالت صديقة أشعب لأشعب: هب لي خاتمك أذكرك به، قال: فكري في منعتك إياه فهو أحب إلي"، (٢) "وجدت امرأة شعب دينارا فكتت به، فقال: صفهه لي حتى يلد له في كل أسبوع درهمين. فلما كان الأسبوع الرابع، طلبته منه فقال لها: مات في النفاس، فقالت: وبلي عليك كيف يموت الدينار؟ فقال لها: الويل لك. على أهلك، كيف تصدقين بولائته وتكررين موته في نفسه؟" (عباس، ١٩٩٠، ص ص ٢٦-٢٧).

### تخلص

"وسنكر في كتابنا هذا أن شاء الله تعالى من تخلص من قسوة الهلاك وتخلص من حبائل المنية، بحسن التوصل، ولطيف التوصل، وليس الجواب، ورفق الاستعاب، حتى علت سيئات حسنات، وعرض بالثواب بدلا من العتاب. وحفظ هذا الباب، لوجب على الإنسان من حفظ عرضه، وألزم له من قوام بدنة" (العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي، نسخة موقع الوراق، ص ١٣٠).

في ظاهر الأمر، يتصادم "أشعب" مع صديقه وزوجته، لكن الحقيقة أنه يوقع كلا منهما في شرك لغوي معرفي للخروج من مأزقين، المأزق الأول هو تهديد ملكيته خاتمه، والثاني هو تهديد ملكيته للدينار الذي حصل عليه من زوجته بالتحايل. للخروج من المأزق الأول، يستفيد "أشعب" من تحايل صديقه عليه؛

فهو ترغم أن هدفها من الحصول على خاتمته هو أن تتكره به، حينئذ يختار لها "أشعب" طريقة أخرى تتكره بها، المهم أن رغبته في أن تتكره سوف تتحقق. هي



تريد أن تذكره بالمنح، وهي بفضل أن تذكره بالمتع. لذا زوجة "نشب" فقد صنعت أن الدينار يمكن أن يلد كل أسبوع درهمين عندما كانت لها مصلحة في ذلك، وعندما افقت من الكذبة، بدلت تطلب الدينار، ولكن لشعب ساعتها يسألها سؤالاً لا تملك إجابة إلا السمكوت والندم على الدخول في الكذبة من البداية. لأن زوجة فهمت في بداية الأمر أن زوجها سوف يستثمر الدينار فيربح كل أسبوع درهمين، ولكن "نشب" في مواجهة الأزمة يتمسك بالمعنى الحرفي البيولوجي للفعل "يولد" - وطالما أن الدينار يمكن أن يلد، فيمكن أن يموت في النفاس - ولسان حاله يقول لها: تطلعت عليك الأولى، فلماذا لا تصدقيني في الثانية؟ كذباً بكذب. لا يبرز "نشب" ولا يفسر. ولكن ينكر على زوجته تكنولوجيتها وكيها بمكيالين، ويتحقق له هدفه الاسمي، وهو الهروب من مطالبة الزوجة بالدينار الذي "مات".

ومن نواتج جحا: "كان جحا ملثياً في الصحراء. فرأى ثلاثة فرسان من قطاع الطريق على بعد، فخاف وخلع ثيابه وأدخلها لحد القبور الخفية. لما وصلوا رأوه عريفاً، فقلوا له: من أنت؟ فقال: أنا ميت من جملة الأموات في هذه قبور. وقد خرجت الآن للنزهة وشمّ الهواء، فضحكوا منه وتركوه". (ابن الجوزي، ص ص ٦٢-٦٣). تنضم هذه القصة إلى أربعة أجزاء هي: موقف الأرملة، والتخطيط للتجسس، والمواجهة، والنتيجة. أما الأرملة فهي التهديد الواضح لحياة وممتلكات جحا، ويبدو أنه كان مخرجاً محتملاً، حيث بدأ فوراً تجهيز الديكور والمناظر حتى وصل قطاع الطريق إليه، فوجدوه عريفاً، وقلوا له من أنت؟ يبدو أن جحا كان يعتقد - أو كان يريد للصوم أن يعتقدوا - أن التجرد من الملابس والتواجد في دائرة المقابر كفيلان لإثبات الموت. على هذا الاعتقاد أسس جحا لحيلته في التخلص من قطاع الطريق. تتلخص هذه الحيلة في محاولة تحقيق أثريين أحدهما قريب، والثاني بعيد. لذا الهدف القريب، فهو أن يصنع قطاع الطريق أنه "ميت من جملة الأموات"، والهدف البعيد هو ببساطة أن يتركه للصوم.

هذا ما تقرره

كورين دينويل

في Denoyelle

تحليلها فتحليل في

حكايات الشطر.

حيث نرى ان

خطاب التحليل

يسمى الى تحقق

ثم معرفي تنقل

فيه الضحية الى

تصديق faire

croire، وهنك

وقعي علي تنقل

فيه الضحية الى

لفعل والتصرف

faire faire

(دينويل، ١٩٩٨).

لم يصنق قطاع

طريق - بطبيعة

الحال - ان جحا

"ميت من جملة

الاموات". كيف

يصنفون هذا وهو

يكلهمهم؟ وكيف

## العلم والأدب

يبقى المبدأ التعاوني صالحاً للتطبيق المباشر على خطاب العلوم والرياضيات. وما شبيههما. وذلك لاهتمامه بالبرهان، والكلم، والملاحة، والوضوح. والترتيب. أما فيما يتصل بخطاب الأدب، وما يحفل به من استعارات، وكتابات، ومبالغات مقصودة، وغوض وظلّفي، ورطلة معبرة (تتولها فيما تتناول التدوينة الأدبية أو الاسلوبية -

literary pragmatics أو pragma-stylistics)

وخطاب السياسة، وما يحفل به من تحسين، وتجميل، وتشويه، وكيسة، وتضليل، وتضمين، وفترض، وكذلك الدعاية والإعلان، فتكمن أهمية المبدأ التعاوني في أنه أداة مهمة من أدوات التحليل، لأن تهتكته تنسي، وتسوي، وتعجز، وتنقل تضمينات، وتعكس ظروفًا وسياقات. كما نجد هنا من مناقشات، بعبارة أخرى، وعلى سبيل التبسيط، نتحقق للغة العلم نجاعتها من خلال قترانها قواعد المبدأ التعاوني، أما لغة الأدب وما يشابهها، فيوسعها أن تحقق قبرا كبيرا من تأثيرها من خلال انتهاك هذا المبدأ. وليس من الممكن تصور حياتنا اليومية وما فيها من حوارات - وكما منكم من الأصقاء والزملاء - ونحن نطبق المبدأ التعاوني تطبيقاً "رياضياً" مجرداً دون مراعاة أو تجمل (فنجيب عن سؤال "كم ساعة؟" بكلمة واحدة مثل "العاشرة"، وعن سؤال "كيف حالك؟" بعبارة واحدة من قبيل "بخير"، ونسني الفسح فهبها دون مودة أو تطف، وننتجيب الاستطرد، دون أن نكرث لاهتمام لناس يتكلم بالفتور أو الغرور، ولا نقول إلا الفصل، حتى ونحن نصالح بين متخصصين.

لعل هذا التباين بين المبدأ التعاوني بوصفه مجموعة من القواعد المثالية المجردة، وبين مبررات ودوافع انتهاك تلك القواعد في الواقع هو بعض ما يؤخذ على هذا المبدأ، وهو كذلك ما استوجب تطوير نظرية تفسر التباين وتشرح المبررات والدوافع هي نظرية الكيسة. كما يرد لاحقاً في هذا التبسيط. كيف نقف على ما وقع من انتهاك وكيف نتوصل إلى تفسيره وتبريره؟.

يصدقون أن الموتى يخرجون للزفة وشمّ الهواء؟ لكن يبدو أنهم تعاطفوا مع خوفه وضحكوا من سذاجة حيلته - سذاجتها الظاهرية على الأقل. وإن لم يتعاطفوا، فما الذي كان يمكن أن يلغضوه من رجل "عريان" يسكن القبور؟ لكل هذه سذاجة. ولكل هذا المكر، نحبّ جحا ونتتبع أخباره.

ومن أمثلة الحيلة وحسن التصرف كذلك:

(١) "بلى أن رجلين سعيًا بمؤمن إلى فرعون ليقتله، فلحضرهم فرعون قائل للساعين: من ربكما؟ قالوا: أنت. فقال للمؤمن: من ربك؟ فقال: ربي ربهما. فقال لهما فرعون: سعيتما برجل على ديني لأقتله: فقتلتهما".

(٢) "متحن ابن أبي داود الحارث بن مسكين فيلم المحنة فقال له: شهد أن قرآن مخلوق. فقال الحارث: أشهد أن هذه الأربعة مخلوقة، وبسط أصابعه الأربعة وقال: فتوراة والإنجيل والزبور والفرقان، فتخلص".

مزال عنصر "الآزمة" حاضرًا في هذين الموقنين. في القصة الأولى يشي رجلان من أتباع فرعون برجل مؤمن، وعندما يكون الثلاثة بين يدي فرعون، يكون السؤال المنطقي: من ربكم؟ بتحليل الرجل المؤمن للخروج من هذه الآزمة الفقدية بالثقة، فإجابته "ربي ربهما" صحيحة وصادقة على مستويين: على المستوى الأول، سوف يربط فرعون بين إجابة الرجلين "أنت" - فرعون - وإجابة الرجل المؤمن: "ربي ربهما". وقد قال أن ربهما أنت، إذن ربي أنت، لا شك أن في يمين فرجل فرعون - كما فهم فرعون. على المستوى الثاني، يقرّر الرجل المؤمن أن ربه رب الرجلين، وهو صادق في هذا في نظر نفسه.

وقد كتبت نتيجة الثقة باهرة، فقد نجا الرجل المؤمن، وهُكِّلَ المتلمذون. لنا الحيلة اللغوية في القصة الثانية، فتكمن في الإرتولوجية الدلالية لاسم الإشارة "هذه"، حيث تعني في وقت واحد: "هذه الأصابع الأربعة"، وكذلك "هذه الكتب الأربعة" - التوراة والإنجيل والزبور والفرقان. ما يحدث هنا، وفي حالات كثيرة مشابهة، هو غشوض مقصود وبهلام موظف وانتهاك قاعدة "الطريقة"، حيث تفقد كلمة "هذه"، ومن قبلها

”ربهما“. الثقة والتحديد، ويبدو هذا الانتهاك ضروريا في ظل رغبة الرجل المؤمن في القصة الأولى والحارث بن مسكين في الثقة في تحقيق غايتين متعارضتين وهما: تجنب الكذب وتجنب الصدام المباشر مع فرعون في القصة الأولى. ومع ابن أبي دلود في الثقة.

ومن نمثلة توظيف قواعد المبدأ التعاوني كذلك ما لا حصر له من تورية، وفكاهة، واستعارة، وغموض، وكذب مقصود، وتحسين قبيح، أو تقبيح حسن، ومدراة، ومواربة، وتغطية، وتضية، ورطاة، ومبالغة، واستطرادات. وخروج عن النص. يبدو أن قيمة المبدأ التعاوني لا تكمن في محاولة اتباعه أو التقيّد به، بل فيما يشي به قنصله وتجاوزة، عن قصد أو غير قصد، من غايات بلاغية أو شعرية، أو سببية. أو ترويجية – مع ملاحظة أن ”لو“ لا تفصل بالضرورة بين متعارضين أو متناقضين. ولهذا يبقى المبدأ التعاوني أداة ملائمة ومهمة في تحليل الخطاب ولغويات النص وتحليل الخطاب النقدي وتحليل الخطاب السياسي. ومما يحسب للمبدأ التعاوني كذلك أن تأسست عليه نظريات التلاعب والكياسة، التي ترد مناقشتها لاحقا، على سبيل توضيح ما غمض من جوانبه أو استكمال ما نقص منها.

## التضمين

لعلنا لاحظنا في الأمثلة السابقة أن خرق قواعد المبدأ التعاوني يحقق غايتنا تواصلية بلاغية. بل يحدث تأثيرات مازنية في الواقع. كلما انتهك الكاتب أو المتكلم قاعدة من قواعد هذا المبدأ، دل ذلك على شيء ضمني لا يرد التصريح به. لعذر أو قهر أو غيبة. فكثر أهمية من مجرد التصريح. من هنا نصل إلى التضمين أو الإضمحار Implicature الذي يقارب ما وصفه الجاحظ في البيان والتمهيد بالكنية. لكنه لا يشبه في شيء تطلق آخر البيت من الشعر بلول البيت الذي يليه. ولا تقتبس جزم من نص في نص غيره.

حتى يستطيع السامع أو القارئ أن يتوصل إلى المعنى الضمني. لا بد أن يأخذ في الحسبان ما يقل بالفعل، وما يحيط به من سياق. وقواعد المبدأ التعاوني التي يفترض أن يراعيها الطرفان. على سبيل المثال، حين تسأل عن إعدادهن هذا السؤال "كم تبلغ من العمر؟" فيجيب أحدهم عن السؤال "إنها متروجة ولديها طفلان". ربما دل ذلك على عدم معرفته عمرها. هنا يلجأ السائل إلى السياق الاجتماعي الذي يشتمل على معلومات عن السن الطبيعي للزواج والإنجاب في مجتمع معين. وربما دل تجاهل أو خرق قاعدة من قواعد المبدأ التعاوني على رغبة المتكلم في حفظ ماء وجهه أو وجه غيره. فيصبح التجاهل أو الخرق نوعا من التغلب والنيظة. وعلى هذا تلمست أطروحات جيفري لوتش Leech (١٩٨٣) التي ترد مناقشتها لاحقا.

في نفس هذه الفئة من المسكوت عنه أو التضمين ينتمي الافتراض المسبق Presupposition والمعلوم من اللفظ أو العبارة بالضرورة Entailment. من أمثلة الافتراض المسبق:

٥ "ذهب الولد إلى المدرسة": تفترض مسبقا أن هناك ولدا وهناك مدرسة: "الحرب على الإزهاب": هناك "حربا" وهناك "إزهابا". هنا، وفيما يلي من افتراضات مسبقة، يبقى الافتراض حتى إذا تحولت الجملة من الإثبات إلى النفي - "لم يذهب الولد إلى المدرسة".

§ "لماذا يكرهوننا؟" (من خطاب بوش عقب ٩/١١): تفترض مسبقاً أن المسلمين يكرهون الولايات المتحدة.

§ "فتطرف الإسلامي خطر يهدد الغرب": تفترض مسبقاً أن هناك تطرفاً إسلامياً؛ "هزيمة الجيش ... الباسل": هناك جيش ... وهو "باسل".

§ "اعلم أنه مخاطرة كبيرة" (من خطاب الرئيس المصري للرسل ثور السادات أمام الكنيسة الإسرائيلية): تفترض مسبقاً أن السفر إلى إسرائيل مخاطرة كبيرة.

§ "عملية السلام في الشرق الأوسط تحتاج دفعة قوية": تفترض مسبقاً أن هناك شرقاً أوسط وهناك عملية سلام.

§ "لا بد أن تتوقف عن الإساءة إلى جيرانك" - تفترض مسبقاً أن المخطوب يسمى في جيرانه.

§ "لحمل إليكم رسالة شعب مصر الذي لا يعرف التعصب" (من خطاب الرئيس المصري للرسل ثور السادات أمام الكنيسة الإسرائيلية) - تفترض مسبقاً أن شعب مصر لا يعرف التعصب.

§ "عاد الممستشرق إلى الجزيرة العربية": تفترض مسبقاً أن الممستشرق كان في الجزيرة العربية، أو زارها من قبل؛ "عادت الفتنة تطل بوجهها البغيض": تفترض مسبقاً أن هناك "فتنة"، وأن لها وجهاً بغيضاً، ولو على سبيل الاستعارة، وأنها أطلت من قبل.

§ "الفتنة نعمة لعن الله من ليقظها" تفترض مسبقاً أن هناك "فتنة" "نعمة" وأن أحداً قد ليقظها أو ربما يوقظها.

§ "اغلق الباب" - تفترض مسبقاً أن المتكلم لديه صلاحية إصدار الأمر. ولعل العلاقة بين المتكلم والمستمع تمنح الأول هذه الصلاحية دون هيمنة أو قهر.

§ "أم أشعر بأي قدر من الإشفاق على الرئيس الأمريكي جورج بوش عندما عرفت أنه سوف تحلوره مذبحة مصرية تتفوق عليه في مستوى الفناء بفرق شاسع" (تصار عبد الله "منى وبوش". المصريون، ٢١ مايو ٢٠٠٨): تفترض مسبقاً أن للإشفاق

درجت. ولن يوش موجود وهو "فرنيس الأمريكى" - هكذا كان - ولن "منبعة  
 مصرية" سوف تحاوره، وأنها "تتفوق عليه في مستوى الفكاء بفارق ضالع".  
 يشير الافتراض العميق، إن، إلى التمليم بصحة مقولة أو فكرة. ودعوة المسمع أو  
 القارئ إلى التمليم بها، بينما ينشغل بتلقي خبر أو استدأخر. في "عملية السلام في  
 الشرق الأوسط تحتاج دفعة قوية"، الخبر هو جملة "تحتاج دفعة قوية". بينما نتلقى  
 هذا الخبر. ونسأل: هل هي حقا تحتاج دفعة قوية. لا نسأل: هل هناك حقا عملية  
 سلام في الشرق الأوسط؟ وهنا يكمن الخطر الجسم، إذ يستخدم المنة والمروجون  
 والدعويون ما لا حصر له من الافتراضات المسبقة لتمرير مقولات إيديولوجية  
 ملتبسة. وكان علينا حين نطالع جملة من قبيل "التطرف الإسلامي خطر بهذا القرب"  
 أن نسلّم بوجود "تطرف إسلامي" بينما ننشغل بتلقي خبر تهديده الغرب.  
 أما المعلوم من مكتوب أو ملفوظ بالضرورة فهو أنه تصافًا بالمكتوب أو الملفوظ،  
 وربما لهذا السبب لا نجد له نفس التأثيرات البلاغية التي للتضمنين. ولا نفس الأهمية  
 في دراسات تحليل الخطاب. إذا قلنا إن عليا لديه ثلاثة أولاد، فمن المعلوم بالضرورة  
 أن له ولد وولدين. ومن المعلوم بالضرورة أنه تزوج مرة واحدة على الأقل. على  
 أننا لا ينبغي أن نفضل السياق، لأن ما هو معلوم بالضرورة في ثقافة ما، ليس موطوما  
 بالضرورة في غيرها دائما، فليست كل الثقافات تضع الزواج شرطا للتلجب.

## ماذا نفعل بالكلمات؟

### إن لصاحب الحق مقالاً

"حدثنا مسند، حدثنا يحيى، عن شعبة، عن سلمة، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي صلى الله عليه وسلم رجل يتقاضاه فاعظه له فهم به أصحابة. فقل دعوة فإن لصاحب الحق مقالاً. وقال عمر بن الخطاب الخنوق عند الشروط، ولك ما شرطت. وقال المنصور سمعت النبي صلى الله عليه وسلم ذكر صهراً له فقلت عليه في مناهرته فلحسن قل حدثني وصنقي ووعني فوقي لم" (صحيح البخاري).

### دعهم الكلام أربع

"وقال لهرير لكتبه: اعلم أن دعهم المقالات أربع، إن النعم لها خمسة لم توجد، وإن نقصت منها واحدة لم تتم. وهي: سؤك الشراء، وسؤك عن الشراء، وإفبارك عن الشراء، فبذا طبقت فلسج، وفذا سلك فلوضع، وفذا لبرت فالحكم، وفذا لخيرت فحقق. ولجمع الكثير مما تريد في القليل ما تقول" (العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي، نسخة موقع الورق، ص ١٧٥).

لم يكن جون أوستن، أو جون سيرل من قبله، أول من تناول اللغة بوصفها فعلاً له تأثيره وشروط نجاحه. لكن نظرية أفعال الكلام **Speech Acts** (والكتابة كذلك)، التي أسس لها الأول وطورها الثاني، هي التي ألقت الضوء على هذا الجانب من اللغة ووضعت في بؤرة اهتمام الباحثين، وجعلته ضرورة لازمة في دراسة اللغة، وكرست فرعاً مهماً من فروع علم اللغة هو فلسفة اللغة. وما زلنا لهذه النظرية اثرها الفاعل في كل ما تلاها من مقاربات لغوية. وهي فصل مهم في تحليل الخطاب، وتحليل النص، وتحليل الحوار، وتحليل الخطاب السياسي **Political Discourse Analysis**، وتحليل الخطاب النقدي (فرديكاني) **Critical**

**Discourse Analysis**، والأسلوبية **Stylistics**.



تشمل المقولات والأطروحات المؤسسة لهذه النظرية تمييزز لوستن (١٩٦٢) بين نوعين من الجمل، لو الملفوظات، يقتصر الأول على الوصف أو التقرير constatives (مثل: "تناولت طعام الإفطار"). بينما يتجاوز الثاني ذلك إلى الأداء والإيجاز أو الفعل performatives (من قبيل: "أعذر". "فتح الباب من فضلك"). بل يرى بعض شراح النظرية أن كل التلفظات والجمل هي في نهاية الأمر فعل. حتى التقرير والوصف والإخبار أفعال، مثلها في ذلك كمثل الأمر. والاعتذار. والتسمية. والتمنع. وما إلى ذلك. ومن المقولات المؤسسة للنظرية كذلك تصنيف لوستن جوبس للتلفظ أو الجملة إلى ثلاثة هي:

#### ١. الصيغة locution - ظاهر التلفظ

أو الجملة، أي نطقها أو كتابتها.

#### ٢. المعنى المقصود illocution - ما

يريد المستلم أو الكاتب أن ينقل إلى المتلقي.

#### ٣. التأثير perlocution - رد فعل

المتلقي. وصول الرسالة من عنده.

هنا ينبغي أن نلاحظ أن العلاقة بين

الصيغة والمعنى المقصود ليست مباشرة

أو شغافة في كل حال. لنأخذ مثلاً سؤالك

من لحد أصغتك على الهاتف "هل والدك

موجود؟". من الواضح أنك لا تنتظر مجرد

إجابة بنعم أو بلا، بل تريد أن يفهم الابن

أنك تريد أن تتحدث إلى والده. إذا أجابك

الابن بنعم ولم يعط، فقد توقف عند

#### اللغة والبيسبول

"لغة نظرية في لغة لا بُد أن تكون جزءاً من نظرية في الفعل؛ لسبب بسيط ألا وهو أن الكلام نوع من السلوك الذي تحكمه قواعد وقوانين. ولأنه سلوك تحكمه قواعد وقوانين، فإن له سمات شكلية يمكن دراستها في صورة مستقلة. غير أن دراسة تلك السمات دون دراسة نورها في إيجاز ولقاء فعل لغة يشبه دراسة الصلات والنظرة الانتماء في الاقتصاد دون دراسة دور تلك الصلات والنظرة في المعاملات الاقتصادية. إن هناك الكثير مما يمكن أن يقال عن لغة دون التعرض لما تتجز من فعل. غير أن مقارنة شكلية مجردة كهذه تبقى حتماً منقوصة، وكنتنا ندرس البيسبول كمجموعة من القواعد والقوانين المجردة، لا بوصفها لعبة من الألعاب (سيرل Searle، ١٩٦٩، ص ١٧).

المعنى الظاهر المباشر لما قلت، وإذا فهم أنك تريد أن تتحدث إلى والده. فقد حققت ما كنت تهتفي من وراء مؤذيك.

من هذه المنطقتين ننقل إلى تصنيف الأفعال التي تؤذيها اللغة. أو قتي تؤذيها نحن باللغة. وفيما يلي تصنيف ميرل (١٩٦٩)، الذي يتلخص على تصنيف لومستن (١٩٦٢). هذه الأفعال، حيث نستطيع باللغة أن:

§ "تفرز"، "تعتل"، "تجزم"، "تخير"، "تختتم"، "تفر"، "تنتكر" - وكلها تنتمي إلى فئة الإخبار أو التفسير أو تمثيل الواقع Representatives. والمصطلح الإنجليزي أصله للفعل represent ويعني "يمثل"، أو "يعرض".

§ "تلمز"، "تنهى"، "تطلب"، "ترجو"، "تمل"، "تنوس"، "تنصرخ"، "تدعو"، "تصر"، "تلج" - وكلها تنتمي إلى فئة الأمر والنهي Directives. والمصطلح الإنجليزي أصله للفعل direct ويعني "يوجه"، أو "يأمر".

§ "تعد"، "تنعهد"، "تقسم"، "تحلف"، "تنزّم"، "تتحمل"، "تحمّل" وزرا أو مسؤولية. أو "تاخذ على عاتقنا" - وكلها تنتمي إلى فئة التعهد أو الالتزام Commissions. والمصطلح الإنجليزي أصله للفعل commit ويعني "يلزم"، أو "يلتزم".

§ "تعتز"، "تسلف"، "تهنيئ"، "تعزي"، "تشكر"، "ترحب"، "تشكو"، "تمدح"، "تنم"، "تجامل"، "تلتطف"، "تندم"، "تعتن"، - وكلها تنتمي إلى فئة التعبير أو البوح Expressives. والمصطلح الإنجليزي أصله للفعل express ويعني "يعبر".

§ "تعلن" (حربا مثلا)، "تزوج"، "تطلق"، "تسمي"، "تحكم"، (بغرامة مثلا)، "تشهد"، "توقع (عقداً)"، "تعين"، أو "تفصل" من العمل، "تمنح" لقباً، أو درجة، "تبيع"، "ترهن"، "تقرض" - وكلها تنتمي إلى فئة الإعلان، أو المنح والمنع Declarations. والمصطلح الإنجليزي أصله للفعل declare ويعني "يعلن"، أو "يصدر".

حتى تتحقق لهذه  
الأفعال نجاحها  
وصلاحيتها *felicity*.  
لا بد أن تتوفر بعض  
شروط والمقدمات  
التي يصنفها سيرل  
(١٩٦٩) في: شروط  
تمهيدية  
*preparatory* (كل  
يكون لمن يؤدي الفعل  
صلاحية ذلك أو  
سلطته، فالعلم أن  
يقضي، وللقاضى أن  
يحكم، ولصاحب الحق  
أن يتكلم، على الأقل  
في عهد كعهد الرسول  
صلى الله عليه وسلم،  
وللمؤمن أن يزوج،  
وللوالدين أن يسميا،  
وليس للمجنون أن  
يشهد، وللقائد أو  
الحاكم أن يظن الحرب  
- طالما كان مستوره  
بخوكه هذا الحق)،

## الإشياء:

### بذور نظرية أفعال اللغة في البلاغة العربية (١)

الإشياء هو ما لا يحتمل صفقا ولا كنبًا. كالامر والتمنى والاستلهم والتمنى والقضاء وغيرها. وينقسم إلى ظني وغير ظني. الإشياء غير الظني هو ما لا يستدعي مطلوبًا غير حاصل وقت الطلب. وهو على قسمين: المدح والذم والعتود، نحو "بعت" و"وهبت" "مررتي طلق" و"عدي حرا" أو "كنت مفلوول". القسم نحو: "وافه". والتعجب، نحو "كيف فعلت هذا العرض؟ والرجاء. أما الإشياء الظني فهو الذي يستدعي مطلوبًا غير حاصل وقت الطلب - حسب اعتقاد المتكلم - وهو مجل علم المعاني. وأنواعه خمسة: الأول: الامر. وهو طلب حصول الفعل من المخاطب على سبيل الاستعلاء. ومن ذلك الدعاء، والالتماس، والإرشاد، والتهديد، والتعجيز، والإباحة، والتسوية، والتكريم، والامتياز، والاهلة والدوام والتمنى، والاعتبار والجن. والتخيير. والتكيب. والتعجب. الثاني: قنهي. وهو طلب لمتكلم من المخاطب الكف عن الفعل، على سبيل الاستعلاء. ومن ذلك دعاء والالتماس، والإرشاد والدوام، وبين العقبة، والتنبس، والتمنى، والتهديد، والفراصة، والتوبيخ، والتخفير. الثالث: الاستلهم، وهو طلب الفهم، فيما يكون لمتكلم عنه مجهولاً لدى المتكلم، وقد يكون لغير ذلك كالامر، والنهي، والتسوية، والنفس، والاكز. لتسوية، والاستئناس، والتقرير، والتهويل، والاستبعاد، والتعظيم، والتخفير، والتعجب، والستهام، والوعيد، والاستبطاء، والتنبه على الخطأ، والتنبه على ضلال الطريق، والتحصن والتكثير. الرابع: تمنى. وهو طلب للمحبوب الذي لا يرجى حصوله، لاستحالة عقل أو شرعا أو عادة، والفرق بين التمنى والترجى أن التمنى يأتي فيما لا يرجى حصوله، ممكنا كان أم مستعيا، والترجى فيما يرجى حصوله. الخامس: لئاء، وهو طلب توجه المخاطب إلى المتكلم، وربما يسعى لئاء إلى تحقيق غايات أخرى كالاستغاثة، والإغراء، والجزر، والتعجب، والتضجر، والتشكر (الشيرازي، ١٩٩٧).

وشروط مصداقية أو إخلاص sincerity (أن يتحرى من يؤدي الفعل الصدق ويتجنب الكذب ما استطاع)، وشروط جوهرية essential (تتصل بعلامة الفعل للميق والموقف الذي يحيط به، ف نحن لا نشكر الناس إذا سبونا أو أهقونا - إلا إذا رأينا في ذلك ما يستحق الشكر، ولا نهني إلا بحدث سعيد، ولا نعد إلا بما يفيد).

ولعل مما يقض مضاجع كثيرين اليوم أن كل هذه الشروط والمقدمات تثبت دون مداراة أو خجل، في الإعلانات التجارية التي تزكم الأوف، وفي فتوى من لا يطمون، وعلامة من لا يصلحون، وفي لأعاء المذعن، وتشقق المشتقن، وتهافت المتهافنين، وفي تحليلات أشباه المحللين، وفي فترويح لما يضر، وحجب ما ينفع، ربما لأن بعض البشر يجهلون ما تفعل اللغة في حياتهم وحياة غيرهم، وربما لأنهم يطمنون.

اللغة فن تفعل، ويفعل بها ومن خلالها، وفيها، تتكلمنا (على معنى أنها تعبر عنا، فالمرء، بعبارة الإمام علي كرم الله وجهه، "مخبوء تحت لسانه فإذا تكلم ظهر") كما نتكلمها، وتشكلنا (على معنى أنها تشكل وعنا بالعالم، وبأفئنا، وبالأخرين) كما نشكلها، وتؤثر فينا كما تؤثر فيها وبها ومن خلالها، ولهذا تظل نظرية فعل الكلام أو اللغة عند أومتن وسيرل فصلا مهما من فصول اللندونية، بل من فصول تحليل الخطاب، والتحليل النقدي للخطاب، وتحليل الخطاب السياسي، وكذلك الاسلوبية - تحليل لغة الألب أو التحليل اللغوي للألب، وهو فصل لا غنى عنه لكل من ينشغل بالندونية أو تحليل الخطاب - وجاراتهما ومثباتهما وأقواتهما من الاتجاهات الوظيفية - ويسعى إلى فهم أو تحليل الخطاب في سياقه وأنواعه المختلفة، غير أن فعل اللغة تكتسب أهمية خاصة عند تحليل النصوص الحوارية، من محادثات ومسرحيات، وحوارات في الرواية أو القصة، وما إلى ذلك، لأن المواجهة مباشرة، وفي المواجهة تلعب اللغة أدوارها المؤثرة في جسم صراعات التفكير والمصالح والهويات والأهواء والانتماءات والولاءات - وربما في تأجيل هذه الصراعات أو تطبيقها أو تفاديهما.

## الإشياء (٢)

هذا مجرد تلخيص لا يسعى إلى شرح الخير والإشياء في البلاغة العربية. بل يريد أن يلفت النظر إلى أن بذور التدولوية. بل ثمرها. كانت حاضرة في تلك البلاغة كما ذهب إلى ذلك كثيرون ومنهم مسعود صحرابي (٢٠٠٥) الذي يشير إلى أن لفعال الكلام قد جرى بحثها في ترثها للتقوي ضمن "نظرية الخبر والإشياء"، في مؤلفات عدد من البلاغيين العرب الذين أسوا لهذه النظرية من أمثال: عبد القاهر الجرجاني، وأبي نصر الفارابي، وأبي علي بن سينا، والقاضي عبد الجبار المعتزلي. ونجم الدين الكشي القرويني. وأبي يعقوب السكاكي، وسيف الدين الأمدي. وشهاب الدين الفرقي، وفخر الدين الرزقي، وأبي إسحاق الشاطبي، والاسترلابي. وابن الحلاج، وابن يعقوب المغربي، وسعد الدين التفتازاني، وغيرهم ممن استعملوا أدوات التحليل المنطقية والتدولوية في تحليل نقواهر الأسلوبية وتطبيقها على أصناف من الخطاب العربي في طبقات المقامية المتبينة. يشير صحرابي كذلك إلى أن ظاهرة الأفعال الكلامية عند الأصوليين، قد قسمت إلى نوعين أساسيين: لفعال كلامية منبثقة عن خبر. وفعال كلامية منبثقة عن الإشياء. مع إحلته على تدولية نقواهر أسلوبية كثيرة بحثها الأصوليون والفقهاء مثل لفظ العقود والمعاهدات باعتبارها "فعالا كلامية" تحقق فيها "الحمولة الإنجزية".

بلغتنا التعبير الأخير في الفقرة السابقة في مشكلة حقيقة تكثف تنولنا - نحن العرب - منجزات الغرب في مجال علم اللغة وغيره. ألا وهي مشكلة الترجمة، وإلى ذلك نرد إشارات أخرى في غير موضع من هذا التمهيد. ما الذي نضيه عبارة "الحمولة الإنجزية" لمن لم يطلع أصلها الغربي؟ تنطبق المشكلة الثانية بتهافت مقولات السبق المعرفي التي لم يعد لها محل من الاعراب إذا جاز التعبير.

لا ينبغي أن تكون الغاية هي إثبات سبق البلاغيين العرب في هذا الصدد أو غيره، بل ينبغي أن تكون الغاية مراجعة التراث البلاغي العربي. والافتداة من منجزات اللغويات الغربية الحديثة في سبيل بلاغة عربية جديدة. ربما يبدو هذا قولاً مكروراً، لكن التكرار في هذا المقام واجب.

## صدق الخير وكتبه

"وعليه. فتعريف البلاغيين الخبر في النظم البلاغي بأنه ما تضمن الصديق والكتب - بزعمهم - تعريف غير متابع لهذا... لأنيت لو أن شخصا نادى غيره. أو سرده. أو نهاده. وهو لا يقصد ذلك الا يكون كاذبا؟ بلى والله! فلماذا فكتب مخالفة العبارة لمقتضى الواقع. وهذا منه: لأن الحمدي. أو الذاعي. أو النقيب. أو المستغيث. أو الامر. أو قاضي ... إلى نفر ما صدقوه في معنى الإنشاء. كل ذلك إذا لم يضاف إرادة في نفس المتكلم وأصدا فهو ككتب محض. فالإنشاء فن - بهذا المعنى الوجودي - يحتمل الصديق والكتب أيضا. وهل يتوَجَّع المتوَجَّع لغير وجه؟ وهل يستغيث المستغيث لغير فرع؟ (فريد الانصاري: "كلمات اده في معركة السلام". مجلة حراء. ع ١٦. ٢٠٠٩. ص ص ٣١-٣١).

فعل لغوية سياسية - أمثلة مترجمة من دراسة عطونه Alawneh (٢٠٠٨)

(١) "عرفت طالب العرب بسرعة فتحرك لمساعدته في الخروج من مرفأ ( Al-Quds Daily. ١٨ أبريل ٢٠٠٢). (٢) "ملك المغرب يدين السياسات الاسرائيلية اسم الاتحاد البرنمقي" (Al-Quds Daily. ١٨ مارس ٢٠٠٢). (٣) "إذا لم تتسحب من الكويت تسحبنا كاملا غير مشروط. فسوف نخسر الكويت وكثير" (من خطاب بوش الاب في صدام حسين. ٩ يناير ١٩٩٠). (٤) "وزير الأمن الاسرائيلي يقول: سوف نقتحم مناطقهم. ونحطم جهز الامن الفلسطيني. حتى ننتهي إلى تدمير السلطة الفلسطينية" (New York Times. ١٨ يوليو ٢٠٠٢). (٥) "شارون يقول: إسرائيل تريد أن تمحو حماس كقوة عسكرية سياسية قبل أن يحدث أي تسحب" (Al-Ahram Weekly Online. ١٦-٢٢ أبريل ٢٠٠٤). (٦) "شيمون بيريز يقول إن دم الرنتيسي لا بد أن يسكب تنكنا من مقاومة حماس وهجمتها على اهداف إسرائيلية" (Al-Ahram Weekly Online. ٢٢-٢٨ أبريل ٢٠٠٤). (٧) "إسرائيل ترفض قرار الأمم المتحدة بشأن عرفات" (AP Online. ٢١ سبتمبر ٢٠٠٣). (٨) "حماس تنوع بخطط الجنود" (Jerusalem Post. ١ نوفمبر ٢٠٠٤). (٩) "يقول الرنتيسي إن عبارة وقف إطلاق النار ليست من مفردات قاموس حركة حماس" (Jerusalem Post. ١٥ يونيو ٢٠٠٣). (١٠) "مسؤولون فلسطينيون يحذرون من محاولات إسرائيلية لاغتيال عرفات" (Xinhua News Agency. ٢٥ مارس ٢٠٠٤). (١١) "عرفات يلتئم من الولايات المتحدة لتتحل لوقف حملات لدم والجرائم الاسرائيلية" (Al-Ahram Weekly Online. ٢٢-٢٨ أبريل ٢٠٠٤). ومن نفس المصدر كذلك: (١٢) "السلطة الوطنية الفلسطينية تلتئم من لتصيب الاحمر اتقذ حياة الجرحى". (١٣) "الفلسطينيون يلتئمون من دول العالم لتفكك لرفع الحصار". (١٤) "عرفت طالب المملكة المتحدة بالمساعدة في نفع عملية السلام". (١٥) "وزارة الاوقاف تستكر منع إسرائيل الفلسطينيين الوصول إلى المسجد الأقصى". (١٦) "عرفت يستكر محاولة إسرائيل اغتيال الرنتيسي" (ومن ذلك أيضا لفعال الشجب والإدانة والاستهجان. وغيرها. مما يملكه قلوب الحية. وربما غير نوي المصالح. من أصاليب لغوية. ليس غريبا ما انتهى إليه عطونه وخلاصته أن الاقوياء - إسرائيل والولايات المتحدة - هم من يمتكون صلاحيات تقرير. وتهميد. ووعيد. أما الضعفاء والمستضعفون - ومنهم فلسطينيون - فلا يملكون الا الاتمس. والشجب. والإدانة. والاستنكار. وحين يطلقون أو يلخون. فمن قيل 'لعمرك'.

## التأدب والكياسة

"فتأدب" هي ترجمة غالي (١٩٩٦) لمصطلح politeness. وهي تتسم مع ما نعرفه عن "أدب الحوار"، "الأدب والأخلاق"، "أدب الدعاة"، وغيره. ومع فتعابير الدرجة من قبيل: "ولد مؤدب"، أو "متهذب"، و"قليل أدب"، و"قلة الأدب". وتأدب الأبناء". ولعل غالي أثر "التأدب" على "الأدب" حتى لا يختلط الأمر بين الأدب بالمعنى الذي نتناوله هنا، والأدب بمعنى الشعر والمرحبة والهروية وما فيها. وربما جز أن نترجم المصطلح إلى "اللباقة"، بمعنى "قول ما يليق"، لكن الترجمة ربما تتنبس باللباقة (بالباء لا اللام) التي تعني الطلاقة اللغوية. وربما جز أن نترجم المصطلح إلى "التهذب"، إلا أن الكلمة لا تبدو مستساغة - على صحتها. وربما جز أن نلجأ إلى "الكياسة". بمعنى العقل والظننة، ومن ذلك اختيار ما يناسب من القول. الاختيار الأخير هو أكثر ترجمات المصطلح الإنجليزية رشاقة واستساغة. لكنني قشرت الصرامة الدلالية على الرشاقة، ولهذا وقع الاختيار على "فتأدب" - مع تكليده أو استبدقه بما يناسب من مراعات وفق الحاجة أو الضرورة.

أول طرح لمبدأ التأدب Politeness كما نعرفه في التدولية الغربية الحديثة هو ما قدمته روبن ليكوف Lakoff (١٩٧٣) - مع ملاحظة أنها من كتبت عن المرأة واللفة واللفة والحرب، لكنها ليست جورج ليكوف الذي كان له نور مهم في دراسة الاستعارة وبلورة مفاهيمها وأدوات تحليلها، وفي تحليل استعارات الحرب. تعتقد روبن ليكوف أن الحوار بطير بجناحين - مع أنها لا تستخدم هذه الاستعارة - هما الوضوح والتأدب be clear and be polite. وأن المبدأ التلواني الذي طوره جريس قد وفي حق الوضوح، لكنه لم يبر التأدب الاهتمام اللائق به. من هنا، ونسباً على لطروحات جريس، طورت روبن ليكوف طرحها عن فتأدب. وهو أكثر الأطروحات التي نتناولها هنا إيجازاً - وهذا بعض ما يؤخذ عليه - ويتكون من ثلاث قواعد خبري هي:

§ لا تفرض نفسك (لو لراك أو نوك) أو ثقّمها على الآخرين Do not impose

§ ترك لغيرك حرية الاختيار Give options

§ اجعل الآخرين يشعرون بالبهجة والارتياح Make people feel good

هذه القواعد لا ترد في انبيات الكياسة والتأب الغربية الحديثة بوصفها "نظرية". لكن تبقى للمقاربة وجهاتها ومشروعيتها. إن هذه القواعد ثلاث تختصر جل ما جاء بعدها من تصورات، ويبقى لها فضل السبق والريادة.

ونستطيع أن نعيد صياغة هذه القواعد أو شرحها من خلال تصور مفاده أن التأب يتروح ما بين الإحجام والإقدام (وقد وجدتهما "الاحترز" و"التونز" في دراسة مجهولة المؤلف). ومساحة من الاختيار فيما بينهما. لنتصور مثلاً صديقاً أصابه البرد، ولنتصور ثلاثة ردود لفعال إزاء مرضه العارض: الأول، أن تتجنب صديقك حتى لا تشعه بالقصق. وحتى لا يصدر منك ما يوحي بأنك تخشى العوى؛ والثاني، أن تباعر بالمؤال عنه، والتخفيف عنه؛ والثالث، بين هذا وذاك، بعض إحجام وبعض قدّم. ولنتصور قهلاً على ذلك شخصاً فقد عزيزاً أو حبيباً، ولنتصور ثلاثة ردود لفعال إزاء ما أصابه: الأول، أن نتركه ولحزانه حتى لا نضا عليها؛ الثاني، أن تباعر بالمؤال عنه والمواساة والتخفيف عنه؛ الثالث، بين هذا وذاك، بعض إحجام وبعض إقدام: أن نخفف نون إبحاح، وأن ننصح بالصبر دون وصاية أو تضيق.

كيف نختار ما بين الإحجام والإقدام؟

الإجابة عن السؤال تكمن في طبيعة العلاقة بين طرفي الحوار - هل هي جفاء ومسافة، أم حميمية وألفة. حين يتعلق الأمر بعزيز في قومه لا تربطنا به علاقة شخصية أو بمن لا نعرف، عادة نؤثر الإحجام. لكن حين يتعلق الأمر بصديق أو حبيب أو قريب، نؤثر الإقدام.



هذه القواعد

ليست علمية

على كل حال.

لكنها تخضع

لما لا حصر له

من اعتبارات

وعوامل تتصل

بطبيعة الموقف

وسببه

وطرقه.

يصدق هذا

كذلك على ما

ذهبت إليه

ليكوف في

موضع آخر

(١٩٧٥) من

أن النساء أكثر

كثافة من

الرجال وفق

تعريفها

وتوصيفها

الكتاب ،

فلمست كل

النساء أكثر

## قوائد قل ما يجمعها كتاب

"فقيت بخطي في الأعلام الكثيرة وجمعت من تلك قوائد قل ما يجمعها كتاب أو يحويها لغزتها وغريبتها اذهب إلا أنها ليست مرتبة على مثل ولا مهتبه بطريقة ما تسج على منوال ريت أن ألخص منها أقباء ما يدير مصر من الآثار البقية عن الاسم الماضية والقرون الخفية.. وأثر خلال تلك نكتا لطيفة وحكما بدعية شريفة من غير إطالة ولا كثرة ولا إجحاف مغل بفرض ولا اختصار بل وسط بين الطرفين وطريق بين بين فلهذا سميته...

والى لأرجو أن يحظى أن شاء الله تعالى عند المنوك ولا ينو عنه طباع العامي والصطوك ويحبه لعلم لعنتي ويمحب به لطلب المبتدئ وترضاه خلائق العابد لتاسك ولا يمحج سمع الخليل الفتك ويتخذ أهل البطالة والرفاهية سمرًا ويعدده ولو لراي والتدبير موعظة وعبرا يستلون به على عظيم قدرة الله تعالى في تبديل الأبدال ويعرفون به عجب صنع ربنا سبحانه من تنقل الأمور من حال إلى حال. فإن كنت تحسنت فيما جمعت وأصبحت في الذي صنعت ووضعك فذلك من عظيم من الله تعالى وجزيل فضله وعظيم نعمه على وجيل طوله وإن قاسمت فيما فعلت وأخطأت إذ وضعت فما أجدر الإنسان بالإساءة والعيوب إذا لم يحصمه ويحفظه علام الغيوب... فليقبل القادر في هذا التلويح على مؤلفه ذيل ستره إن مرت به هفوة وليضج تجاوزا وصلفا إن وقف منه على كبره أو نبوة فأب جود وإن على ما يكبو وإي غضب مهتد لا بكل ولا ينو لاسما والخطر بالافكار مشغول والعزم لالتواء الأمور وتصرفها فقر محلول والذهن من خطوب هذا الزمن القطوب قليل والقلب لتوالي المحن وتوتر الاحن عليل.. (من لفتحة الخطط المقرية).

من الطرف إن نقرأ هذه الفتحة في ضوء ما يرد في هذا الفصل من نظريات، فنرى ما فيها من توتر بين مدح الذات والكتب من ناحية، والتوسل إلى الله تعالى أن يحقق الكتاب لقبول وإلى القارئ أن يفتن الطرف عما يجد فيه من قصور من القليلة الأخرى، بين الوعي بما بذل المؤلف من جهد وتبرير ما يمكن أن يقع في الكتاب من قصور.

(أ) سوف نفتقد بل ولجأنا، أليس كذلك؟

(ب) بلى، سوف نفتقد بل. (ص ٨٠)

في هذا الحوار القصير يتفق (ب) ولو جزئياً مع (أ)، وبعض الاتفاق خير من الاختلاف. لكن (ب) لا يراعي قاعدة الكمية في مبدأ جريس التعاوني. حيث يتجاهل "لجئنا" تماماً. تفسير ذلك أن (ب) ربما ليس لديه من الخير ما يمكن أن يقول عن "لجئنا"، فيؤثر الصمت على أن يقول ما لا يميز.

هكذا يفسر مبدأ التناوب كثيراً من الاختلافات البلاغية. تلك الاختلافات تتشكل من خلال التوثر بين الغايات التواصلية والغايات الاجتماعية. يقترح ليتش أربع صيغ للتعامل مع هذا التوثر على سلسلها يمكن تصنيف فعال اللغة/الكلام في (ص ص ١٠٤ - ١٠٥):

§ تنافسية competitive: وفيها تتعارض الغاية التواصلية مع الغاية الاجتماعية، لكن تتعارض ربما لا يؤدي إلى التضحية بأى منهما، كما في الطلب والأمر.

§ تعاونية collaborative أو محايدة: ليس فيها للغاية التواصلية من أثر ملحوظ على الغاية الاجتماعية، كما في الإخبار والتقرير، طالما لم يكن أي منهما وثيق الصلة بالمتكلم أو السامع.

§ متناغمة convivial: وفيها انسجام وتناغم بين الغاية التواصلية والغاية الاجتماعية، كما في الشكر والتهنئة والتحية.

§ صدامية conflictive: وفيها صراع حاد، بل لكثير حدة من مجرد التنافس، بين الغايتين التواصلية والاجتماعية، كما في توجيه الاتهامات والسب والاهمة.

توثرات أخرى يستخدمها ليتش في صياغة مبدأ التناوب، بين الأرباح benefits والخسائر أو التكاليف costs، بين المدح praise والذم dispraise، بين الشقاق disagreement والاتفاق agreement، بين التعاطف sympathy والشمقة antipathy (ص ص ١٣٣ - ١٣٩).

أما القواعد التي ينتظمها مبدأ التائب من وجهة نظر لبيتش فهيها يلي. مع ما يلزم من تصرف:

§ **اللباقة Tact**: لا تكلف غيرك أكثر مما تكلف نفسك. ولا تمنح غيرك قل مما تمنح نفسك.

§ **الكرم Generosity**: لا تكلف نفسك أقل مما تكلف غيرك. ولا تمنح نفسك أكثر مما تمنح غيرك.

§ **الاستحسان Approbation**: أكثر من مدحك غيرك. وأقل من نمك غيرك.

§ **التواضع Modesty**: أكثر من نمك نفسك. وأقل من مدحك نفسك.

§ **الاتفاق Agreement**: أكثر من الاتفاق. وأقل من الشقاق مع غيرك.

§ **التعاطف Sympathy**: أكثر من التعاطف مع غيرك. وأقل من القسوة في غيرك.

من الواضح أن لكل قاعدة من هذه القواعد وجهين: أحدهما يتعلق بامتلكم أو الكتب، والثاني يتعلق بالمتلقى أو الطرف الآخر؛ أحدهما يتعلق بالمثل أو التخفيف (قيما هو ضار أو قبيح)، والثاني بالإيجاب أو المبالغة (قيما هو نافع وطيب). فإذا كنت في مقام اللوم أو العتاب، فقلل منه ما استطعت، وإذا كنت في مقام الامتنان أو التهنية، فأكثر منهما ما استطعت. من التائب أن تمدح الآخرين، لكن ليس منه أن تمدح نفسك، فإن كان لا محالة، فقلل منه يكفي، ومن التائب أن تلوم نفسك، لكن ليس منه أن تلوم الآخرين، فإن كان لا محالة، فقلل من اللوم المهذب يكفي، ويظهر الاحجام مقدما على الإقدام، وتظل السلطة الاجتماعية - حتى إن كانت مؤقتة أو مشروطة - والألفة عاملين مؤثرين في تحديد الأسلوب المناسب للتعبير عن التائب.

في هذه القواعد يضيف لبيتش تحبيذ كل ما هو مبهج، من هنا تبدو جملة "مقلتك رديئة" أقل كلفة من "مقاتك إلى حد ما رديئة" ومن "مقلتك جميلة ولكن...". يضيف لبيتش كذلك قاعدتين هما المدح في صورة النم Banter، والنم في صورة المدح Irony أو السخرية. يقع الأول بين الأصقاء المقربين الذين زالت بينهم

الحولجز التي تستلزم التائب، فيكون السبب والشتائم والخشونة والتعازير تعبيراً طريفاً عن الالفة. أما الثاني، فيهدف إلى تجنب النقد المباشر أو المفظظة الظاهرة. فنقول لنص فهي ردئ "هذه رافعة أدبية!"

يظل مبدأ التائب الذي طوره لينش نظرية مهمة ومقربة مشروعة. لكنه لم يحظ بما يستحق من اهتمام في الدراسات التداولية. وظل يعني اختيار هذه الدراسات إلى نظرية برون ولشمسون Brown and Levinson (١٩٨٧/١٩٧٨). تنطلق نظرية برون ولشمسون من مقولات عالم الاجتماع ايرفنج جوفمان Goffman حول صياغة الانطباعات وتشكيلها، وكذلك من الكتابات المؤسفة لوستن وسيرل وجرايس.

وتدور النظرية حول مفهوم ماء الوجه face، إن حفظاً وإن رفاة. فبعض ما نقول أو نكتب فيه حفظ face-saving، وبعضه فيه رفاة face-damaging. وبعضه ينذر بـرأفة ماء الوجه face-threatening - ماء وجه المستنم (كأ) self-face، أو المتلقي (الأخر) other-face. وكما هو الحال فيما سبق، يظل للكنيسة وجهان هما الإحجام والإقدام - هما التائب السلب أو السلبى negative politeness، والتائب الإيجابي positive politeness في نظرية برون ولشمسون - وهما يقابلان حاجة البشر إلى الخصوصية والتحرر من الضغوط ومن فضول الآخرين وتطفئهم negative face من ناحية، وإلى قضاء والاستحسان وقبول positive face من الناحية الأخرى (برون ولشمسون، ١٩٨٧، ص ٦١-٦٢).

وكما هو الحال فيما سبق، تظل سلطة المشاركين في الحوار والمسافة أو الالفة بينهم أو بينهما تحدد أسلوب التائب ومقداره واتجاهه (برون ولشمسون، ١٩٨٧، ص ٧٧-٧٨). حيث يصلح الإحجام إجمالاً مع من لهم سلطة أو نفوذ علينا، ويصلح الإقدام مع من تجمع بيننا وبينهم ألفة أو مودة.

حين يكون المتكلم في مقام التلطف بما يحتمل إهانة، أو إساءة، أو تكثيفاً، أو لوماً، أو زجراً، مما يهدد بإفراقة ماء وجه من يكلم أو وجهه هو، تبقى له مجموعة من الاختيارات. الاختيار الأول: بين أن يتلفظ بذلك وألا يتلفظ به. إذا اختار، أو كان عليه أن يتلفظ بما يحتمل شونا مما سبق، يبقى لديه الاختيار بين التصريح *on-record*، والتلميح *off-record*، حتى إذا اختار التصريح، بقي له أن يفعل ذلك دون مدراة أو تهوين أو تخفيف أو تلطيف *without redressive action*، أو أن يفعل مع شئ من التلطف والتخفيف *with redressive action*، إذا اختار التخفيف والتلطيف، فقد اختار التائب، وبقي عليه أن يختار بين نوعين من التائب تكررت الإشارة إليهما من قبل - الإحجام والإقدام (براون ونغسون، ١٩٨٧، ص ٦٠، ٦٩).

ولنضرب لما سبق مثلاً. أنت تريد أن تقترض بعض المال من صديق. أمامك في البداية طريقان: أن تسأله المال أو ألا تسأله (لعله يفهم من تلقاء نفسه). إذا قررت أن تسأله المال، فأمامك طريقان: أن تصرّح أو تلمّح (تخبره عن ظروفك الصعبة غير الموقية وضرورات الحياة التي لا تنتهي - وربما لا يفهم، وربما يفهم فلا يبالي). إذا اخترت التصريح، بقي أمامك أن تلعل ذلك دون تلطف أو تلطيف ("قرضني مبلغ كذا وكذا" أو "علوز....." أو "هات....."، أي "لحناج" أو "يعزني"). أو أن تفعل مع شيء من التخفيف والتلطف ("من فضلك....."، و"كو مضكش مفع....."، و"ممكّن لو سمحت..."، أو "تكرمّا"، وإذا لم تكن متلمّحاً). في هذا المخطط كثير من التيسيط غير أن له وجاهته.

وفي تفصيل نوعي التلطف أو التائب يطرح براون ونغسون عدداً من الأساليب البلاغية التي تندرج تحت الإحجام (التائب المسلي) والإقدام (التائب الإيجابي) (براون ونغسون، ١٩٨٧، ص ١٠٢-١٢٩، ٢١١-٢١٢، والامثلة هنا من اللغة العربية). تشمل أساليب الإحجام أو الكفّ والمنع ما يلي: المواراة وتجنب المباشرة، ووضع الطلب في صورة تساؤل، والتعبير عن التمني، واستخدام صيغ التوقيف

والاحترام ("حضرتك" و"سعادتك" و"طال عرك" و"فخامتك" و"سوك"). والاعذار  
 وطلب القبول ("نسف للإزعاج ..."، و"معذرة ..."، و"رجو أن تسامحني ...")،  
 وتجنب صيغ الخطاب المباشر "أنا" و"أنت" ("كيف يمكن الوصول إلى ..."). وتفضيل  
 الصيغ المصدرية على الفعلية ("ممنوع التدخين" بدلا من "نحن نمنع من أن تدخن")  
 وتصميم ("حسب اللوائح والتعليمات، يمنع ..."). وحفظ الجميل والاعتراف به  
 ("سكون ممتازا غلب الامتحان لكم ..."). واستخدام صيغة الجمع ("على سادة  
 لركاب المسافرين ..."، و"تعتذر بدلا من" اعتذر"). وتخليف ("فقط لرب أن أسأل  
 إذا كان من الممكن أن ..."). واستخدام صيغة الماضي ("لرب أن ..."). و"كنت لود  
 أن ...").

وتشمل أساليب الإقدام أو المنح ما يلي:

مراعاة حاجات الآخرين ("لا بد أنك جوعان"). والاستحسان والاهتمام والمباقة فيهما  
 كلما كان ذلك ممكنا ("ما لروع قصيدتك؟" و"عجبتني مدخلتك اليوم جدا". و"حلوة  
 خلص". و"وبد حلوة". و"ممتاز!"). والتعبير عن الألفة من خلال صيغ الدرجة  
 ("هت يا عم البتاعه دي"، و"رمسه عودة". و"يش لوتك؟". و"زوي الحل؟"). وتجنب  
 الاختلاف والشقاق ("أنا صحيح"، و"أنا لقلق مع ما نقول") وطلب فوقك والاتفاق. بل  
 افتراض وجودهما لحياتا ("سوف نلتقي غدا، ليس كذلك؟". و"هشوف بكرة". و"كنت  
 جاي معنا، مش كده؟") وافتراض وجود لرضية أو خلفية مشتركة بين المتكلم  
 والمسمع ("كما تعلم ..."، و"تعلمون أن ..."). والفكاهة، والمباعدة الفكرية والوعود  
 بما يبرز ("زورك غدا إن شاء الله") والتعبير عن الترابط والمشاركة ("كيف حلقنا  
 اليوم؟". و"أنا النهارده عال العال"، و"مشينا"). وتقديم المبررات والاعذار كلما  
 لزم الأمر ("لقد تأخرت ..."، و"لا بد أن أذهب الآن ..."). والتعاطف ("تبدو مرهقا  
 اليوم"). والعطاء في مقابل الأخذ ("أرد لك هذا الجميل يوما". و"هذا دين في عني").

هنا ينتهي الكلام  
 عن مبدأ القالب  
 في الدراسات  
 القبولية  
 الغربية، لكن  
 هذه الدراسات  
 حظيت بما لا  
 نستطيع له هنا  
 حصرًا من  
 مقاربات  
 ومرجعات أكدت  
 على ما تعني  
 منه هذه  
 الدراسات  
 والتصورات من  
 تجريد، ومن  
 تحول في  
 الثقافة الغربية،  
 ومن تبسيط  
 مخزن في تصنيف  
 القالب إلى أقسام  
 أو إجمال، دون  
 معقدة الدرجات  
 لملاحة فيها

## الكلمة الطيبة

[illegible]

في القرآن الكريم، وهو معين البلاغة العربية الأولى، أشارت  
الأخرى إلى فضيلة الكلام الطيب. ومن ذلك خطاب الله عز وجل  
رسوله صلى الله عليه وسلم

၈၂. ဘုရားနာမည်ကို နာမည်ပေးခြင်းသည် မိမိတို့၏ နာမည်ကို ပေးခြင်းနှင့်  
 မတူဘဲ နာမည်ပေးခြင်း ဖြစ်သည်။ ဤသို့ နာမည်ပေးခြင်းသည်  
 မိမိတို့၏ နာမည်ကို ပေးခြင်းနှင့် မတူဘဲ နာမည်ပေးခြင်း ဖြစ်သည်။

وفي صحيح البخاري مما ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم  
كُتِبَ لِلَّهِ مِنْ بَيْنِ مَا نَجِدْ فِيهِ: (١) "حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ: حَدَّثَنَا  
أَبُو الْأَحْوَصِ، عَنْ أَبِي حَصِينٍ، عَنْ أَبِي صَلْحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ  
قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ كَانَ يَوْمًا بِإِيَّةِ الْآخِرِ،  
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلَا يَوْزُ جَزَاءَهُ، وَمَنْ كَانَ يَوْمًا بِإِيَّةِ الْيَوْمِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ،  
فَلْيَكْرَمْ ضَيْفُهُ، وَمَنْ كَانَ يَوْمًا بِإِيَّةِ الْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلْيَقِلْ خَيْرًا أَوْ  
لَيْسَتْ"، (٢) "حَدَّثَنَا إِمَامٌ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ: حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ أَبِي بَرْدَةَ  
عَنِ ابْنِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى  
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عَلَى كُلِّ مَسْلَمٍ صَدَقَةٌ، فَيُلَوَّى: فَهَذَا لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ:  
فَيُجْمَلُ بِهِدِهِ فَيُنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَنَّقُ، فَيُلَوَّى: فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ وَ لَمْ  
يَجْعَلْ؟ قَالَ: فَيَمِنُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَنُوحِ، فَيُلَوَّى: فَإِنْ لَمْ يَجْعَلْ؟ قَالَ:  
فَيُؤَامَرُ بِالْخَيْرِ، أَوْ قَالَ: بِالْمَعْرُوفِ، قَالَ: فَإِنْ لَمْ يَجْعَلْ؟ قَالَ: فَيُهْمِكُ  
عَنِ الشَّرِّ فَإِنَّهُ لَهُ صَدَقَةٌ"، (٣) "وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى  
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْكَلِمَةُ الْقَطْبِيَّةُ صَدَقَةٌ"، (٤) "حَدَّثَنَا أَبُو وَلَيْدٍ: حَدَّثَنَا  
شُعْبَةُ قَالَ: أَخْبَرَنِي عُمَرُو، عَنْ خُبَيْمَةَ، عَنْ عَبْدِ بْنِ حَتَمٍ قَالَ:  
ذَكَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْفَارَ، فَتَعَوَّذَ مِنْهَا وَاشْتَأَى بِوَجْهِهِ،  
ثُمَّ ذَكَرَ الْفَارَ فَتَعَوَّذَ مِنْهَا وَاشْتَأَى بِوَجْهِهِ، قَالَ شُعْبَةُ: لِمَا مَرَّتَيْنِ فَلَا  
لَكُمْ، ثُمَّ قَالَ: اتَّقُوا الْفَارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فَيَكْمَةً  
طَبِيخَةٍ"، وفيه الصحيح كذلك كثير عن بر الولدين، وصلة قرحم،  
والرحمة، وحسن الخلق، والرفق، والتواضع، والإمتة، والوفاء.

بينهما. ودون اهتمام مناسب بنقيض التائب، أي الوقاحة أو البذاءة ("كلمة الحب"). حتى الدراسات القندولية العربية - التي تبقى حبيسة المكتبات الجامعية - تتلوه من منظور غربي. وحين نترجم نظرية التائب خصوصا والقندولية عموما إلى العربية، ينتهي الأمر إلى نصوص غريبة تستعصي على الفهم، وتضطر قراءها إلى الرجوع إلى الأصول العربية. هذا إلى ما نلّفه من تهافت ادعاءات السبق الحضري والاختيار غير الواعي بين بلاغة عربية قديمة دون تجديد أو مراجعة، وبلاغة غريبة بقضها وقضضها، دون تفنيد، ودون اهتمام بالمساق الثقافي الذي تطوّرت فيه.



## كياسة أون لاين

لم ينضب بعد معين البحث في التلأب. مازال ينتقل من جنس خطابي إلى آخر، وتتوالى الدراسات في مختلف اللغات والثقافات، ويستجيب لمغريات العصر فيتجلى في أدب وأخلاقيات استخدام الانترنت أو *netiquette* التي نجد شرحا مفصلا لها في كتاب هيرجينوا شيا Shea (٢٠٠٤). من تلك الأدب:

§ تكليد البعد الإنساني، لأن وراء الأجهزة والشاشات والرسائل البريدية والدرشة والمنتديات بشرا يشعرون ويعقلون.

§ التزام نفس الأدب والقواعد الأخلاقية والسلوكية التي ينبني الالتزام بها في الواقع البشري الذي لفناه عند الانتقال إلى الواقع الافتراضي الذي لم يعد هناك بد من معاشته، على معنى أن القواعد التي ورت فيما سبق صالحة للتطبيق في الواقع الجديد، مع ملاحظة ما يشم به من خصائص وما يستخدم من وسقط.

§ الوعي بالمكان والمقام في هذا الفضاء الواسع حتى لا تقع فريسة لرسائل غير مرغوب فيها، والإعلانات المضللة، والقرصنة، والفيروسات، وغسيل الأموال، وحتى صنوف الاحتيال والتحايل، وحتى لا تؤذي الآخرين، أو تلحق بهم الضرر.

§ احترام خصوصيات الآخرين ولوقاتهم ومشغلاتهم. لأن لهم أولوياتهم التي ربما لا تتفق مع أولوياتنا، ولتزاماتهم التي ربما لا تشبه التزاماتنا.

§ حسن المظهر وحفظ ماء الوجه على الانترنت. فلا تفعل ما يسيئ، أو يثير الكراهية أو التنقّر أو التنفور.

§ تداول المعرفة وتقسيمها، وتبادل الخبرات والمهارات عبر ما يتيح مواقع الافتراضي من وسقط ووسائل.

§ مناهضة التعصب والحروب الكلامية، والتنازع، والإساءات المتبادلة بين قصائر المذاهب المختلفة، والفرق الرياضية المتنافسة، والعرقيات المتصارعة، والبلدان المتجورة.

§ تجنب إساءة استخدام ما يتيح الواقع الافتراضي لبعض "مخترعة" من قوة أو سلطة وهيمنة مصدرها الخبرة، أو المعرفة، أو الإحاطة بما لا يحيط به الآخرون. ومن ذلك أن يتجنب مدبرو المواقع والمشرفون على المنتديات النقطة، والفظاظة، والسخرية، والتطاول في إصدار ونشر تعليماتهم.

§ التسلمح والتجاوز عن هفوات ولخطايا الآخرين التي ربما تنجم عن حداثة عهدهم بالواقع الافتراضي واليوتيه، وأبواته، وفرواعده. وربما يلتزم الدريشة أو المراسلات أو المنتديات أو المدونات قرصنة، وينجحون في شعل فتيل الكراهية والحروب الكلامية بين المتحاورين.

## بلاغة الصمت

وردت إشارة إلى الصمت، وهو جدير بشيء من الاستطراف، فمنه، ومن مرافقه الصكوت، ما يكون أبلغ أو أكثر كيلة ولياقة من الكلام، فيكون ذهاباً حين يكون الكلام فضة، ومنه ما يكون كلاماً يغير كلام، كما نجد في الثقافة العربية الإسلامية - "صكوت علامة لرضا". ليس كل الصمت بالقطع رضا أو قبول، فمنه ما يكون خوفاً، أو هروباً من رقابة والمحكمة - كما في "الصكوت عنه" من أمور الدين والسياسة والجنس - أو كمداء، أو خجلاً، أو حيرة، أو دهشة، وتبهاراً، أو تأملاً، أو استراحة من الكلام، أو استعداؤه، ومنه ما يكون اضطرراً جسدياً، كما يحدث أثناء قنوم والتفكير، ومنه ما يكون رغبة لبعض القسوس أو تعاطيات والأدب، كما نعلم في المكتبات العترة، وشاء خطبة دينية. ومنه ما يكون صمت فقراء الذين لا يجمعهم جامع إلا مكان كالأطيرة أو الحظفة. ومنه ما يكون استماعاً وطلباً للمعرفة أو المتعة، أو كليهما، يتباين في تركيزه، ووقره يتباين ما يقل من ثلاثة، أو محاضرة، أو خطاب سياسي أو أغنية. ومن الصمت ما يكون بجلالاً للموت، وما يصلح من حزن، وتعزية، وجثرة، وما يتلو من حذر. ومنه ما يكون صمماً عن الكلام وقاءً للنكر، كما فعلت السيدة مريم وروى عنها القرآن الكريم. ومنه ما يكون تعلقاً عن قول ما لا يليق - ولا بد أن ما "يليق"، ومن ذلك الكلام في الأمور الأسرية، والمسؤول عن العمر، والراتب، والحلة الزوجية، والديانة، أو المذهب، يختلف من سيق إلى آخر، ومن ثقافة إلى أخرى. ومن الصمت ما يكون إشارة إلى انتهاء حوار أو كلام، ومن الصمت والصكوت ما يكون قهراً، أو قسراً يمارسه ذوو القوة والسلطان والقنود على من سواهم. ومنه ما يكون جهلاً بما يقال، أو إدراكاً له، أو لمن يقولونه. ومنه ما يكون من قبل ضيف الثقة بالنفس أو لفتتها، وما يصلح ذلك من خوف لوقوع في الخطأ، والتعرض للسخرية. ومن الصمت ما يكون احتجاجاً، أو اعتراضاً، أو استماعاً موقفاً عن الكلام في محكمة، أو أمام النيابة.

(انظر على سبيل المثال يقرت Ephratt، ٢٠٠٨، ٢٠٠٨).

## الإشارة

## عن الالتفات في القرن الكريم

ما أبلغ خطاب هارون أخاه موسى عليهما السلام بما بينهما من صلة ثم ورحم حتى لا يبلغ في لومه وتقر به:

[illegible]

وفي البلاغة العربية وقعت دلالة عند ظاهرة الانزياح  
 deictic/pronoun shift - وفيه ترد إشارة في غير  
 هذا الموضع من هذا التبسيط - تنطلق من القرن الكريم  
 الذي يحفل بأمثلة لهذه الظاهرة، في التحول من المتكلم  
 إلى الملقب أو المخاطب، ومن الملقب إلى المخاطب، ومن  
 الملقب إلى المتكلم. من ذلك ما نقرأ في

[illegible]

أما ما يؤدي الانكسار من وظف بلاغة في القرن  
الكريم مما نجد في نفسه. فمثل المبالغة. والتعجب.  
والتخصيص. والاستن. والتشريف. والتذكير. والتهريب.  
وإقامة الحجة والعلل. والتخفيف. والتوبيخ. ليس من  
المقبول ابن الوهف - كما درجت بعض كتب البلاغة -  
عند "رفع السامة أو درء الملل" بوصفها لغوية الوحيدة  
للانكسار.

**تَجَلُّوْا لِلْعَالَمِيْنَ**

## الأشربة لسماء الأشربة

{ "ذَا" أو "هَذَا" و"ذِي" أو  
"هَذِهِ" و"ذَلِكَ" و"تِلْكَ" }

**وهذين "و" هتين**

و"هؤلاء" و"فولك" -

مع ملاحظة أن "هـ" لو

"ها" أضيفت للتعبير -

**وَضَعَفَتْهَا الْعَامِيَّةُ**

**المتنوعة من قبيل "دأ"**

و"دي" و"تولي" نو

"نوت" و"هذبة".

**لكنها تشركها طبيعتها**

**الدلالة، وهي الإحالة**

لَمْ يَأْتِ مِنْهُمْ مَسِيحٌ

**قصص - ميقاته اللغوي**

وغير النوى الذي ورد

**تفصيله فيما سجد**

من خلال تصنيفات

لشون Levinson (١٩٨٣، ص ٥٤-٩٦)، وكروز Cruse (٢٠٠٠، ص

(ص ۲۱۲-۲۱۴)، وجرندی Grundy (۲۰۰۰، ص ۲۲-۴۷)، ممکن ان

للتخصيص الأمثل فيما يلي، مع ما يلزم من توضيحات ونقطة وحالات في

## البلاغة العربية:

## § الإشارة إلى (أو في) الخطاب discourse deixis :

"في الفقرة السابقة"، "فيما يلي"، "في هذه الرواية"، "فيما سبق". هذه اشارات نصية تنظيمية تحول إلى أجزاء في النص أو الخطاب وتسمى إلى تنظيمه وتحقيق المسبك والحبك فيه. ومن تلك الإشارات الشارحة - كما نجد في هذا الاقتباس - "فنأظر" - من مقدمة قطعة من أوروبا لرضوى عاشور - وما تتخذ من خلاله بصورة سرد وزبوتة: "في هذه الرواية لنا الناظر. ليس هذا الاسم هو ما اختاره لي والدي. ولا هو كُتبني التي يناديني الناس بها، أنا الناظر لأن مهمتي فنظر. نقل عبر حكايتي ما نظرت إليه من نظر العين والقلب، أي ما رأيته بالبصر والبصيرة. حين رجعت إلى المعجم لأتأمل مادة "نظر" وأطمئن أن الاسم يلي تعلم فوفاء بفترض. استوفقتني عبارة "ناظر العين"، وهي النقطة السوداء الصافية التي في وسط سود العين، وبها يرى الناظر ما يرى، وهي البصر نفسه، وهي أيضا عرق في الآف (أو عرفان على جتبي الآف) فيه (أو فيهما) ماء البصر، أترجمهما بلغتنا المعاصرة إلى قناة لسمع. كت هذا اسم ينسبني، ثم عدلت عن استخدامه لغرابته. وأيضاً لمنقلته دقة، فما رويه ليس ببصر نفسه بل ما رأيته فأعجبني أو ساعني. تفكر فيه وقدره قياساً على موقعه مني وموقعي منه. ثم أعجبتني "نظيرة القوم" وهو طليعتهم. ينظر إليه قومه. يمثلون ما يمثل، وهو طريقته. ولكني وجدت هذا الاسم لثقي تماماً كسابقه غير ملوف وبلغت الدقة، فلنا، على عكس نظيرة القوم. رجل وحيد معتكف في داره، لست طريقة أهلي، ربما كان لي أهل أتعرف عليهم ذات يوم. ولكن هذا أمر مستبعد لأن العمر لن يمتد طويلاً. أنا الناظر، منظرتي تلة عمري. فكك عليها رقبها وحارسا، فنظر وأعبر وأقدم دلائل المحبة، لأن النظر في لسان العرب دليل محبة. وترك النظر دليل تصراف لو بغض وكراهية. ربما كان هذا التوضيح زقداً عن الحاجة، يستيق الرواية باعلان ما قد تشير إليه وتضمته، ولكني أردت رفع اللبس. لأن كلمة "فناظر" في العربية الدارجة في مصر تحول إلى مدير المدرسة. وفي الماضي غير البعيد كان لوزير المتفقد بدعي الناظر، يدير شئون نظارته المحددة ويحكم سير الامور فيها. لم

أعمل مديراً للمدرسة في حياتي، ولا توفرت لي سلطة الإدارة والمديرين. نأظر المدرسة أو الوزارة بنفلي المقام والمقال وتجربتي. كيف لي وقا قصد دفقة والامتة ان ترك لاسمي قلال على مهمتي أن يسحب خيال القارئ إلى طريق مفترقة تغير المعنى وتعكسه؟ (رضوى عاشور: قطعة من أوروبا، ٢٠٠٣).

### § الإشارة الوجدانية empathetic deixis :

"هذا" للقريب و"ذلك" للبعد، والبعد هنا قد يكون مكثيا. أو زمثيا. أو شعوريا. وقد يكون تعبيرا عن التوقير والإجلال، من هنا تبدو غربة تعبير من قبيل "هذا الماضي البعيد" إلا في سياقات خاصة، وبلاغة للتعبير القرآني عن القرن ذاته في سورة البقرة: "ذلك الكتاب لا ريب فيه". ومن جميل ما ورد في البلاغة العربية عن ذلك أن "للمشتر إليه ثلاث مراتب: قريبة وبعيدة ومتوسطة. فيشتر إلى ذي القربى بما ليس فيه كف ولا لام: ككلم هذا الرجل أو هذه المرأة وإلى ذي الوسطى بما فيه الكاف وحدها: كاركب ذاك الحصان، أو تلك الناقة، وإلى ذي البعدى. أي البعيد، بما فيه الكاف واللام معا، كخذ ذلك القلم، أو تلك الدواة" (الغلاييني، ص ٢٩).

### § ظروف الزمان time deixis :

"الآن"، و"عندئذ"، و"صباح"، و"مساء"، وهكذا، لكل فعل أو حدث قتيته. فحين نقول "أنا الآن قرا"، نحول "الآن" إلى زمن نعرفه الآن في هذه الجملة ويرتبط بها وترتبط به، وحين نقرا "الآن حصحص الحق" على لسان امرأة العزيز في سورة (يوسف)، نحولنا "الآن" إلى زمنها وزمن "يوسف" عليه السلام، لا زمتهك أنت بينما نقرا، ولا زمتي أنا بينما أكتب.

### § ظروف المكان place deixis :

"هنا"، و"هناك"، و"ثم". ماذا نعني حين نقول "هنا؟" لفظها "هنا" حيث نقرا أنت، أو "هنا" حيث أكتب أنا، أو "هنا" لآخرى لمتكلم آخر. لا يذ أن "من هنا وهناك" تعني من مكان/ فضاء المتكلم في النص ومن فضاءات أخرى بعيدة.

## § الضمائر person deixis :

"أنا"، "نحن"، "هو"، "هي"، "هم"، "هن"، "هنا"، "انت"، "تنت"، "قنت"، "قنتما"، "قنتم"، "قنتن". عن الضمير يقول ابن منظور في لسان العرب "كما أن أكثر المضمر في العربية ين شئت جنت به. وإن شئت لم تلت به"، ويقول الرازي في مختار الصحاح "أضمر في نفسه شيئاً. والاسم الضمير. والجمع الضمائر. والمضمر الموضع والمفعول".

## § الإشارة الاجتماعية social deixis :

"السيدة"، "حضرة"، "علاء"، "استاذي الفاضل"، "الفندم"، وما إليها. تضع المشار إليه في مكانة اجتماعية بالنسبة إلى من يستخدمها، فيما عدا ما يكثر اليوم من استخدامات سخرية أو فكاهية. وينبغي أن نلاحظ أن الإشارات الاجتماعية وغيرها من صنف الإشارة ربما تتضافر، أو تتعارض، أو تتناثر في نص ما لتحقيق بعض أغياته البلاغية. في القالب "فناظر" ضمائر متكلم تتضافر مع التطبيقات الشارحة لتحديد دور المتكلم في الخطاب أو النص، والزاوية التي يعاينه منها المتلقي.

من الأهمية بمكان، إذن، أن نتناول النص من زاوية التعبير الإشارية. من تساؤلات التحليل في هذا الصدد ما يتعلق بهجرة الأحداث، ونقطة انطلاقها. ومن ثم وجهتها. أو وجهتها. وتحولاتها. وإدراك الشخصية المحورية ما يحيط بها من شخصيات وأمكن ولحدث بدأ، وتباعدا، أو قربا وتقربا، وكلفة، أو جفوة. سوف نرى فيما يلي من هذا التبسيط أن الإشارة بالغة الأهمية، وأنها تتجاوز مجرد التحديد والتصنيف والتمييز والتسمية أو النداء إلى تكريس الانتماءات، وصراع الهويات والاحيالات. لكن ينبغي التمييز بين الإشارة بالمعنى الذي ورد هنا وبين الإشارة بمعنى الحركة والإيماءة، وربما النظرة، أو الإشارة باليد، أو الكتف، أو الرأس. أو العين - مع أنهما يتقاسمان القدرة على الإبلاغ والتأثير. ما نقصده هنا هو إشارة النص أو الخطاب إلى العالم الذي يحيط به، وإلى ما فيه من شخوص. وما بينهم من علاقات تقارب. أو تباعد، مساواة، أو تمايز، وإشارة الخطاب إلى نفسه ومختلف أجزائه

ومكوناته. وسوف تعاود الإشارة لظهور بهذا المعنى في معرض الكلام عن ترابط النصوص وسبكها. أما الإشارة بمعنى الحركة والإيماء وما إليها فمجالها دراسة الاتصال غير اللفظي nonverbal التي تستلزم جهداً مستقلاً. لأنها تعين اللغة التقليدية على أداء ما يرد هنا من غايات ووظائف، لو توقعها عن ذلك كله.

من ذلك ما ورد في القرآن الكريم في سورة مريم: *وإذ قالت لربها أني أريد أن تبرأ منها، فأفترق بيني وبينها، فأنزلني من مكان خفي وهرق عني* (الأنبياء: ١٠١). لقد نذرت مريم للرحمن صوماً، وعزمت على ألا تتكلم ذلك اليوم فصياً. ولما كتبت تريد أن تبرأ بعهدتها، وفي ذات الوقت تنحس الاتهام، وكان لابد لتحقيق ذلك من التواصل، لم تجد مفرّاً من اللجوء إلى الإشارة. ولقد تحقق التواصل من خلال الإشارة، ولليل ذلك أن الرسالة بلغت هدفها، فردّ عليها قومها المرتبون بقولهم: "كيف تكلم من كان في المهد صبيّاً". في هذا الميق، حنت الإشارة غير اللفظية محلّ اللغة وتجزت وظيفتها. هذه تداولية موزنية، لا سبيل إلى الإحاطة بها هنا. ولا الوفاء بحقها، إلا على سبيل "الإشارة" العابرة.

## اللفة، إذن، تُشير

من خلال منفشة نظرية للعال للغة، ومن بعدها الإشارة. ومن قبلهما السبيل وعناصره. نستطيع أن نجعل القول فيما تفعل اللفة في أنها "تُشير"، أو أنها "مؤشِّر" - وكلاهما ترجمة صالحة لكلمة Index، فعلاً واسماً - يدلُّ ويوحى، لما الأم تُشير اللفة. وعلام تدلُّ، فهو على سبيل التلخيص، والكلام لبول تشيلتون وكريستينا شيلنر (٢٠٠٢، ص ص ٣١-٣٢)، مع ما يلزم من توضيح وتمثيل:

### • درجات اليقين والشمك :

موقف المتكلم مما يقول، والكاتب مما يكتب، من حيث اليقين أو شك، ومن تلك ما نجد في "قا أعنفًا"، و"زعم"، و"أظن"، و"مما لا شك فيه"، و"لحقيقة"، وفي "الواقع". وقد نلاحظ أن اللفة الإعلامية في غير دولة من الدول العربية تتجرّد بالتدريج من محتواها، فنسمع على سبيل التمثيل لا الحصر، "يمكن فنهارده نحب نرحب بـ"، ويذهلنا ما يحدث في برامج "التووك شو" - أو البرامج الحوارية - من تعبير من قبل "في الواقع" و"في الحقيقة"، وهذا الغياب اللافت لتعبير شك والاحتمال في ثقافتنا العربية.

### • العاطفة والوجدان، أو الحالة الشعورية :

من خوف أو حب أو كراهية، وما تنضم به لغة المياسة من تعبير عن الوطنية patriotism، أو حب الوطن والانتماء، وكراهية الغرباء والأجانب xenophobia، إذا لزم الأمر.



• الغاية أو المقصد، أو الفعل الذي يراد إتجاره من خلال الكلام أو الكتابة :  
وقد تقدم الكلام عن تلك الأفعال، على أننا لا بد أن نبقى على الحذر فلازم إزاء ما نجد في لغة السلسلة والإعلام من خبر يراد به الإنشاء، أو تقرير لا يراد به مجرد التقرير، بل الاتهام أو اللوم، أو وصف في إعلان لا يراد به مجرد الوصف، بل الدعوة إلى الشراء. ومن كلام الجاحظ ما ورد في مستطرد سابق بعنوان "وهذا كتب:" "و هذا كتاب موعظة... والكثرة من السامة..." وقد تقدم أن من غايات هذه المقنمة ومقاصدها: التبرير - تبرير المزح والفكاهة في مقام الجد - والتتويه في ما يسعى الكتاب إلى إتجاره وتوصيله - "موعظة وتعريف وتغله وتببية".

• جنس الخطاب، سواء كان كلاما لم كتابة :

في كل نص أو خطاب بعض ما يشير إلى نوعه، سواء كتبت الإشارة ظاهرة شارحة - من قبيل "سوف لحكي لكم حكاية"، أو "فيما يلي بيان وزارة لدخلية"، أو "والآن مع النشرة الجوية" - أو تركيبية شكلية - فالنص الذي يتشكل من بيت كل منها من شطرين أغلب الظن أنه قصيدة، والموسيقى التي تصاحبها كلمات منضمة أغلب الظن أنها أغنية، وهكذا.

• هويات المشاركين في الخطاب، وانتماءاتهم الاجتماعية وفلسفية والعرقية :  
وقد تقدم الكلام عن ذلك، لا تكفي هذه المقنمة بالكلام عن جنس الكتاب - وهو التاريخ أو الكتابة التاريخية، عن "أنباء ما بديل مصر" - أسلوبه - "من غير اطلالة ولا فثار ولا إحفاف" - والتعبير عن التوتر بين مدح الذات والكتاب من ناحية، والتوسل إلى الله تعالى أن يحقق الكتاب القبول وإلى القارئ أن يرضى طرف عما يجد فيه من قصور من الناحية الأخرى، بين الوعي بما بذل المؤلف من جهد، وتبرير ما يمكن أن يقع في الكتاب من قصور، بل تتجاوز ذلك إلى الإشارة إلى انتماء الكاتب وخلفيته الدينية الإسلامية - "عجائب صنع ربنا سبحانه" و"فكك من عسيم مسنن الله تعالى وجزيل فضله وعظيم نعمه علي وجليل طوله" و"إذا لم يصمه ويحفظه علام الغيوب".

• أنوار المشاركين في الخطاب، والعلاقات التي تربط بعضهم ببعض، وتبادل الأمور وتغيرها :

فالمدرس في المدرسة زوج ولب في البيت، وصديق في جلسة الصداقة. وهكذا. ولكل دور لفته التي تميزه عن غيره من الأنوار. ولكن علاقة لفته - كما يرد في غير هذا الموضع من التبسيط - ولكن ترتبك مقصود بين الدور والفته التي ترتبط به في نص أو خطاب غايته البلاغية التواصلية.

## التداولية العامة

• طَوَّرَ يورجين هابرماس Habermas تداوليةً إسَاقِيَّةَ عَنفَة Universal Pragmatics تتسجم مع جملة الاتجاهات الوظيفية التي ورد ذكرها في هذا التبسيط في تركيزها على اللغة المتداولة، لا للقواعد فتحوية أو فصريجة. مع تركيزها الخاص على المصداقية والقول بالصدق أو زعمه. وتسعى إلى اكتشاف ما يحقق التفاهم من خلال التواصل بين البشر. لأن التفاهم هو السبيل إلى تجنب الصراع والتسحق وإلى حل النزاعات. أما سوء التفاهم أو عدم التفاهم. فقد ينجم عنهما القتل والحروب والثارات والعداوات. وهي تداولية تسعى إلى تجاوز فصل المفصل بين الجسد والعقل. بين النظرية والتطبيق، بين التحليل والتفقد أو تنفيذ. حتى يتحقق التفاهم. لا بُدَّ من لغة مشتركة يفهمها طرفا الحوار أو التفاعل. ومجموعة من القواعد التي تنظم التفاعل أو الحوار، ومن التوقعات التي يحترمها الطرفان. غايات التفاهم الذي يتحقق من خلال التواصل اللغوي هي الانسجام وتبادل المعرفة. وترسيخ ثقة بين الطرفين بما يحقق التنوير وروح الجماعة والاتفاق. ويكرس الإحساس المتبادل بحسن النية (هابرماس، ١٩٧٩، ص ٣). فيما يلي تلخيص لركن تلك التداولية ومكوناتها:

أسس الصلح	مجاله	نوع التواصل	وظيفة اللغة
الحقيقة	العالم الخارجي	معرفي موضوعي	تمثيل الواقع وتبادل المعرفة
الأمانة	التكلم أو منتج الخطاب - الثبات المشاركة في التواصل	تعبيري ذاتي	الابوح بما يشعر به المتكلم وبما يعتقد
للامانة	المجتمع/ الجماعة	تفاعلي توافقي	تأسيس علاقات اجتماعية مقبولة بما يحقق انسجام القيم والوقوف

أركان التداولية العامة ومكوناتها

نقلًا عن هابرماس (١٩٧٩، ص ٢٨-٢٩، ٦٨)

ركن الأول من أركان تلك للتداولية - الحقيقة - هو الوظيفة التصويرية الوصفية ideational في نسق هاليداي، وهو التقرير في نسق أوستن وسيرل، وهو الخير في البلاغة العربية. أما الركن الثاني - الأمانة أو الإخلاص - فجزء من الوظيفة التفاعلية التواصلية Interpersonal في نسق هاليداي، وهو ينظر ضرورات الصق والتجاعة في نظرية للعال للغة عند أوستن وسيرل، كما يرد في غير هذا الموضوع. ينتظم ركن الثالث في التداولية العامة - وهو الموامعة - خصص الأجناس الخطابية، والضرورات والقواعد الاجتماعية التي تحيط بالخطاب، وهو شرط من شروط النصية، أو النصوية، في لغويات النص.

كيف يتحقق للخطاب صدقه ونجاعة؟ من خلال الإحالة في حقل قبلية للملاحظة أو الاختبار في العلم الخارجي، ومن خلال ما ينشأ بين منتج الخطاب ومستقبله من ثقة وقفة وتفاهم، ومن خلال الالتزام بالأعراف التواصلية الاجتماعية التي نجدها تحت مسميات التقاليد الأدبية، أو أدب الحوار، أو الأجناس الخطابية. وغير ذلك، مما يحقق التفاهم بين طرفي الحوار أو الخطاب مما يرد في هذا التبسيط في معرض حديث عن شروط النصية، والمبدأ التعاوني، واللباقة والكياسة.

وكيف يحقق المتكلم أو الكاتب غايته البلاغية التواصلية، ويدفع عن موقفه أو موقفه وتوجهاته، وينقل ما يريد من معنى؟

لا بد أن يكون ما يقال أو يكتب قابلاً للفهم، وأن يشتم بالصق، وأن يجر عن مقاصد المتكلم أو الكاتب، وأن ينأس نوع من الفهم المشترك بين المتكلم أو الكاتب والمتلقي، أو بين أطراف الخطاب (هايرماس، ١٩٧٩، ص ٤).

وحتى تتحقق للتواصل غايته، هناك مجموعة من الافتراضات التي يجب أن يقبلها المشاركون في الخطاب، أو يسعوا إلى تحقيقها، ومنها أهما أو فهم يستخدمون نفس العلامات اللغوية بنفس الطريقة وبفهم المعنى. وأن للجميع حق المشاركة والتفاعل. وأن الفضل لا يكون إلا للحجة القوية. وأن الجميع حريصون على تحقيق التفاهم. وأن كل ما يقال يمكن أن يخضع للتفنيد والمساءلة.

## التداولية المقارنة

توقفنا فيما سبق عند جملة من مبادئ تداولية منها مبدأ الفكية في ثلاث فطروحات متميزة، على ما فيها من تشابه، والمبدأ التعاوني، وما يتصل بهما من تضمين، وفتح، وتجاوز، وما تستند إليه التداولية في جعلتها من تصنيف فعل للغة أو الكلام وشروط نجاحها وفق تصورات أوستن ومن بعده سيرل.

لم نتوقف طويلاً فيما سبق من هذا التبسيط عند حقيقة أساسية مهمة، ألا وهي أن تلك المبادئ والقواعد التداولية تختلف في تجلياتها من لغة إلى لغة، ومن ثقافة إلى ثقافة، ومن موقف إلى موقف، بما في ذلك من يشارك في الموقف من شخص أو شخصيات. هذا التباين هو موضوع التداولية المقارنة أو التباينية *contrastive pragmatics* أو *cross-cultural pragmatics* أو *continental pragmatics* - وهي تهتم بالكلام والحوار - وما يتصل بها من بلاغة مقارنة *contrastive rhetoric* - وهي تشغل بالكتابة، والتداولية بين تداوليتين *interlanguage pragmatics*، وتتناول أساليب التعبير التي يستخدمها من يتعلم لغة أجنبية حيث تختلط فيها تداوليته التي درج عليها والتداولية الجديدة التي ترتبط باللغة الجديدة (على سبيل المثال كاسبر وبلوم كولكا *Kasper and Blum-Kulka*، ١٩٩٣).

إن وقع الاختلاف والتباين في تداول اللغة بين الثقافات لمختلفة؟  
فيما يلي بيان بعض مواضع التباين، ناسيماً على شرح بوهل (Pohl ٢٠٠٤)،  
بكثير من التصرف والتوضيح:

- الميول الذهنية وعادات التفكير *mental sets*:  
كيف يفسر الضيف سلوك مضيفه حين يلج في دعوته في الطعام أو إلى القهوة؟  
كيف نفكر؟ وكيف نفسر ما يقع حولنا من أحداث؟ كيف يتشكل سلوكنا اللغوي من

خلال طرق تفكيرنا؟ كيف نفسر تبسم أحدهم بينما يستمع إلى ما نقول؟ لا بد أن طرق تفسيرنا ما يحدث لنا وحولنا تؤثر في ردود أفعالنا اللغوية وغير اللغوية.

• **الانساق والتصورات**، أو **المخططات**، **الذهنية المسبقة** أو **الجاهزة schemata** عن الأشياء والموجودات والأمكن وما تتشكل. ومن ذلك تصور قرء عن هيئة أو مظهر المدرسة، ومعنى العطلة أو الإجازة. لا بد أن يكون لهذه التصورات عن المقام، ومن عناصره المكان، تأثيرها فيما يحدث فيه من سلوك لغوي.

• **التصورات**، أو **السيناريوهات**، **الذهنية المسبقة scripts** عن الأحداث ومكوناتها وتتابعها، ومن ذلك التمسق، أو مراجعة الطبيب، أو الحصول لحجز موعد مع مدير شركة أو إدارة، وما ي صاحب كل ذلك من أفعال لغوية.

• **الأحداث التواصلية speech events** والأغراض اللغوية. وكيف تتحقق من خلال تتبع أفعال اللغة.

من ذلك على سبيل المثال الاعتذار apology وما يشتمل عليه من تلمذ وإقرار بالخطأ ثم تبريره، إذا كان هناك ما يبرره، ثم التعهد ألا يقع خطأ مرة أخرى. من هنا تتجاوز الأحداث التواصلية أو الأغراض اللغوية، من اعتذار، وطلب، وشكوى، وإطراء، وغير ذلك، مجرد الأفعال الكلامية المنفردة إلى مجموعة من الأفعال الكلامية التي تنظم وفق أعراف تداولية تحكمها فنلغات التي تحبط بها.

• **الأعراف الاجتماعية الثقافية socio-cultural norms** التي تحدد ما يليق وما لا يليق في الكلام والحوار، وتبادل الأنوار، والصكوت، ورفع الصوت، وما في ذلك.

• **العباسة واللباقة**، وقد تلم الكلام عن ذلك، وما يحذرها من الالفة solidarity أو التباع distance بين المشاركين في الحوار، وما لكل منهم من نفوذ أو سلطة، أو معة.

كل ما سبق من عناصر يتباين من لغة إلى لغة، ومن ثقافة إلى ثقافة، ومن موقف إلى موقف، ومن هنا ينشأ التباين في السلوك التداولي. إذا جاز التعبير. فإذا كان لشكر أو التعبير عن الامتنان غرضاً لغوياً إيجابياً عاماً، فإن طريقة التي تعبر بها

كل لغة وكل ثقافة عن ذلك تختلف عن الطريقة التي تعبر بها لغة أخرى في ثقافة أخرى عن نفس الفرض. وقد ظلت التداولية التقليدية رهن الاحيقق للانساق اللغوية والثقافية الانجلوأمريكية. حتى تطورت التداولية المقترنة. بين سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي. وهي تنطلق من التسليم بالفروق الجوهرية بين الثقافات المختلفة في إنتاج فعل الكلام أو اللغة وتلقيها. وفي تطبيق أو انتهاك مبدأ تعاوني. وفي سلوك فكيلة والتغلب. وغير ذلك من جوانب التداولية. لا سهل في حصر دراسات قسي تتناول الفروق الثقافية في تحقيق الأغراض التواصلية من شكر. وشكوى. وطلب. وإطراء. واعتذار. وتعزية. وتهنئة. ولوم. وغير ذلك. غير أن جل تلك الدراسات تقع في شرع الاحتكام إلى الانساق اللغوية الانجلوأمريكية. وتطبيق نظريات قسي تنطلق من تلك الانساق. دون مراجعة أو تفنيد. واختزال ما يلاحظ من تعبير لغوية وأساليب تداولية. قد تدعو إلى إعادة النظر. حتى تندرج تحت النماذج الغربية.

حين يحدث التلاقي بين لغتين. ومن ثم ثقافتين. تتبدى تلك الفروق التداولية. وقد ينجم عنها سوء فهم أو ارتباك حين يحاول طرف من الطرفين أن يفرض أمساقه اللغوية التداولية على الطرف الثاني. وحين يجهل طرف عدات غيره التداولية. وهذا بعض ما يشتمل عليه مصطلح pragmatic failure (توماس Thomas 1985). وقد يقع الاختزال. فينبئ الجميع تداولية الأقوياء. فتصبح المعيار والنموذج الذي يجب أن يُحتذى. ولا تخلو تلك المواجهات بين الثقافات من طرفة. على سبيل التمثيل لا الحصر. في مقام الإطراء ربما يبدى غربي أعجابه بمساعة يد يضعها محدثه العربي. فلا يكون من الأخير إلا أن يقنمها إليه. ويدعو أن يلقبها. لو لم يكن الغربي على دراية ببعض العادات اللغوية التداولية العربية. لحسب أن الدعوة صادقة جادة - ولعلها كذلك في بعض المواقف. وربما يخطئ عربي نعوذ "لرسميات" مخاطبة زميلة عربية إياه باسمه الأول. فيظننها حياء أو قفة تنمو. وما هي كذلك.

لا تقتصر تلك التباينات على الأفعال اللغوية المفردة أو التعبيرات والجمل. بل تتجاوزها إلى العادات التداولية. من قبيل تجنب الرفض والإجابة بـ "لا اعلم". وغير ذلك. وإلى أساليب التعبير الكبرى. وما قد تشتمل عليه من مهثرة أو مدراة. ومن

تكرر. واستطرد. أو اقتضب. وخروج عن الموضوع. أو قترم به. وما إلى ذلك من أساليب تدلّلية.

تقع تلك التباينات. ومن ثمّ المفارقات. كذلك على مستوى التعبير غير اللفظية. من لحن. وإيماء. وحركات. وإشارات. وتبسم. وضحك. وهتار. أو تباعد. وهمس. ونظرات. وما إليها. من ذلك أن الصمت لا يعني الرضا في كل حل. كما يرد في غير هذا الموضع. ولا الإيماء بالرأس. بما يلد الموافقة في ثقافتنا العربية. له نفس المعنى في غيرها من ثقافات. وليس وضع الساق على الساق في حضرة من بكرنا فعلا غير لائق في كل الثقافات. ولا خلخلة الحذاء عند دخول منزل مضيق ضرورة أخلاقية في كل المناسبات أو الثقافات.

وليس بمستغرب. والحال هكذا في الكلام والإشارة. أن يقع التباين في أساليب الكتابة وطرقها وأوقاتها من لغة إلى لغة. ومن ثقافة إلى أخرى. وهذا هو مدار تشغل البلاغة المقارنة أو التقلبية كما سلف. تبلورت تلك البلاغة في نمطها الغربية تسيما على دراسة كابلان Kaplan (١٩٦٦) المهمة. والتي تتناول أساليب كتابة في ثقافات مختلفة. منها ما يسير في خط مستقيم. ومنها ما ينحرف ويدور حتى يصل إلى غايته البلاغية. ومنها ما بين ذلك. تبقى تلك البلاغة. بعد مرور ما يقارب نصف قرن منذ نشر كابلان دراسته التي تتخذ من أسلوب كتابة الأمريكي معبرا للحكم على غيره. موضوعا ثريا. على أن تتجاوز التصنيفات الجاهزة في تناولها لأساليب الكتابة وبلاغتها في المكاتبات والرسائل العلمية. وما تشتمل عليه من معالجة. ومفردات الكتب. وغير ذلك من أجناس تحريرية.

وليس بمستغرب كذلك أن يقع في الكتابة ما يقع في الكلام من انتقال transfer الأساليب البلاغية من اللغة الأم إلى اللغة الثانية. أو الأجنبية. وتشكل ما يسمى تدولية بين تدوليتين. لا هي تدولية اللغة الأم. ولا هي تدولية لغة جديدة فتسبى يقبل الطلاب والدارسون على تعلمها. من ذلك ما يمكن أن يصدر عن متعلم عربي في رده الإعجاب بهاتفه المتحرك باللغة الإنجليزية قللا "Please take it" - مفردات



الإنجليزية ونحو إنجليزي، لكن الدعوة عربية. إذا قلنا المتعلم على هذا الارتباك، ولم يتقن التنقل بين اللغتين والتداوليتين، كان كالفراغ الذي لو أن يدرج كالحجوة في كنبلة ومئة. ليس من صالح أحد أن يتم إقصاء إحدى اللغتين لصالح الأخرى. ولا أن تصبح اللغات جميعا نسخا شاتبة من لغة كالإنجليزية. لكن من صالح الجميع احترام عادات الآخرين اللغوية والتداولية، والوعي بالفروق الثقافية بين البشر بما يضمن الفهم. وحسن الظن، وتجنب الضرر.

يبقى أن نعرض على بعض ما يناط بدراسات الترجمة وهي تناول الأساليب البلاغية والتداولية المختلفة. (وهل الترجمة الجميلة الآمنة الماهرة وفرة على التنقل بين تلك الأساليب. وما يجعلها من مفردات وتركيب بما يناسب السياق؟) من الأمثلة يمكن أن تناول تلك الدراسات علاقات القوة والهيمنة والأيديولوجيا في النص الأصلي، وتحولاتها في النص المترجم. كيف تنتقل علاقات القوة والتأثير من الأصل إلى الترجمة؟ هل يبقى الفاعل فاعلا، والمنفعل منفعلا، والمفعول به مفعولا به؟ هل يبقى القاتل قاتلا، والضحية ضحية؟ هل نترجم "John killed Mary" إلى "جون قتل ماري"، أم "كفيت ماري حنظلها"، أم "قتلت ماري"؟ وما دلالة ذلك على غيبت الترجمة. وسياقها، والعوامل المؤثرة فيها؟ وكيف نترجم وجهة نظر النص الأصلي ومؤلفه؟ هل يبقى التهكم تهكما، والمسخرة مسخرة، والنقد نقدا. أم يتجمل النص في الترجمة؟ وما هو حظ الترجمة من اليقين بالنسبة في الأصل؟ هل نقل فعل الكلام على حالها في الترجمة، فيبقى الطلب طلبا، والأمر أمرا، والنهي نهيا، والخبر خبرا، والحكم حكما؟ أين مباشرة "افتح الباب" من مدارة "Would you please open the door" وتلفها؟ وأين كياسة "ممكن لو سمحت تسكت؟" من فظظة "I shut up"، وهل تترتب على "أنا أعلنكما زوجا وزوجة" في الثقافة العربية نفس الحقوق والواجبات التي تترتب على "I declare you man and wife" في الثقافة الإنجليزية؟ وهذا كله غرض من فيض الأسئلة الممكنة في تفصيل بعض ما نستطيع دراسات الترجمة أن تفعل في سياق التداولية.

### مثل: لوباما في القاهرة

"شكرا جزيلا. وطلب عصركم. إنه لمن دواعي شرفي أن زور مدينة القاهرة الإقليمية حيث تستضيفني فيها مؤسستان مرموقتان للقبلة. لحداهما الأزهر الذي بقي لأكثر من ألف سنة مفخرة العلوم الإسلامية، بينما كانت جامعة القاهرة على مدى أكثر من قرن بمثابة منهل من مناهل التقدم في مصر. ومعا تمثلان حسن الاستقبال والانسجام ما بين التقليد والتقدم. وإني ممتن لكم لحسن ضيافتكم ولخطوة شعب مصر. كما أثنى فخور بنقل طبيب مشاعر الشعب الأمريكي لكم مقرونة بتحيةة السلام من المجتمعات المحلية المسلمة في بلدي: "السلام عليكم". (من خطاب لوباما في جامعة القاهرة، 1 مايو ٢٠٠٩).

في هذه الترجمة ما يشي بأن من ترجمها، وقد صدرت عن البيت الأبيض، ليس من أهل اللغة العربية، لولا أنه قد تركها زمنا لفقدته الاحساس بجمالياتها، وبلاغتها، وتداولها بين الناس في الواقع. من ذلك ما نجد في "طلب عصركم" في ترجمة Good afternoon، وهي تحية لا ترد في لهجة من لهجت لغة عربية - في اللهجات العربية نحيا من قبيل "مساء الخير"، و"مسداه مساعد/ مساعدكم"، "مستكم اده بالخير"، وما شابهها. وفي ترجمة تلازم لفظي مقدم بين "التقليد والتقدم" - والصواب أن يتلازم "الماضي والحاضر"، و"القديم والجديد"، و"الأصل والمعاصرة". وهكذا - وتلازم لخر بين "مناهل" و"التقدم" - والصواب أن ننهل من العلم والمعرفة والحكمة - ولها تعبير نثنى هو "المجتمعات المحلية المسلمة" - والملوف هو "فجاليات الإسلامية" في الولايات المتحدة - ومفردة نقتنه هي "الأزلية" في وصف القاهرة - والصواب هو "العريقة"، وما إليها - وفي ترجمة ميلفتان على الأقل في "من دواعي شرفي" و"فخور" - والصواب في ذلك لفظ "بسرني" و"يسعطني" وما إليهما.

## تحليل الخطاب ولغويات النص

### مصطلح تحليل الخطاب

"مصطلح تحليل الخطاب مصطلح بالغ الغموض. سوف استخدمه في هذا الكتاب بمعنى التحليل اللغوي للخطاب الطبيعي المكتوب أو الشفهي (المنطوق)، وعلى سبيل التيسير، يشير المصطلح إلى محاولات دراسة تقويم اللغة فيما يتجاوز مستوى الجملة أي على مستوى فوحدات اللغوية الأكبر، كما في المحادثات والنصوص المكتوبة. يضي هذا فيما يضي أن تحليل الخطاب يهتم بالمساق الاجتماعي الذي تستخدم اللغة فيه وخصوصا ما يتصل منه بالتفاعل بين من يستخدمونها" (Stubbs، ١٩٨٣، ص ١).

### والنص

"... نستطيع أن نقول أن أي استخدام للغة هو نص - وهو تعريف يظل على سبيل محذورا، لأن نصوصا كالمراجع التليفزيونية تتشكل إضافة إلى اللغة كتعبئة من مؤثرات صوتية وبصرية. ... أما مصطلح الخطاب فيشير إلى اللغة قبل الاتصال في الواقع بوصفها جزءا من الحياة الاجتماعية يرتبط بغيره من عناصرها ومكوناتها" (هيركف، ٢٠٠٣، ص ٣).

ترد التداولية وتحليل الخطاب في غير موضع بوصفهما مترادفين، أو مصطلحين مختلفين لمفهوم واتجاه واحد، وترد التداولية أحيانا بوصفها نوعا من تحليل الخطاب، هي بالفعل نوع من تحليل الخطاب، يركز على فعل اللغة، وما يرتبط بها من تضمين، وفترض، وكياسة، وقواعد تعاونية، ومقاصد، ونوايا، وطرائق توليد، لكنها تفتقر إلى شمولية تحليل الخطاب، وتشغاله بالنصوص، لا الجمل. في نفس هذا الفلك - فلك تحليل الخطاب - تدور كواكب ونجوم أخرى لا سبيل إلى الإفاضة في شرح تفاصيلها، من اللسانيات الهنوية structural linguistics ومقولات رصدها في الغرب دي موسير عن اللغة والكلام والعلامة، وعلاقتها بمسبقها، وبغيرها من

العلامات، إلى دراسات مستويات اللغة، والاسلوب، وتحليل الانواع الخطبية وفق جنس الخطاب، وغايته، والمشاركين فيه register and genre analysis، إلى دراسة بينات الكلام والتواصل اللغوي ethnography of speaking.

وكيف يتشكل بها، ومقولات فوكو عن القوة والمعرفة، ومقولات التوسير عن النظم والأجهزة الأيديولوجية للدولة ideological state apparatuses، ومقولات بورديو عن العنف الرمزي وأشكال القوة، والمفاهيم التي طورها جوفمان عن ماء الوجه والتأطير framing، وتبدل أدوار المشاركين في الخطاب، وتغير الانتماءات والمواقف footing، و"إدارة الانطباعات" أو تشكيلها impression management، ودراسات الشعر في المجتمعات البدوية وعند "أهل البلد" الأصليين، وكذا دراسة للتراكيب والصيغ الشعرية التي تنتم بها نقطة معينة ethnopoetics، إلى الأنثروبولوجيا اللغوية واللغويات الاجتماعية لتفاعلية interactional sociolinguistics، وما بعد البنيوية، خصوصا عند باختين - الخيال الحوارى dialogic imagination، وتعدد الأصوات polyphony - في الخطاب - إلى علم العلامات semiotics، والدراسات الثقافية cultural studies.

ليس من غايات هذا التبسيط شرح تحليل الخطاب Discourse Analysis أو مراجعة نشأته وتاريخه وتطوره، ولا استقصاء أصوله الفلسفية واللغوية، لأن موضوع التبسيط هو التداولية - التي يراها بعض الباحثين نوعا من أنواع تحليل الخطاب - ولأن في دراسات أخرى غناء وكثافة في تناول أصوله الفلسفية واللغوية وتاريخه (فضل، ١٩٩٢). غاية هذا الجزء من تبسيط التداولية هو عرض بعض أدوات تحليل الخطاب ومقولاته ومفاهيمه، تاسيما لمنقشة التحليل النقدي للخطاب، وتحليل الخطاب السيلسي.

ولا سبيل في فض الاشتباك بين تحليل الخطاب من ناحية، وتحليل النص أو لغويات النص Text Linguistics وتحليل الحوار أو المحادثة Conversation Analysis من الناحية الأخرى، لأنها تتلقى جميعا في غير موضع، وتتعلق من نفس الإشغال بالمساق والجوانب الدلالية ووظائف اللغة، وتتجاوز حدود المفردة

والجملة والقجمة إلى ما يتشكل منه الخطاب أو النص - الذي يشمل من وجهة نظر تحليل الخطاب كل ما هو مكتوب أو شفهي. ويقتصر على الحوارات والمحادثات المنطوقة في تحليل المحادثة، وينطلق من النصوص المكتوبة لكن لا يتوقف عندها في تحليل النص. في قلب من المقاربات اللغوية. نجد تعاضدا بين الخطاب discourse والنص text، لكن الأول لا يقتصر. كما رأينا. على ما هو منطوق. ولا يقتصر الثاني على ما هو مكتوب.

في تحليل الخطاب وتحليل النص، يبرز مفهومان تنبأ بهما ترجمتهما في ثقافة العربية. وهما مفهوم *cohesion* ومفهوم *coherence*. سوف نجد من يطالع ما كتب في هذا الصدد باللغة العربية عددا مربكا من الترجمات من قبل "الاسجلت" و"الترابط" و"التجس" و"الاستق". على سبيل التبسيط، يشير المصطلح الأول إلى ترابط المعنى. أو فوحدات النحوية (الشكل)، والثاني إلى ترابط المعنى أو الأفكار (المضمون). فإذا قلنا "ذهب الولد إلى المدرسة. التقى زملاء صفه وحياهم" فنحن وراء نص. على قصره وربما فتمتله. بشم بالترابط والوحدة العضوية - ولتستقر من الآن على "سبب" والحبك" تفاديا للالتباس والارتباك. حيث يرى بعض الدارسين العرب. ومنهم سريجة (٢٠٠٧). أن للمصطلحين جذورا في البلاغة العربية. وهما على كل حال مصطلحان رشيقتان معبران. في النص القصير السابق. ترتبط الجملة الثانية بالأولى من خلال الضمير المتصل في "صفة" والذي يعود على "ولدا". ومن خلال العلاقة الدلالية. علاقة الكل بالجزء. بين "المدرسة" و"صفة" - هذا بالإضافة إلى السبك في كل من الجملتين على حدة.

ليس السبك والحبك كل ما في تحليل الخطاب أو تحليل النص من جوانب مهمة - فهما يستخدمان مجمل الأدوات التحليلية ومنها التضمين. والافتراض المسبق. وأفعال اللغة. والمبدأ التعاوني. كما يرد تفصيل ذلك في الحديث عن التحليل النقدي للخطاب - لكنهما مفهومان محوريان في كل الاتجاهات الوظيفية كما يرد لاحقا. وكم يعجب لنقاد وكم عجبوا - على الأقل قبل الحداثة وما بعد الحداثة - عن شعراء فقهاء

بعض قصدهم الوحدة العضوية، وكما شكوا المدرسون ويشكون افتقار ما يكتب تلاميذهم الترابط و"التسلسل المنطقي"، وكما شكوا الممتحنون ويشكون افتقار الطروحات طلابهم الانتقال المنطقي المبرر من جزء إلى آخر. وكما يشكو الجميع اليوم ما تحفل به الكتابة العربية الصحفية من ولوات عطف لا تعطف، وفواصل لا تفصل، وجمل تراص دون مبرر أو منطق، ودون فواصل أو وقفات - وعلى المتضررين أن شاعوا أن يتكفوا بسبك النص وحبكه بطرقهم الخاصة!

ولأن السبك من أشراف الخطاب والنص، فقد خصه هاليداي ورقية حسن بكتاب كامل (١٩٧٦) أصبح مرجعا لا يستغنى عنه الدارسون في تحليل الخطاب وما يرتبط به من اتجاهات تداولية وظرفية. فيما يلي تبسيط بعض ما ورد في الكتاب من صنوف السبك، وأمثلة توضحها من اللغة العربية. وطالما أن الغاية هي التبسيط فلا ينبغي أن تتوقع تعبيرات من قبيل "إشارة إيموفورية"، أو "خارجية"، أو "خارجة" في ترجمة exophoric مثلا، أو تعبيرات من قبيل "الأنفارة"، أو "الاشارة المرسدة"، أو "الترجمة" في ترجمة anaphora، حتى لو كان ثمن التبسيط ترجمة كلمة واحدة في عبارة أو جملة.

## § طرائق السبك وأدواته

### ١. الإشارة reference

أ - إلى خارج النص exophoric :

على سبيل التمثيل: "ضع الكتاب على هذه الطاولة"، و"تلك السماء صافية".

ب - إلى داخل النص endophoric :

- إلى ما سبق anaphora — على سبيل التمثيل: "كما ورد في هذا الكتاب من قبل". "في الفقرة السابقة كلام عن السبك"، "ذهب الولد إلى المدرسة". "نقلى زملاءه وحياهم". "بعض ما قلت عار من الصدق". وكما يشير لاهوش في المتن.

- إلى ما يلي cataphora - على سبيل التمثيل: "في الجزء الثاني. نتناول لغويات النص وتحليله"، "أجب عن السؤال الآتي". "قرّنا ما هو نت". "في الفصل الثاني. نتناول الرسالة أدبيات الخطاب الإعلامي بالمراجعة ونقله. وكما يشير العنوان إلى فنص.

## ٢. الاستبدال substitution

على سبيل التمثيل: "هذان الروايتان لك؟ أعزني واحدة؟". "هل كتب تقرير؟ نظنه فعل". "اختلف الأصقاء، فقال أحدهم: لا بد أن نحتكم إلى طرف محبذ".

## ٣. الحذف ellipsis

على سبيل التمثيل: "ما اسمك؟ أحمد"، وتقدير الكلام "اسمي أحمد". "وقا اسمي أحمد". "وتكرّما فتح الباب"، وتقدير الكلام "افتح أنت الباب". "وعمّ. وأصلها" عن ما نو ماذا؟ "وكيف حالك؟ بخير"، والأصل "أنا بخير". ويكون الحذف لتجنب الإطالة، وربما لأن المحذوف معلوم من السياق اللغوي وغير اللغوي. وربما للاحتراز، أو خشية نوي السلطان. وغير ذلك من مبررات.

## ٤. الربط conjunction

على سبيل التمثيل: "و" العطف والحال والمفعول معه. "ولكن". "وبل". "ومن ثم". "وعلى ذلك". "وغير أن"، "أو"، "ولف" التعاطف والمسببة. "وعندئذ". "وحينئذ". وما شبهها. "وسوى"، "وحتى"، "وكي"، "وأن"، "ولن"، "ولف" فتطيل والحدود والمسببة، "ومن"، "ولئنا"، "وحيثما"، "ومتى"، "وأي"، "وكو"، "ومذ"، "ومنذ". لفظة طويلة، ولا سبيل إلى حصرها هنا.

## ٥. الصبغ الدلالي lexical cohesion

ومن ذلك التكرار، والتلازم الدلالي، والجناس، والترفع، والطبق. والحقول دلالية: "لمرور"، "البهجة"، "السعادة"، "الحبور"، "والفرح" (ترفع). "والخير والشر".

"والفضيلة والريثة"، "الأفراح والأتراح"، "الياس والامل"، "البدية والنهاية"، "الأبيض والأسود"، وما بينهما، "يفعل ولا يفعل" و"محور الشر ومحور الخير" (طبق)، "البحر والمحيط والنهر والمضيق والخليج"، "الشمس والقمر والسماء والجنوم"، "القمم والقرطاس والريشة والحبر والطبعة" (حقول دلالية).

ماذا تفعل أصوات وطرائق المسبك تلك في النص؟ فلنتخيل نصاً عربياً يخلو منها جميعاً. أو فلنتخيل نصاً آخر ليس فيه من رابط إلا "لو" العطف. ليست طرائق المسبك وأصواته فن مجرد حشو، بل هي التي تخلص الخطاب من قسوة، وتضفي عليه انتماساً، ونحن الملتقي على التعامل معه بوصفها علامات طريق.

لكن عطينا أن نمارس ما نستطيع من  
حذر في قراءة تلك الأصوات والروابط

### مزاليق ومحاذير

أحياناً يصبح تحليل الخطاب نوعاً من شرح قصص أو تفصيلها دون تفسير أو توليد، وأحياناً يقتصر على مجرد مثل من هنا وأخر من هناك لتأكيد ملاحظة أو فرضية، دون محاولة اكتشاف الإنساق الكبرى والظواهر الدالة في الخطاب. وربما يعيب تحليل الإنساق المستيق إلى وجهة نظر أو تفسير - أو الانكفاء على نموذج أو نظرية لا تصلح للتعامل مع ما يتناوله التحليل من نصوص. وقد يعيب دراسات تحليل الخطاب أن تقتنف بالانتماسات المطوّكة من النصوص موضوع تحليل دون مبرر أو تفسير. وقد تقع بعض دراسات تحليل الخطاب في شرك التعصيم والاعتقاد بأن ما يصق على سياق يصق على غيره. هذا بعض ما يمكن أن يقع فيه تحليل الخطاب من مزاليق. نجد شرح هذه الأخطاء وتوضيحها بالأمثلة في دراسة تشوّلز قنكلي Antaki وآخرين (٢٠٠٣).

- خصوصاً ونحن نعين نضج التحليل  
التفدي للخطاب وتحليل الخطاب  
السياسي. وقد ورت في غير هذا  
الموضع أمثلة لما يمكن أن تفعل  
حروف الجر، وما يمكن أن تفعل  
الإشارة من تصورات عن العالم، وعن  
الآنا والآخر وما بينهما من تصور أو  
جذب. وقرب أو بعد. ماذا نقرأ في  
قراءة الربط في جملة كهذه: "إنه فقير،  
لكنه يعيش في سعادة دائمة؟" لأننا  
نلاحظ تعارضاً بين الفقر والسعادة،  
ونضميناً مفاده أن القى لا الفقر هو  
السبب الطبيعي للسعادة، وأن حالة  
الشخص الذي تشير إليه الجملة مجرد  
استثناء من القاعدة.



وفي موضع آخر، يرد حديث عن الثنائيات التي يحفل بها الخطاب السياسي المعاصر، خصوصاً تحت تأثير مقولة صراع الحضارات/ الثقافات، وبعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، والحرب على أفغانستان، وغزو العراق. في ترسيخ هذه التفتيات تحتشد مفردات الخير، والعدل، والحرية، والسلام، والديموقراطية، في طبق حتمي مع مفردات الإرهاب، والتطرف، والقمع، وتحتشد مفردات الجهاد، والاستشهاد، والمقاومة، في طبق آخر مع مفردات وعبارات الاستعمار، والحروب الصليبية، والغرب المتحيز، والاحتياز، والكيل بمكيالين. وحين نقرأ في سياق مغاير تقريراً لخبيراً عن "غرق عبّارة لأن المسافرين لم يتحلوا بالصبر وتدفعوا حتى تجاوزت العبارة حمولتها الطبيعية"، فلا ينبغي أن نكتفي بحصر الروابط وتصنيفها في رويط سببية، لأن الأسباب الحقيقية ربّما تختلف عما ورد بعد "لأن" وقبل "حتى" ولم يكن للمسافرين من يد في غرق العبّارة. وحين يداهمنّا إعلان تجاريّ بتغيير محكم من قبل "بتمس للحياة ... بتمس لـ ... (اسم المنتج)"، فلا ينبغي أن يكون مطلقاً من التحليل مجرد رصد التكرار - تكرر فعل الأمر وتكرر البنية النحوية التي تتكون من فعل الأمر والفاعل للمستتر والجار والمجرور، لأن التكرار هو الذي يحقق بلاغة هذا النص. وينقل رسالته، وهي أن المنتج المُعلن عنه هو الحياة والحياة هي هو. ولا حياة للمستهلك المستتر في الجملة، المُستهدف في الواقع، بدون هذا المنتج. من هنا، لم يعد كافياً بحال من الأحوال عند تحليل السبك في نصّ سياسي أو إعلامي أن نكتفي بحصر الأمثلة وتصنيفها، وأنّ نشعر بالرضا حين نجد في النصّ مثلاً أو مثليين لكسل فئة من فئات السبك كما حذدها هالداي ورفية حسن. لا مفرّ من إعادة قراءة قوائم السبك وطرائقه في ضوء مقولات ومفاهيم تحليل الخطاب السياسي والتحليل النقدي التي ترد مناقشتها فيما بعد.

نفس هذا الحذر ينبغي أن نتحلى به ونحن نتناول الحبك. وهو قرين السبك الذي لا ينفصل عنه - إلا لغايات بلاغية خاصة - من منطلق ما ترنّد في فيلم سينمائي مصري معاصر على لسان أستاذ التمثيل حتى أصبح مثلاً سخرية طلابه وطالباته.

وهو أن "الشكل والمضمون وجهان لعملة واحدة". "المك والكتابة". وقد تقدم أن الحك هو ترابط المعنى والمجمل، في علاقات سببية، أو تفسيرية، أو تمثيلية، أو علاقات تعارض، أو مقارنة بين الجمل، أو الانتقال من الخاص إلى العام، ومن العلم إلى الخاص، وعلى نطاق أرحب، يتجلى التأكيد على الحك في توقع الوحدة العضوية في النص الشعري منذ كانت القصيدة الجاهلية تشتمل على الوقوف على الأطلال، ثم نكر الرحلة، وبلوغ الحبيبة، ثم بعض الحكمة والنصح، إلى أن تبلورت مفاهيم البناء الروقي والقصصي التقليدي الذي ينتظم وصف المكان، وتحديد الزمان، وتقديم الشخصيات، ثم تساعد الأحداث إلى نقطة تصادم أو كشف، ثم الزواج أو فبراءة أو غير ذلك من النهايات السعيدة التي لم تعد لا هي، ولا خطية الزمن من بداية إلى وسط إلى نهاية، ولا الوصف التقليدي للمكان - وقد اختلط الوافقي بالفرقي والخيالي والأسطوري، واختلط الوعي باللاوعي - من سمات المرد المعاصر.

ونجد التأكيد على الحك كذلك في تعاليم التسلسل المنطقي، وكتابة العقدة الدراسية من مقدمة، ووسط، وخاتمة، مع ما يلزم من أسئلة توضيحية، وتعليقات، ومقارنات، ورسائل كتابة البحوث العلمية، والمقالات، والأخبار الصحفية. كما تطور جنس خطابي جديد، تبلورت معه طرائق الحك الملائمة له. حتى إذا استقرت. شرعت فئة من الكتاب والمبدعين في الخروج عليها رغبة في تحقيق غايات بلاغية جديدة، وتسجلا مع سبقات وظروف تاريخية متغيرة، لأن المفنات اليوم لا تصل بنا إلى النتيج بنفس السهولة والثقة التي كانت تصل بها في الماضي (ليس كل من يزرع اليوم يحصد، ولا كل من يحصل على "شهادة جامعية" يجد وظيفة. وليس "قلان" مفقرا. من منطلق أنه إنسان، وأن كل إنسان بطبعه مفقر). حتى تتماهى الحدود بين الأجناس الخطابية، وتتداخل الأنواع، وتتطور أجناس خطابية جديدة، في تنظر من يغمر بالخروج على قواعدها.

ولأنّ للسبك والحبك هذه الأهمية والتأثير، انتقلا من تحليل الخطاب إلى لغويات النص التي يرى بلخفون، من أمثال روبرت دي بوجراند de Beaugrande، أنها يجب أن تتشغل أول ما تتشغل بشروط النصية، أو النصوصية، textuality وضرورتها - على مضي ما ينبغي أن يتحقق في مجموعة من الجمل أو التركيب اللغوية حتى تستحق أن تسمى نصاً.

وقد ألف دي بوجراند ودرسلر Dressler كتابها كاملاً (١٩٨١) لمنهضة شروط النصية بعد مراجعة مهمة لنشأة وتطور علم لغة النص أو لغويات النص. فيما يلي شرح وتبسيط هذه الشروط - ما عدا السبك والحبك فقد تلخص الكلام عنهما - ونوضحها بالأمثلة، ونماذج مما يتردد من ترجمتها إلى اللغة العربية.

## ١. التماسك والتعاضد والسبك cohesion:

'المشكلة هي قن بالاضبط يا حضرة الصاغ، لا ينفع في هذه الدنيا أن تكون نصف طبيب ونصف شيرير، نصف وطني ونصف خائن، نصف شجاع ونصف جبان، نصف مؤمن ونصف عاشق، دائماً في منتصف شيء ما' (بهاء طاهر: ولعة قفرروب، ص ٢٠٢). في هذا الاقتباس يتحدث "محمود" إلى نفسه، وقد أخرجها، وفصلها عن نفسه في لحظة وعي ومحاسبة، حيث تلمي الإشارة وصيغة المخاطبة بهذه المسافة التي يبتعد بها "المتكلم" عن "المخاطب" - مع أنها واحد - ويتضفر الطباق بين الجميل والقبيح في نفس المتكلم المخاطب والتراتف بين جوانب الفبح وبين جوانب الجمال فيها للتعبير عن روح ممزقة، وذات منقسمة، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، فكيف يفر لها قرار؟

## ٢. التقلرن والتناسق والحبك coherence:

"قل دبشليم الملك لبديبا الفيلسوف: قد سمعت هذا المثل. فاضرب لي مثلاً في شأن الذي يضع المعروف في غير موضعه، ويرجو الشكر عليه. قل الفيلسوف: ليها الملك أن طباع الخلق مختلفة. ولين مما خلقه الله في دنيا مما يمشي على أربع أو على

رجلين أو يطير بجناحين شيء هو أفضل من الإنسان. ولكن من الناس قير والفلجبر. وقد يكون في بعض البهائم والسباع والطير ما هو أوفى منه نمة. وأشد محاماة على حرمه. وشكر للمعروف، وأقوم به، وحينئذ يجب على ذوي العقل من الملوك وغيرهم أن يضخوا معروفهم مواضعه، ولا يضوهه عند من لا يحتمله ولا يقوم بشكره ...” (ابن المقفع: كنز العمال، باب السائح والصيغ). في كتاب كنز العمال ومئة طبقت متداخلة ومتراكبة من السرد، بحيث تحتوي القصة الإطرا. قصة ملك والفيلسوف، مبررا للقصة التي يرويها الفيلسوف، وهو النزول على رغبة ملك والإجابة عن سؤاله. وتتوالد القصة من القصة، وفي كل مرة نجد في فتية تهريرا منطقيا للأولى. وفي الأولى توضيحا لما غرض في الثانية، أو إجابة عن بعض تساؤلاتها. هذا التبرير هو الذي يحفظ للقصة حكيها ومنطقها - هذا بالإضافة إلى تنماء القصص إلى جنس خطبي تأثير هو الأمثلة fable، أو الحكاية على لسان الحيوانات، ويحولها في باب النصح والتعظيم، وما فيها من مجاز وتولوجية دلالية تتيح لمتعة البرينة لمن أرادها، وتتيح الحكمة والفلسفة لمن أرادها. وفي كل مرة يفتح الباب بما يقول الملك - “قد سمعت هذا المثل، فاضرب لي مثلاً في إشارة بليغة إلى ما سبق وفي ما يتبع من الحكايات.

### ٣. القصدية والقصد Intentionality:

وراء كل نص إرادة إنسانية واعية، وغايات مقصودة، وليس ظاهر النص كباطنه، إذا جاز التعبير، فربما تمال عن الوقت وأنت تقصد أن توحى إلى ضيفك أن يذهب لأك مرقى، أو لديك التزامات وولجبات أخرى معلقة - سواء على ضيفك فهم ما ترمي فيه ثم لم يفهم. وقد تقدم الكلام عن الإنشاء في البلاغة العربية. وفعل اللغة والتضمن، والتأثير، أو المعنى المقصود في التدلالية في نمطها العربية، غير أن مزيداً من التوضيح لن يضر. ربما نجد في الخطاب ما يشير إلى قصد منتج - “ريد أن أستاذ”، “تزوجوا لن نحيطكم علماً”، “على سبيل الاعتذار” - مع ضرورة توخي الحذر. لأن المقاصد الحقيقية ربما لا تتسمج مع ظاهر الأقوال. كما نعين في غير

موضع من هذا التبسيط. تفتتح أئمة بنت الحارث وصوتها لهنّتها لم يئس - وهي إحدى رواتع النثر العربي التي نكتفي إزاءها في القلب بالانتهاس أو "مسوء الاستعمال" لتحقيق مصلح شخصية نكورية - بتحديد غايتها ومقصدتها البلاغية - "تنكرة للغافل ومعونة للعقل" - والاعتذار عما يمكن أن يقع من مسوء الفهم - "إن الوصية لو تركت للفضل لب، تركت لذلك منك" - وتبرير ما سوف تقدم من النصيحة. ناهيك عن الاستمالة والتحبب والتكريم اللازم - "أي بنوة" - "وإن امرأة استقت عن الزوج لقى أبويها، وشدة حاجتهما إليها، كنت أغنى الناس عنه" - حتى تؤتي النصيحة ثمرها المرجوة.

### الجنس الخطابي لا الأنثوي

"لا تستمد اللغة جمالياتها من تكوينها الذاتي فقط، أي باعتبارها صوتاً وتركيباً ومجرات ذات طاقة تأثيرية مباشرة، ولكن أيضاً من علاقتها بالجنس الأنثوي الذي تدّعي له في صوغ لهنّيتها، إذ تصبح اللغة بموجب هذه العلاقة في أفق جمالي جديد حيث يعدد المبدع إلى نسج خيوطها واختيار قوتها وفق ما يقتضيه هذا الإطار من مكونات وثوبت" (مشبال، ٢٠٠١، ص ٥١-٥٢).

هذه إشارة مهمة في نوع الخطاب وجنسه وتأثيره على اللغة والاستنوب، مع التحفظ اللازم على "الأنثوي" وضرورة استبدال "الخطابي" بها، مع ملاحظة أن الباء تلحق بالمتروك، كما يرد في غير هذا الموضع، وعلى "المبدع"، لأن كل استخدام للغة ينتظمه نوع أو أنواع خطيبية.

وتختتم أئمة نصيحته بالدعاء لابنتها، فكيف لا تقبل الابنة لو لا تستمع والنصيحة ما بين تحبب وأمنيت طيبة؟ لأن لم يئس لم تخطئ مقصد والدتها، ولم تجد في النصيحة نوعاً من القهر لو الوصية: "أي بنوة: إن الوصية لو تركت للفضل لب، تركت لذلك منك. ولكنها تنكرة للغافل، ومعونة للعقل. ولو إن امرأة استقت عن الزوج لقى أبويها، وشدة حاجتهما إليها، كنت أغنى الناس عنه. ولكن النساء للرجال خلقن. ولهن خلق الرجال".

#### ٤. التقبُّلية والقبول والتقبُّل والمقبولية **acceptability**:

وهي أن يتوافق النصُّ مع توقعات المتلقي - مع ضرورة أن يتحلى المتلقي بفتساح  
رأء فنصوص التي تنتهك الحدود النوعية والتنظيريات النقدية. وتخرج عن ففق  
توقعاته بفرض صباغة توفُعت وخصائص نوعية جديدة.

حين نقرأ خبراً صحفياً، نتوقع أن نجد فيه إجابة عن أسئلة يتطعمها طلاب وطقبات  
الاعلام - "من؟" و"ما؟" و"متى؟" و"أين؟" و"لماذا؟" و"كيف؟" - كما نجد في هذا  
الخبر:

"بدأت روضة البافوت (من؟) في منطقة مصفوت النقية التابعة لمنطقة عجمان  
لتنظيمية (أين؟) بتطبيق مشروع الحافلة المرحة (ما؟) الذي يعتبر الأول من نوعه  
على مستوى الدولة بدعم مباشر (كيف؟) من صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل  
مكتوم نقب رئيس للدولة رئيس مجلس الوزراء حكيم دبي (من؟) الذي امر بتوفير  
لدم الفلزم للمشروع عقب زيارته للمناطق النقية العلم الماضي (متى؟)"

(جريدة البيان، ٣٠ مايو ٢٠٠٨، الأقواس والأسئلة ليست في الأصل).

#### ٥. الإعلامية والإعلام والإخبار **informativity**:

كل نص يخبر بشيء - حتى الكلام "الفارغ" يخبر بشيء عن صاحبه -  
وتتفاوت النصوص في نوعية المعلومات أو الحقائق التي تنقلها من عظمة إلى أدبية  
وصحفية، إلى غير ذلك، وفي نصيبتها من الصدق أو الكذب، كما تتباين الحقائق من  
حقائق طبيعية إلى حقائق شعورية أو روحية، فليست "حقائق" لفيزياء مثلاً كحقائق  
الشعر.

ولعل من نوابغ تطوّر التحليل النقدي للغة تناول "الحقيقة" و"فبرهن" و"فبيئة" من  
منطلق أنها مفاهيم نسبية، تتباين من ثقافة إلى ثقافة، ومن نسق معرفي إلى آخر.

## ٦. الموقفية والموقف والمناسبة أو الملاءمة :situationality

لكل مقام مقال، ولكل حادثة حديث. "حكمة بالغة. فما يروق لزيد ربما ينفر عرا، وما يدره قوم ربما أعجز آخرين.. فلتؤطر حوارك بالحال من حوك. وتجنب التحديد الواضح عند حوار ذوي الروح النافذة؛ حتى لا يستعجلوا غوك. وتحفظ خط ترجمة مفتوحا من ورقك.

### مصطلح وترجمة

"يمثل مصطلح الموقفية تسمية عمدة للعوامل التي تقم صلة بين النص وبين موقف لواقعة ما سواء أكان موقفا حضرا أم قبلها للاسترجاع. ونلغز ما تتحقق تقيرت مقام سبافي معين بدون حدوث لتوسط أي مدى تغذية المرء بمعتقداته وأهده الخاصة للتمودج الذي يقيمه الموقف الاتصالي الحلي" (الفترة الأولى من الفصل الثامن - الموقفية situationality - من ترجمة إهم أبو غزالة ككتاب مختل في علم لغة للنص *Introduction to Text Linguistics* هذا <http://www.beaugrande.com>). هذا مثل آخر للكتابة فتدولية عربية قني قد لا نصل بالقزى في شن. على ما فيها من جهد وبخلص، ربما لإصرارها على الترجمة الدرقية.

وقد يتخذ الحوار في أسر ما، لسبب أو لآخر من الظروف الاجتماعية أو السياسية أو غيرها. ولذا كان لازما على المحاور الفطن أن يقدر الأمر قدره، وأن يزن المصالح والمفاسد، وألا تغلبه شهوة الحديث عن تقدير العواقب...." (طريق الحبيب: "كل مقام مقال". <http://www.asyeh.com> ٣٠ مايو ٢٠٠٨، بتصرف بسير)

## ٧. النصوصية، والتشاص، والتضمين :intertextuality

ومن تلك الترجمة، والانتباس، وإعادة النشر، والمعالجة، والأسلية، أي تقليد أسلوب نص سابق. والمرقة الأدبية وغير الأدبية، والتلخيص، والتعقيب، والمراجعة. "ومن الإهداءات المثيرة إهداء كتبه الكاتب السياسي الراحل 'أحمد بهاء الدين' في: 'أقرب العزيز منير حافظ، الذي كان له فضل اختصار الكتاب ل يظهر في هذا الحجم قرشي..'. ونلك بتاريخ ١٤/٢/١٩٥٦، أي في مقبل رنسته لتحرير مجلة صباح الخير. وكان

الكتاب: شهر في روسيا صاغرا عن دلو النديم. ويعتبر هذا الكتاب من أجمل ما كتب بهاء. وفيه يتحدث عن روسيا من الداخل، ويطلق عددا من الأفكار الجديدة أو المسددة التي كانت منتشرة آنذاك مثل قوله: 'إن روسيا لا تحكمها الوزارة التي يرأسها بولجوتين، ولا الجيش الذي يقوده زوكوف، ولا الحزب الشيوعي الذي يتولى خروتشوف منصب سكرتيره العام.. إن روسيا تحكمها نظرية!'. المهم هل كان بهاء صادقا في إهدائه إلى الرقيب .. ولربما أن إياه إلى أن منير حقاقت. أصبح فيما بعد مديرا لمكتب شمس بدران" (شعبان يوسف): "إهداءات على الرصيف" جريدة أخبار الأقباط. ٢٥ مايو ٢٠٠٨).

# 1

## التناس وما إليه

ذهب جيرار جينيت Genette (١٩٩٧) إلى أن علاقات النص بنفسه وبغيره من النصوص يمكن تصنيفها إلى ما يلي:

§ فتناس Intertextuality (انظر المتن).

§ النص المواتي paratext - المقدمات، والهوامش، والشروحات، والضلوع الرنيسية والفرعية، والمراجع، والإهداءات، وما إليها مما يحيط بالنص.

§ المصادر النصي، أو الجنم الخطابي architext الذي ينتمي إليه النص.

§ النص الشارح metatext - من ذلك ما نجد في الأقباط من تقارير المسيدة راء.



§ النص اللاحق hyper، وعلاقته بنص سابق hypo، ربما على سبيل المحاكاة الساخرة أو النقص أو المعارضة.

§ النص الفائق hypertext، بمضاه الإلكتروني الذي نجده على صفحات "شبكة العنكبوتية" أو الإنترنت.

إن حديث القصاص وما يتصل به حديث بطول، من توظيف النصوص لأغراض اعلانية ترويجية - "عند جهينة الخبر اليقين" (إعلان حليب جهينة) - إلى توظيفها لتطويق غايات سياسية، إلى "السرقات الأدبية" - ولا بد من إعادة النظر في صفة "الإنبيسة"، لأن السرقة لا يمكن أن تكون "أدبية"، ولأنها تقع في الألب وفي غيره من أجناس الخطاب. في البلاغة العربية تصنيف طريف لتلك السرقات إلى "سُخ" و"مُخ" و"سُخ" و"مُخ" - وتعني على الترتيب: سرقة اللفظ والفكرة معاً، وسرقة بعض اللفظ، وسرقة المعنى دون اللفظ. ويتصل بذلك ثمانية أمور هي "الانقباس" - إعادة إنتاج جزء من نص سابق أو معاصر في نص آخر - و"التضمين" embedding - وهو انقباس فيه تصوير أو اجتزاء وفق ظروف النص الجديد - و"الغدة" versification - وهو نظم النثر - و"الحل" - وهو نشر فنظم - و"التمسيح" allusion - أي الإشارة إلى مكان أو شخص أو قصة مطومة - والابتداء - أو براعة الاستهلال - والتخلص - الخروج من المقدمة إلى الموضوع - والانتهاء - أو حسن الخاتمة (الهاشمي، ١٩٩٩، ص ٣٢٥-٣٣٣). في ما سبق، لابد أن نضيف المحاكاة الساخرة، أو الباروديا parody - محاكاة نص سابق أو معاصر بغرض المسخريته منه، أو من مؤلفه، أو من سياق، أو من بعض ما يتناول النص الجديد، أو من هؤلاء جميعاً، كما نجد في الشعر "الحلمنتوشي" في مصر مثلاً - والمعارضات والنقائص.

## علاقات بين نصية

(١)

ككل قصة بطبيعة الحال مقدمة، فإذا كانت القصة "موباسيانية" نسبة إلى الكاتب الفرنسي الشهير جى دو موباسان تطرح المقدمة عناصر حدث يتطور ويتعقد لينفجر في الختام. وإن كانت القصة تنحو منحى الحادثة أو ما بعدها فلا ضرر في أن تكون علاقة المقدمة بالخاتمة غير ظاهرة للعين، ولا مانع من نهاية مغلقة ومفتوحة. وفصني؟ لا مقدمة لها سوى خطبة للمؤلفة تفتح فيها باب الكلام، يعطيها مرد الواقعة التي تنتهي بنهاية يمكن ببعض التفاوض وشيء من الحكمة، اعتبرها نهاية سعيدة (رضوى عاشور: تقارير السيدة راء، ٢٠٠١، ص ١٧-١٨).

(٢)

الشاعر المعظم

إبراهيم طوقان (١٩٠٥-١٩٤١)

شوقي يقول وما درى بنصيبتي	فم للمعظم وفيه الشجلا
فقد فديتك هل يكون شجلا	من كان للشراء الضفر خذلا
ويكاد يلقني الأمير بلوكه	كلا المعظم أن يكون رسولا
لوز جرب فتعظيم شوقي ساعة	لقضى الحياة شقوة وخفولا
حسب المعظم غنة وكأبة	مراى الفتقر بكرة وأصلا
منة على منة إذا هي صلحت	وجد العمى نحو العميون سيلا
ولو أن في التصحيح نقعا يرتجى	وليك لم ك بالعقون بخيلا

لكن أصلح غلطة تحويلة	مثلا واخذ كتيب نسيلا
مستنهذا بالقر من قياته	لو بالحديث مفصلا تفصيلا
واغوص في الشغل القديم فالتقي	ما ليس مكتيبا ولا مبثولا
ولقد لبثت سبيونه من الهلى	وتويه من اهل الفرون الاولى
فلرى (حمرا) بغد تلك كله	رفع المصنف إليه والمفغولا
لا تعجبوا ان صحت يوما صيحة	ووفت ما بين الهنوك قسيلا
يا من يريد الانتصار وجدتك	ان المعلم لا يعيش طويلا

النص الأول من قبيل الكتابة عن الكتابة، أو الكتابة الشارحة، يتناول المقدمة والنهاية بوصفهما من مكونات المراد، الأولى قد تكون تقليدية أو حديثة، والثانية مفتوحة أو سبعة. يبقى الانشغال بالكتابة - إضافة إلى الانشغال بالعلم - سمة مهمة من سمات المراد العربي الحديث.

النص الثاني من قبيل الباروديا أو المحاكاة الساخرة - أو المعارضة الشعرية - وفيها سلخر (النص الراهن) ومسخور منه (النص السابق: نص شوقي وسلوك المجتمع المعاصر إزاء المعلم) وموضوع السخرية (قيمة المعلم). ليس المقصود هنا أن الشاعر يسخر من أحمد شوقي أو نصه المشهور عن المعلم، لكنه يرثي فيما باتت أو كانت، ويسخر من انهيار صورة المعلم وقيمه في المجتمع المعاصر.

لما مفتوح شفرة المحاكاة لفريبة ميسورة، ومنها الاقتباس والاحالة في نص شوقي في "شوقي يقول...". وتشابه الوزن والقافية في النص الراهن والنص السابق.

## بين المعلم والمتعلم

من الاطروحات المؤسّسة في تحليل الخطاب ما طوّره سينكلير Sinclair وكولتهدارد Coulthard (١٩٧٥) في دراستهما التفاعلات اللغوية بين المتعلم والمتعلم في الفصول الدراسية. في هذه الدراسة المهمة تمييز بين التفاعل/ التبادل اللغوي/ الكلامي exchange والنقله أو الانتقال move والفعل اللغوي act. فمن الأفعال الكلامية - وهي الوحدات الصغرى ومن أمثلتها السؤال، والامر، والنهاية، والخبر، والنداء، وما إلى ذلك - تتشكل النقلات - وهي النوبات في بعض كتب التراث، وهي في دراسة سينكلير وكولتهدارد استهلال initiation، أو ردّ response، أو تعقيب على الرد feedback - ومن مجموع النقلات يتكوّن التبادل اللغوي. ويرد الاستهلال عادة في صورة سؤال أو طلب أو امر، كما نجد فيما يلي:

• المدرس: يا مريم، ما هي عاصمة الصين؟

• التلميذة: بكين.

• المدرس: أحسنت.

هذا مثل غلبته التبسيط لا الاختزال أو الحصر. في هذا المثل ثلاث نقلات تتكوّن لولاها من قطي كلام: (١) نداء وسؤال، ثمّ (٢) لجابة، ثمّ (٣) تعقيب على الإجابة.

ليس في الثقافة العربية - على قدر علمي - تناول الحوار بين المعلم والمتعلم بهذه الطريقة الوصفية البنائية، غير أنّ فيها ثروة من المقولات والبداهات التي تتدرج تحت لب العالم والمتعلم، ويقلب عليها النصيح والإرشاد، لا الوصف، من قبيل ضرورة التعريض لا التصريح في مقام زجر العالم المتعلم، لما للتصريح من ثلار نفسية وخيمة، ومن قبيل ما ورد في تكرّرة المنامع والمتكلم في لب العالم والمتعلم للتشجيع بدر الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن سعد الله الكندي المتوفى سنة ٧٢٢هـ:

”جرت العادة أن يقول المدرّس عند ختم كل درس: والله أعلم. وكذلك يكتب المفتي بعد كتابة الجواب: لكن الأولى أن يقال قبل ذلك كلام يشعر بختم الدرس كقوله: وهذا نفعه. أو ما بعده يأتي إن شاء الله تعالى، ونحو ذلك ليكون قوله: والله أعلم خلاصاً لفكر الله تعالى، ولقصد معناه، ولهذا ينبغي أن يستفتح كل درس بسم الله الرحمن الرحيم ليكون ذكراً لله تعالى في بدايته وخاتمته“.

## التحليل النقدي للخطاب

"التحليل النقدي للخطاب" هو للفضل ما في الإمكان في ترجمة مصطلح Critical Discourse Analysis، وهو الترجمة الترجمة على كل حال. أما "تحليل الخطاب النقدي" فربما ينجم عنه التباس المصطلح بالنقد الأدبي، لأن المقصود ليس تحليل "خطاب النقد الأدبي" (وهو ما يلعبه النقد الشرح والنظرية النقدية الشارحة). المقصود هنا هو تحليل الخطاب من وجهة نظر نقدية، فهي تحديد وتنفيذ ومساعدة، على معنى أن التحليل النقدي للخطاب لا يتكفى على السياقات اللغوية والنصية المحدودة بل يتجاوزها إلى السياقات الاجتماعية المهيمنة، ولا يتخدد بالمفولات الجاهزة، ولا بما تمارسه الأيديولوجيات من نصية، وتعيم، وخداع، ولا يتوقف عند ما هو كائن، بل يتجاوزها إلى ما يمكن وما ينبغي أن يكون، ويسعى إلى إحداث تغييرات اجتماعية تبدأ من الوعي ولا تنتهي به (هامرسلي Hammersley، ١٩٩٧، ص ٢٣٨).

إذا كان تحليل الخطاب ولغويات النص يضيفان إلى اندولانية بعدا نصيا كليا ويخلصتها من تكلفتها على المفردات والعبارات والجمل والحوارات المنجثة من نصوصها أو المفتحة، فإن التحليل النقدي للخطاب Critical Discourse Analysis (CDA) - وهو ينتمي إلى نفس الاتجاهات الوظيفية في تناول اللغة والخطاب ويتفق معها في رفض السلوكية والبنوية المجردة، وفي الاهتمام بالسياق والمقام والوظيفة والغاية - يخلص هؤلاء جميعا من "قراءة"، ومن تجاهل السياقات الاجتماعية والسياسية، ويضيف تشغالا بما لا بد من الاشتغال به، وهو صراع القوى والإرادات والمعتقدات، وبالتحليل، والاختيال، والقمع والقهر، وتمييز، ودعاية وترويع، و"غسيل المخ"، والتشويه والتجميل في اللغة وبكلفتها. إلى ما سبق، يسمم التحليل النقدي للخطاب بالوعي بالذات وتوجهاتها وتحيزاتها، لأن من يمارسونه هم بشر كالبشر.

لما نسس ومنطلقات التحليل النقدي للخطاب فتشمل اهتمامه بالقضايا الاجتماعية. لأن الخطاب ظاهرة اجتماعية، وتسليمه بأن القوة والهيمنة يتم إنتاجهما وتداولهما أو مناهضتهما باللغة وفي اللغة، وأن اللغة تشكل المجتمع والثقافة كما تتشكل بهما، وأن اللغة أو الخطاب حقيقة تاريخية متغيرة وقيل اجتماعي مؤثر. وأن اللغة تحقق غايات إيديولوجية. وأن هناك ما يتوسط العلاقة بين النص والمجتمع/المعلم الا وهو الوعي أو الإدراك. وأن مهمة تحليل الخطاب لا تقتصر على الشرح والوصف بل تتجاوزهما في التفسير والتأويل (اليركليف ووداك Fairclough and Wodak, ١٩٩٧، ص ٢٧١-٢٨٠). وقد يكتب الاسم الأول في العربية هكذا "فيركلوف" أو "فيركلافت" وقلتي هكذا "ووداك").

من الواضح أن القوة power (ومرافقاتها وبنات عموماتها فسلطة authority وهيمنة hegemony والمسيطرة أو التحكم control) والإيديولوجيا ideology (أو المعتقد، أي كل ما نؤمن به، وندفع عنه من أفكار، وتوجهات، وميول، واتجاهات نحفظ بها لأنفسنا أحياناً، ونحاول فرضها على الآخرين أحياناً) هما في صدارة اهتمام التحليل النقدي للخطاب. درجات ومرافقات القوة التي سبقت مرادها امتلاك ما لا يملك الآخرون، وكلها تشير إلى قدرة على التأثير في سلوك الآخرين وأفعالهم، أو أفكارهم، أو مواقفهم (فان ديك van Dijk, ٢٠٠٧، ص ١١٢)، وهي قدرة تمنحها التباينات الاجتماعية، أو الاقتصادية، ودرجة القرب من مصادر المعرفة والمعلومات، والخبرات المكتسبة، والفروق الجسدية أو الجنسية أو العرقية، ولجادة بعض اللغات المهمة. وكما أن اللغة قوتها وتأثيرها، فللقوة لغتها. على معنى أن اللغة بوسعها أن تؤثر في سلوك البشر، وتوجهاتهم، وأفكارهم - نظراً كيف ينساق البشر وراء الشائعات، والإعلانات، والحملات الدعائية والترويجية، والشعارات، كيف تؤذي الآخرين باللغة، وربما تسيطر مهمهم، وكيف نستعدهم أو نخرجهم من عزلتهم، وكيف نرفع من قدرهم أو نحطّ منها، وكيف نشوئهم أو نجمئهم. كيف نقلل باللغة، بالوشاية، أو التحريض، أو يغار الصدور، كيف نجذب الآخرين أو ننفرهم، نرغبهم أو نرهيبهم. هذه بعض قوة اللغة. وللغة لغتها كذلك -

لأصحاب النفوذ، والعلماء، والخبراء، والمسؤولين، والقادة والرؤساء، ورؤساء الأعمال، والمشاهير والنجوم، وغيرهم. وإذا كانت قوة اللغة *power of language* من تشغلات نظرية فعلال اللغة والبلاغة الكلاسيكية من قبلها. كما يعتقد بول تشيلتون Chilton وكريستينا شيفنر Schaffner (٢٠٠٢، ص ١)، فإن لغة القوة *language of power* من تشغلات تحليل نقدي للخطاب وتحليل الخطاب السياسي من بعده، كما يرد فيما بعد. هذه ليست نهاية قصة القوة، بل مجرد إيجاز يظل جنور المفهوم عند فوكو وغيره، وتطور المفهوم في الدراسات الدولية من برون وجبلمان (١٩٧٢) حتى بلغت التحليل النقدي للخطاب.

لما الأيديولوجيا فهي كل ما نؤمن به، وقد أسهب فلان ديك (١٩٩٥، ص ٢٤٤ - ٢٤٧) في الكلام عنها، وتحديد سماتها، ومنها أنها تتعلق بالآراء وقوعي، لأنها مجموعة من المعتقدات والأفكار تتوسط، كما ورد من قبل، وكما ورد في تحليل الحيل اللغوية العربية وانتهكتها المبدأ التعاوني، بين اللغة والعلم المحيط بها. بين ما نقول وما يقال لنا، وما نفعل وما يفعل بنا، وهي إلى تلك اجتماعية، حيث تميز جماعة عن غيرها، أو فرداً عن غيره في محيط اجتماعي. وربما تتحدد مكانة بعض الأفراد أو الجماعات في مجتمع على أساس ما يؤمنون به. وما ينتمون إليه من اتجاهات فكرية، أو دينية، أو سياسية، وربما يفسد الخلاف في العقيدة أو الأفكار أو أسلوب الحياة - رغم أنف القول للماثور - كل قضايا فرد بين الأفراد أو الجماعات، وربما تنجم عنه حروب، وثورات، وعداوات، وربما لا يتجاوز بعض المشكلات والفتن. هكذا تتباين الأيديولوجيات والمعتقدات والخلافات التي تنشأ فيما بينها في سلطوتها وحدتها. ومن سمات ما نؤمن به من أفكار أو معتقدات أن معيار الصواب والخطأ لا تطبق عليها بنفس الطريقة التي نجد في تحقيق العلوم الطبيعية، وليست كلها من التحقق على كل حال، فكل جماعة ترى فيما نؤمن به عين الصواب: (كُلُّ حزب بما لديهم فرحون) "سورة الروم: ٣٢". تتباين المعتقدات والأيديولوجيات كذلك في عصفها وتعبيدها، من مجرد تفضيل طعام على غيره، أو لون على غيره، أو فريق



كرة قدم على منافسه، إلى الانتماء إلى اتجاه سياسي، أو شعبة، أو ملّة، وتبليغ مواقف البشر مما يؤمنون به، من تمسك يبلغ حدّ التطرف، إلى مجرد انتماء بالاسم أو بالتّسمية.

لا انفصام بين القوّة ومرافقتها وبين الأيديولوجيا، لأنّ بعض الأفكار والمعتقدات تكتسب نفوذاً وقوّة لمجرد ذبوعها وانتشارها وربما لقوّة من يؤمنون بها. على معنى أن بعض المعتقدات تمنح من يؤمنون بها القوّة والسلطة. وبعض ذوي النفوذ والسلطة يمنحون ما يؤمنون به من معتقدات سلّطة ونفوذاً. ومن يملكون القوّة والنفوذ هم بحكم العادة الأقدر على تكريس معتقداتهم، ونشرها والدفاع عنها، وإضفاء الشرعية والعقلانيّة عليها، وإقناع الآخرين بها، والأقرب على تشويه ما لا يؤمنون به من معتقدات، وما لا ينتمون إليه من توجّهات أو لحزاب، وأسئلتهم في ذلك شتى، ومن أكثرها نجاعة وتأثيراً اللغة. وبالتالي يستطيع المجهولون أن يقاوموا القهر والمهملشون أن يقتربوا من المتن، ولو بمجرد الخروج عن الصمت. وسوف نعود إلى أفوات ترسيخ المعتقدات والأفكار وترويجها وإضفاء الشرعية والعقلانيّة عليها أو مقاومة كل ذلك لاحقاً.

لا حصر لموضوعات التحليل النقدي للخطاب أو مجالاته. فطالما كانت هناك قوّة أو سلّطة (تعرضها أو تكرسها أو نقاومها)، أو أيديولوجيا (فكرة، أو عقيدة، أو ميل، أو نوع، أو موقف، أو توجّه، أو انتماء، أو هوى)، كان التحليل النقدي للخطاب صالحاً للتطبيق، وطالما كانت هناك لغة أو خطاب (حوار، أو مناجاة، أو قصّة، أو قصيدة، أو مسرحية، أو تقرير إخباري، أو خطاب سياسي، أو إعلان تجاري، أو أغنية، إلى ما لا نهاية)، فهناك قوّة وإيديولوجيا أو عقيدة. غير أنّ بعض الموضوعات والمجالات حظيت باهتمام خاص من ممارسي التحليل النقدي للخطاب، وهي الصراع والتوتر بين الجنسين gender encounters، والخطاب الإعلامي media discourse، والخطاب السياسي political discourse، وخطاب العنصرية racism (ومناهضتها أو إنكارها)، ولغة البرلمانات parliamentary discourse.

أصوات التحليل

النقدي للخطاب فلا

تختلف كثيراً عن

أصوات تحليل الخطاب

التفكيدي ومسائل

الاتجاهات الوظيفية.

لأن ما يميز التحليل

النقدي للخطاب من

غيره من طرق

التحليل ليس ما

يستخدم من أدوات،

ولا حتى ما يقارب

من موضوعات أو

مجالات، بل الزاوية

التي يتناول من

خلالها تلك الأدوات

والموضوعات.

نقرأ مثلاً (والأمثلة

من العراق بعد

احتلالها وبعد سقوط

صدام حسين على يد

الولايات المتحدة

وحققها في العقد

الأول من الألفية

الميلادية الثالثة):

## في نقد التحليل النقدي للخطاب

هناك الكثير مما يلحظه نقد التحليل النقدي للخطاب عليه، من منطلق اختلافات لاسية بين المدارس اللغوية المختلفة - السلوكية والتوليدية وغيرهما - أو تسياساً على بعض الممارسات غير الناضجة في هذا الاتجاه، مما يؤخذ على بعض ممارسات التحليل النقدي للخطاب الاحتمار في الجوانب اللغوية من الخطاب على حساب ما يحيط به من سياقات ثقافية، واجتماعية، وسياسية. يؤخذ على تلك الممارسات كذلك إهمالها الأبعاد التاريخية، وتغير اللغة، ودلالاتها، ووظائفها من عصر في عصر. في كتابات فرسخين من أصحاب هذا الاتجاه، من أمثال فنز ديك وويل تشيلتون وجركلف وروث وودك Wodak، ما يحض هذه الاهتمامات، وفيها ما يحض الاهتمام بأن التحليل النقدي للخطاب ينطلق من تحيزات أيديولوجية، ويصد في ما ينبت تلك التحيزات، على معنى أنه يبدأ بفروض وفكر جاهزة، ولا يرى في النصوص إلا ما ينبت تلك الأفكار والفروض. عدد لا بأس به من دراسات تحليل الخطاب التي لم تبلغ مرحلة النضج هنا وهناك يقع في مكر هذه المزالق. لكن تحليل الخطاب لا ينبغي أن يحكم على أساس هذه الدراسات. ولعلنا نضيف إلى ما سبق، عند تطبيق التحليل النقدي للخطاب في بيئة عربية، مزالق اليقين غير المبرر، والجزم، وتراكم الدراسات والمراجع دون ربط، أو تفسير، أو تبرير، أو تفنيد، تحت عنوان "الدراسات السابقة"، والتكرار، والتسليم بالفكرات والمقولات الكبرى دون مراجعة، ودون وعي بالفرق الجوهرية بين السياقات الاجتماعية والثقافية التي تطورت فيها تلك النظريات، والسياسات الجديدة التي تتغلل إليها، و"التطبيق" على حساب التفسير. ناهيك عن التنظير، والبحث عن مصطلحات عربية أو تحتها قاذور الأمر. إضافة إلى كل ذلك، لا ننسى التعتيم، وتجنب الموضوعات التي من شأنها أن تستفز الرقابة، والرقباء - وما كثرها. من الدراسات والمراجع في نقد التحليل النقدي للخطاب، على سبيل التمثيل لا الحصر: ويدوسون Widdowson (١٩٩٥، ٢٠٠٤) وهامرسلي Hammersley (١٩٩٧) وبلومايرت Blommaert وبولكاين Bulcaen (٢٠٠٠)

"عشرات العرفيين قتلوا أمس"، أو "قبل عشرات العرفيين بالأمس"، أو "تلقى عشرات العرفيين مصرعهم أمس"، يهتم النحو التقليدي (نحو الكلمة والعبرة والجملة) وراء هذه الجمل بصيغ الجمع - جمع التكمير وجمع المنكر المسم - والاعراب - "ين"، لا "ون"، لأن "للعرفيين" مضاف إليه - والفعل حين يبنى للمجهول، والضمير المستتر، وما هي ذلك. وربما يتناول تحليل الخطاب، إضافة إلى ذلك أو تكميلاً على ذلك، السياق الذي حدث فيه ما حدث، والمشاركين، والصفة الإخبارية أو التقريرية، والمبني والحدث - "هم" المتصلة تعود على "للعرفيين" - والاشارة إلى "أمن" الخبر، لا سيما نحن اليوم، ومقدار ما تشتمل عليه الجمل من صدى، وما تطيح من معلومات، ربما لا تكون شافية أو وافية، وغير ذلك. لذا التحليل النقدي للخطاب فيصنف إلى كل ذلك الكلام عن صراع القوى في العراق. وحول العراق، وبسبب العراق، و"الخطبة" الإعلامية التي تتجاهل الفاعل ولا تلقي بالقامة على أحد، وربما تحوّل الفعل، فعل القتل العمد، إلى مجرد حدث - "تلقى ... مصرعهم".

هذا على سبيل التبسيط، لكن لغة تبسيط مفيد، بقدر من التسلح ومزيد من التبسيط نستطيع أن نرى في هذه الأمثال استعادة لما ورد من قبل من تصنيف لوستن مكونات فعل الكلمة إلى صيغة لغوية، ومعنى مقصود، وتأثير مرغوب.

وبقدر من التسلح والتصرف نستطيع أن نتخذ من هذا التبسيط مدخلاً إلى أبعاد التحليل النقدي للخطاب الثلاثة التي حذاها فيركلف (١٩٩٥، ص ٢) وهي:

١) الخطاب بوصفه لغة - مكتوبة، أو منطوقة: حروف، وأصوات، ومطردات، وعبارات، وجمل، وتركيب، وقواعد نحوية.

٢) الخطاب بوصفه ممارسة بلاغية - ظروف إنتاج الخطاب، وظروف تلقيه، وسياقه، وغايته البلاغية، وطرائق تنظيمه وتداوله.

٣) الخطاب بوصفه فعلاً اجتماعياً - علاقة الخطاب بما يحيط به من قوى فاعلة، وتكنولوجيا مؤثرة، وتأثيرها فيه وتأثيره فيها.

في القتل بين هذه المستويات يستعين التحليل النقدي للخطاب بنفس الأموات والآليات التي يستعين بها تحليل الخطاب التقليدي، وغيره من الاتجاهات الوظيفية. مع تكيده على استكشاف تجليات القوة والمسلطة والأيدولوجيا في النصوص - تحريرية وشفهية.

من الأموات التي يستخدمها التحليل النقدي للخطاب والجواب التي يركز عليها:

#### § القضي / transitivity :

من الفاعل؟ ومن يقع عليه فعل الفاعل؟ من المجازي؟ ومن الضحية؟ وهل يختلص أي من هؤلاء جراء خوف الكاتب أو المتكلم، أو تحيزه؟

#### § درجات اليقين certainty :

ليقين قرين المسلطة، وقرين المطلق، وربما يكون قرين الجهل، وضيق الأفق، أو غلبة الهوى على العقل، والشك doubt - الشك أول العلم، والطريق إلى اليقين، وهو قرين التواضع، أو الضعف والقمع، وربما يكون قرين الحكمة والنضج الفكري، والإلزام obligation - من الذي يقول "ينبغي"، "يجب"، و"لا بد"، و"مطلوب"، و"من الضرورة"، و"عليكم أن تفعلوا كذا وكذا"؟ وهل من صلاحية أن يقول ما يقول؟ وغير ذلك من كليات modalities.

#### § الإثبات والنفي Affirmative-Negative :

"الجو صحو"، "لن الجو صحو"، "ليس الجو صحو" وتساؤل Interrogative: "هل الباب مفتوح؟"، "ليكون الباب مفتوحاً؟"، "ليس الباب مفتوحاً؟" والأمر والنهي Imperative: "فتح الباب"، "ينبغي أن تفتح الباب"، "لا تفتح الباب" (غير كلف، ٢٠٠٣، ص ١٦٧-١٦٨، بتصرف).

#### § لختلر المفردات lexicalization :

من مفردات درجة أو فصحي، بسيطة أو معقدة، إيجابية أو سلبية، وما بين المفردات من ترالف أو تعارض، وما فيها من تكرار وإسهاب أو إيجاز.

§ الصيغ الاسمية nominalizations والمصدرية :

"مقتل العنات في... لسر"، بدلا من "لقي منات من .... مصرعهم على يد .... في .... لسر". فرسالة واضحة. وما لكثير ما نقرأ من أسماء وصيغ مصدرية توحى بالتحقق في الحديث عن أشياء لا تتحقق، أو لم تتحقق بعد - "زراعة ألف فدان...", و"زيادة المرتبات والأجور"، و"تحرير العراق"، و"إقامة الدولة الفلسطينية"، و"حل مشكلة الشرق الأوسط".

§ الألقاب والصفات labels, adjectives and epithets :

"هجوم فتحاري"، أم "هجوم استشهادي"؟ "المجاهدون" أم "الارهابيون"؟ "مسلمون" أم "المحمديون"؟ الاختيار ليس عفويا، ولا بريئا من الهوى أو الاحترق.

§ الاستعارة metaphor :

استعارة "العصا والجزرة" في معرض وصف علاقة الإدارة الأمريكية ببقية نول العالم مجرد مثل لما يفعل الخطاب، والتشبيه simile، والتشخيص personification، والمجتر المرسل metonymy، والمفارقة والسخرية irony، والمبالغة hyperbole.

§ الافتراض المسبق presupposition، والتضمين implicature، والمعطوم من فلفظ بالضرورة entailment.

§ الإشارة deixis - إلى الأشخاص، والأزمنة، والامكنة، والوظائف، والأموال، وفتلاحم أو فتتفر، والقرب أو البعد، وصيغ المخاطبة address forms، وفنداء vocative - "يا بني"، "يا بهد عمري" - والانتقلت deictic-shift.

§ التجميل euphemism :

في كلام عما لا يستحب الكلام عنه، من مرض، أو موت، أو وظئف بيولوجية - وفتقبيح dysphemism - في تسمية الأشياء القبيحة باسمائها، وفي المسبأ، وفتسئم، وفتلن، وما إلى ذلك.

## § البناء للمجهول : passivization :

ليست "ضرب عمرو زيدا" كـ "ضرب زيد" أو "ضرب لخدم زيداً"، و"ضربت كلاً" ليست كـ "من تقتلون من أبنائنا"، وفي "هذا العالم الكبير المعقد بصراعه القديمة، المضطرب بتناقضاته الحادة، المهدد بين الحين والحين بالحروب المدمرة" (من خطاب الرئيس المصري الراحل أنور السادات أمام الكنيست الإسرائيلي، ١٩٧٧) هروبٌ من تسمية الفاعلين والمسئولين عن معاناة العالم إلى أسماء مفعول ثقيد الجرائم ضد مجهول. وهذا ما يلغى الفعل "حل" بمعنى "وَقَعَ" أو "حَلَّتْ"، والمبني للمجهول "سُحِلَّتْ" في "يوم حلت عليها غارات الغزو العثماني، وسُحِلَّتْ من حولها لستار جهل تعوق تقدمها وتمنعها من الوصول إلى عصر النهضة في نفس الوقت الذي بدأ فيه عصر النهضة في أوروبا" (من خطاب الرئيس المصري الراحل جمال عبد الناصر، بمناسبة الوحدة بين مصر وسوريا، ١٩٥٨).

## § ما ورد من قبل من لفعال اللفة :

من يخبر؟ ومن يلزم؟ ومن ينهي؟ ومن يحكم، ومن يهتد؟ على سبيل التمثيل، وقواعد المبدأ التعاوني، وقواعد الكياسة والتأدب.

بعض ما سبق مما لا ترد له أمثلة سبق الكلام عنه في هذا التبسيط وبعضه سيرد لاحقاً. حتى حروف الجر تستطيع أن تحدث فروقاً جوهرية - هل "الحرب في العراق"، و"الحرب على العراق"، و"الحرب مع العراق" تحمل جميعها نفس الرسالة؟ الإجابة بالنفي على سبيل اليقين لا الظن، لأن الأولى لا تلقى بقلامة على أحد، وثانية تضع العراق موقع الضحية أو المذنب الذي يستحق العقوبة، وثالثة تبرئ المعتدي من العولن، وتضع طرفي الصراع على قدم المساواة، وكلن كلا منهما يتحمل نفس القدر من المسؤولية عن الحرب، ويمتلك نفس القدرات والأسلحة وتفوز، فلا داعي للتعاطف مع أي منهما.

ومن قوت التحليل النقدي للخطاب التي شاع استخدامها وانتقلت إلى تحليل الخطاب السياسي ما أطلق عليه فلان ديك (٢٠٠٧ ب، ص ١٣٠) مصطلح "المربع الأيديولوجي" ideological square، أو تجميـل والتشويه، وتهويل وتهوين، وشهير ببساطة في استخدام كل ما سبق من قوت في تجميـل كل ما لنا ومن معنا، وتشويه كل ما نغرينا ومن علينا أو ضنا.

لتحقيق ذلك، يعد المتكلم أو يكتب إلى التهويل وتهوين، بمعنى تضخيم حسناته وسينات غيره، وتهوين سيناته وحسنات غيره:

§ تعزيز صفاته وأفعاله الإيجابية وتكبيدها (إنها): تهويل (كل ما هو) إيجابي (عندي أنا أو عندنا نحن).

## ترجمة المربع الأيديولوجي

"وبالرغم من كونها ليست بالمقصفة ولا المركبة، فإن هذه القائمة الموجزة للمستويات والبنى الخطبية توفر لنا تطباعا أوليا حول كيفية التي يرتبط من خلالها الخطاب وبناء المختلفة ببعض نسوحى الضمنية. لاحظوا أيضا أن الأمانة المعطاة تبين نوع الاستقطاب المجموعتي الذي نعرفه نحن أيضا من خلال الفعل المنضوي تحته، أي ميل مجموعة الإدخال العام للفضيل استراتيجية تمثل النفس الإيجابي من جهة، وازدراء مجموعة الخارج أو تمثيل الآخر السلبي من الجهة الأخرى.

وبمضى لفر، يؤكد خطاب الضمري، مع بناء المضوية الدقيقة بالاضافة إلى الصيغ والأفعال، على صفتنا الحسنة وصفاتهم السيئة، ويتجاهل (أو يخفف أو يخفي) صفتنا السيئة وصفاتهم الحسنة. إن المربع الأيديولوجي العلم لا ينطبق على الهيمنة الضمنية فحسب، بل كذلك على استقطاب مجموعة الدخـل-الخارج ضمن الممارسات الاجتماعية والخطاب والفكر" (توين ١، فلان ديك: الخطاب والقوة، ٢٠٠٧، ترجمة سهى مطلوب، غير منشورة، ص ٩٠).

وهذا مثل لفر لترجمات فيها كثير من الجهد والإخلاص، لكن فيها كذلك استسلام للنص الأصلي، ولها كثير من نقل الحرفي الذي لا يراعى الفروق البلاغية بين اللغتين العربية والإنجليزية، ولا يحظى الغاية التي من أجلها يجب أن تكون الترجمة وهي التوصل - توصيل فكرة النص الأصلي في الفرائ في اللغة التي يترجم فيها. ما فدي يضيـه "مربع الأيديولوجي" عند من لم يقرأ النص الأصلي ومن ليس له سابق عهد بكتبت فلان ديك؟ ولماذا لا نستخدم الترجمة لتعبير عربية فصيلة من قبيل "التجميل والتكبيـج"، و"تهويل وتهوين"، و"مدح والذم"؟

§ تعزيز صفات عدوه أو منافسه (الأخر) وأفعاله السلبية وتكيدها: تهويل (كل ما هو سلبي (عندك أنت أو عنده هو أو عندهم هم).

§ التهوين من صفاته وأفعاله السلبية (أنا): تهوين (كل ما هو سلبي (عندي أنا أو عندنا نحن).

§ التهوين من صفات عدوه أو منافسه وأفعاله الإيجابية (الأخر): تهوين (كل ما هو إيجابي (عندك أنت أو عنده هو أو عندهم هم).

# 1

## عن لغة الإعلام واستعارات شتى

يعد كثير من الفضل في تطور التحليل النقدي للخطاب، وتحليل الخطاب السياسي من بعده، في جورج أورويل Orwell، وما طرح من أفكار، وما نحت من مصطلحات، في مقالاته وروايات منها رواية ١٩٨٤.

من بين هذه المصطلحات يبرز مصطلح doublespeak، وهو كلام ذو لوجهين، أو لزف المفضل، ومن أمثلته تجميل ما هو قبيح، أو ما ينظر الناس من الكلام بصريح عنه لئلا يزعجوا أو يخجلوا خوفاً - "يقضي حلجنة"، "توفاه الله"، "بعافية"، "وعكة"، "معاشرة". أصبح هذا المصطلح مبرراً لعدد كبير من المصطلحات والمفاهيم التي تصف لغة السياسة والإعلام، ومنها مصطلح لغة الإعلام mediaspeak الذي تتولاه فوكس Fox (٢٠٠٠) بالتفصيل، حيث صنف هذه اللغة إلى لغة زائفة مضللة، ولغة تخاطب الحواس sensationspeak، ولغة ترويجية salespeak (إعلانات، وعروض، وهدايا، وتسريعات). وتشمل لغة



الحواس بنورها الكلام عن النجوم والمشاهير celebspeak (خصوصاً مشاهير ونجوم الرياضة، والفن، وحكاياتهم، وأخبارهم، وزيجاتهم، وموضتهم، إلى ما لا نهاية - مع الاعتذار بضيق المكان لنون النسيمة) والكلام عن الكفالت الفضائية والغريبة allenspeak (الحياة على الكوكب الأخرى، والمساحة الفضائية، والانبساط الطفرة)، ولغة الكراهية hatespeak (وما أكثرها وما توفرها في المنتديات، والمدونات، ومقالات الصحف، والرسوم الكاريكاتيرية، وفي الرسائل القصيرة على شاشات التلفزيون، وفي أبراج الحوارية التلفزيونية، خصوصاً بعد الحادي عشر من سبتمبر، وكاترينا، وغزو الكويت، واحتلال العراق، ومباريات الاهلي والزمالك، ونظيراتها في الدول العربية الشقيقة).

### حماسة وصقر

"على أن مقامكما هناك لن يستغرق إلا ريثماً يبحث مختار له عن سكن خاص. ولفظك معي في أنه لا وجه لأن يقيم بيننا بعد الآن. وفي بيت عذراء في جمال زينب. أجل. فيما مضى كنا فرحين لا خوف عليهما من الجوار. ولكن الحماسة تبت ريشها. كما برزت مخالب الصقر. وما أظن أن عثاً واحداً أصبح يصلح لإيوتهما".

(حسن عفيف: زينب، ١٩٢٩، ص ١٩ - ٢٠)

### الإسلام قضاء وصراط

"الإسلام قضاء ذو حدود: هذه الاستعارة إستراتيجية ليس في الخطاب الديني للإمام السلمي فقط، وإنما في الخطاب الديني الإسلامي على وجه الصوم. وتقوم هذه الاستعارة على معرفتنا بالقضاءات المغلقة، كالفرقة، أو الميزة، أو قاعة الدرس. أو السينما". الإسلام طريق وصراط مستقيم: "قصدت مني إليهم إشارة بالنصيحة عن هذا الاعوجاج ومطلبة الرجوع إلى القوم المنهاج". "قامتكم ببعض الكتاب وكفرتم

بعض. واستبدلتم بالرشد غيا، وبالهدي ضلالا. وقوله تعالى: "ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل" (من كتاب بذل المجهود في مخالفة أنصاري واليهود للإمام السلمي في دراسة حرصي. ٢٠٠٠)

## استعارات منها ما ورد في القرآن الكريم

من (لغة اللغة للثعالبي)

"رأس الأمر"، و"رأس المال"، و"وجه النار"، و"عين الماء"، و"حلب شمس"، و"نف جبل"، و"نف الباب"، و"لمن النار"، و"ريق لوزن"، و"يد دهر"، و"جناح طريقي"، و"جناح فذل من الرحمة"، و"كبد السماء"، و"ساق الشجرة"، و"نفقت عصاهم"، و"نفقت نعمتهم"، و"مرؤا بين سمع الأرض وبصرها"، و"فما بينهم القربان"، و"كشفت الحرب عن سقلها"، و"أبدى الشر عن ناجية"، و"حمي فوطيس"، و"دوت رحي الحرب"، و"فتر الصبح عن نواجذ"، و"سل سف الصبح من غد الظلام"، و"عر صبح في فقا الليل"، و"باح الصباح بسرة"، و"ارتفع قهقري"، و"ترخت شمس"، و"رمت الشمس بجمرات الظهيرة"، و"خلفت رايت الظلام"، و"سلب رأس الليل"، و"سبت الشمس جلبابها"، و"قام خطيب الرعد"، و"خفق قلب الهرق"، و"نقطع شريين الضلم"، و"تنفس الربيع"، و"تعطر للنسيم"، و"تبرجت الأرض"، و"قوي سلطان الحر"، و"احمر قاع الصيف"، و"جاشت جيوش الخريف"، و"سابت مغارق الجبل"، و"اشتعل لراس شيبا"، و"يوم عبوس"، و"الآب غذاء الروح"، و"فشيب بكورة الحياة"، و"شيب عنوان الموت"، و"العيال موس المل"، و"النز فلكه لثناء"، و"فوحدة قبر حي"، و"الصبر مفتاح الفرج"، و"الشمس قطيفة المسكين"، و"لبس الجوع والخوف"، و"موط عذب"، و"لم الكتاب"، و"لم القرى" (لثعالبي. ٢٥٦- ٢٥٧).

## استعارات (سياسية واقتصادية ورياضية... إلخ) معاصرة

من الأهرام، والمصريون، والمصري قيوم، والخليج،  
والإمارات اليوم، والرياض (٢ يوليو ٢٠٠٨) وغيرها

### (١)

بول "مرفقة"، وبول "شقيقة"، وبول "صديقة"، وبول "معدية" (المجتمع الدولي أسرة)،  
و"محور" قشر، والحرب "على" الإرهاب، و"كبش فداء"، و"بطنة سوداء"، وحصان  
"أسود"، ورغبة "متوحشة"، و"الراعي" والنساء، و"غزل" الأقاعي، (البشر حيوانات  
عاقلة)، و"الحيتان" الكبيرة، و"الأسماك" الصغيرة، والعزراء و"العقرب"، و"لخطبوط"  
الفصاد، وحكومة "الظل"، ولصوت "محروقة"، و"شراء" الأصوات، و"شاهيندر تجلر"  
مصر، و"القيصر"، و"تفريغ" قانون حماية المناظرة (لقتون وعاء)، و"كعبة شد فحبل"  
بين طهران وواشنطن، و"اللعب" بالنار، و"اللعب" على العقول، و"كعبة" فكرسي  
الموسيقية، و"كعبة" السياسة، و"الدعارة" السياسية، والعهر السياسي (المسألة لعبة  
قذرة)، و"غسيل" المخ، و"هجرة" العقول، و"استنزاف" خزانة الدولة، ومواطنون "ضد  
غلاء"، و"جحيم" الأسعار، و"تدني" الروتب، والأسعار "تلتهم" فريدة في فروتب،  
و"خرق" لقواعد، و"لخرق" الصفوف، ولسلحة "لخداع" فشل، و"خفق" المبادرات  
الشبهة، ويشدد "لخفق" على غرة، و"لجوة" مخصصات الديون، ودون تحميل  
الموازنة لية "أعباء"، و"حسني عبد ربه" من "حق" الإسماعيلي (البشر ممتلكات)،  
ودفع "عجلة" التنمية، ودفع "مسميرة" السلام، والصفين قوة "صاعدة"، و"قتل" نريع  
لأمرقيل، و"تجاج" لحزب الله، و"مراكلة" إستراتيجية، و"لفصل" بين شركتين، و"شد  
وجنب" بين الشركاء، و"تمونامي" الشكعات، و"عبد جلاء" للمدرسين الخصوصيين  
عن بيته، و"موجة" من اللاجئين، و"غلين" في شوارع العاصمة، و"لنمركيون" لسط  
شعوب العالم، وزيمبابوي الأكثر "تعاسة"، و"حققتب" وزريرة جديدة، و"بنك"

المعلومات، و"صدام" الحضارات، وثقافة الاحتلال لم "تستقر" بعد. و"يحيى" الأمل في الوصول إلى حل، و"بزوغ" فجر العسكرية المصرية، وفلاحين الأسبان الجدد (فريق كرة القدم للفوز ببطولة أمم أوروبا ٢٠٠٨).

## (٢)

"معركة" الهبوط، و"شبح" الحرب والانتفاضة (الامة جسد)، و"هبة" الدولة، ورب الصدع، و"نبوة" رؤية يفرقية، و"لقوا هبة" (لاعب يريد ترك لعبه)، و"كيل" الاحتلال، و"تشنين" / إطلاق مشروع، و"شمن" الحرية، و"هوى" الاستعمار، والحقيقة "العنصرية"، و"شجرة" / "بنز" الحرمان، وبيت من "كلم"، والصحة "تفحص" الحالة في بلادها، و"ترسيخ" الصل للعربي المشترك، والحضارة "فعل" الذي "يناهض" لهجبة، و"علل" المجتمع و"قناة" (المشكلات الاجتماعية أمراض)، وكلام "حلو"، وكلام "نذير"، وكلام "مصول"، وكلام "جرح" (الكلام طعام وشرب وسلاح)، ومنفعة "لامعة"، و"تجم" متلقى، و"كوكب" الشرق، و"يحيى" مؤامرة، و"ينمخ" قصة من الخيال، و"حرب" كلامية (الجدل والمحاكمة حرب)، و"أعداء" الحكمة، و"نمن" البلاغة، و"جنور" الاستبداد، والقضاء على الفتنة في "مهدا"، و"ملاخ" زمة فداء (القواهر الاجتماعية والثقافية أبنية ونهات وكائنات)، والوطن / اللغة "الأم"، و"حضر" الوطن (الوطن لم)، والأصفاء "المقرنون"، والقراء الزوار لكرم، ومحضر "الضيف" (الموقع والمنشورات بيوت)، وليام "سوداء" لو "بيضاء"، ومستقبل "مظلم" لو "مشرق"، ويدير "لغة" الأمور، و"رئان" سفينتا (الحياة سفينة)، و"رحلة" لنسيان، و"رحلة" الحب، والحياة "رحلة" (الحياة رحلة)، وفي "ظلال" القرن / السنة، و"ظلام" الجهل، و"تور" المعرفة، ويوم "حلو" ويوم "مر"، وليامنا "الحلوة"، و"جزة" سريعة / قصيرة، والزمن "يجري"، والأيام "تمر"، و"لوحة فنية" رقة (مجموعة من البشر يصلون معا)، والعيون "توافد" الروح، و"كلام" العيون. وله نيك "بيضاء" على تلاميذه.

ويمد "بذ" العون، والام "مدرسة"، و"سيمفونية" راقعة (عن أداء جماعي)، و"عزف" منفرد (عن مهمة فردية)، و"فيروسات" و"قراصنة" (في عالم الكمبيوتر والإنترنت)، وقصبة الرنيمية (في أصلها الغربي homepage)، و"تكل" طبقة الوسطى، و"تلر" الغيرة، و"بركان" الغضب (المشاعر نيران)، و"بحر" الحياة موجه عال، و"بر" الامن (الحياة بحر)، و"الزواج" بين الولايات المتحدة وبيرون وبين الولايات المتحدة ودول اخرى (العلاقات بين الدول كالعلاقة بين زوج زوجة، الدول بشر).

## تحليل الخطاب السياسي

إن السياسة بمعنى التأثير والتوجيه والتمويه والخداع والتفويض مثثة في كل زمان ومكان، من هنا يأتي تأكيد التحليل النقدي للخطاب على تناول علاقات القوة والهيمنة، وتحليلات الأيديولوجيا في كل أنواع النصوص - في خطاب الأبناء والأبناء، والقضاة والمتهمين، والأطباء والمرضى، والمدرسين والطلاب أو التلاميذ، ورجل الشرطة وقواطن "العادي"، والعالم والمتعلم، والشيوخ والمريد، والمُستحق والمُستحق، وقراعي الرعية، وأرباب الأعمال ومديرها بموظفيهم، من يملكون ومن لا يملكون، من يطمون ومن لا يطمون - إذا كانوا يطمون أنهم لا يطمون.

وليس من بين أنواع الخطاب ما تتجلى فيه الهيمنة والقوة ومحاولات التأثير أكثر من الخطاب السياسي بمعنى الخاطب المُحد الذي يتعلق بأمر الحكم والسياسة. ولهذا السبب استقر الخطاب السياسي دون غيره من مجالات التحليل النقدي للخطاب، وما زال يستقر، باهتمام متزايد حتى تطوّر في دراسته اتجاه مهم هو تحليل الخطاب السياسي *Political Discourse Analysis*، الذي ينطلق من مقولات ومفاهيم التحليل النقدي للخطاب، ومن ثمّ ما تأسس عليه من اتجاهات ومفاهيم، ويركّز على لغة السياسة والسياسة، في خطبهم وحواراتهم ومكتسباتهم وقراراتهم ومؤتمراتهم ونصريحاتهم، وعلى وظائف الخطاب السياسي، وغايته، ودوافعه في تحقيق هذه الغايات.

في أبحاث تحليل الخطاب السياسي، التي تتراكم وتزداد تضجاً وتعقيداً يوماً بعد يوم - وتحديداً في دراسة تشيلتون وشيفنر (١٩٩٧) المهمة عن الخطاب والسياسة - ريع وظائف يسعى الخطاب السياسي إلى تحقيقها - ليست مقصورة عليه، لكنها تتجلى فيه بشكل لافت، وهي:

(أ) القمع والقمع coercion - من خلال فرض القوانين والأحكام والعقوبات والتنظيمات. وشنّ الحروب، والتهديد، وفرض الأوامر والتنظيمات وما إليها.

(ب) إضفاء الشرعية أو تجريد الآخرين - الأعداء، والخصوم، والمنافسين. ومن إليهم - منها legitimization/ delegitimation - من خلال تجميل الذات وتقييح الآخر. كما يرد تلمسها في غير هذا الموضع. ومن خلال ادعاء الإحقاق إلى جانب الحق والخير والعدل في مواجهة من ينتهزون في الباطل والشر والظلم.

(ج) المقاومة والمواجهة resistance and opposition - راء الخطاب السائد المهيمن، خصوصاً إذا كان خطاباً شمولياً لا يراعي إمكانية البشر ولا يعدل بينهم. وفي محاولات للتغيير إلى ما هو أفضل. علينا أن نلاحظ هنا أن ما هو هامشي في لحظة تاريخية محدّدة ربما يحتلّ المكان في مرحلة لاحقة. وقد يمارس كل الفرد قبل التي كان ينتقدتها في سابقه.

(د) التضميل dissimulation - من خلال إخفاء بعض التفاصيل أو الحقائق لحساب تفاصيل وحقائق أخرى، أو التركيز على بعض جوانب الواقع دون غيرها تحقيقاً لما سبق من غايات.

يستطيع الخطاب السياسي أن يحقق هذه الغايات من خلال الكفة. ومن قبلت ذلك على سبيل التمثيل لا الحصر - وقد تلقّم تلخيص هذه الآليات في الحديث عن التحليل النقدي للخطاب:

(أ) الاستعارة :

من تلك ما نجد في تعبير الإدارة الأمريكية "hunting down bin Laden" الذي يتحول فيه اسم بن لادن إلى "حيوان" يطارد صيغو الهنتلجون. وقد وردت أمثلة أخرى للاستعارة في متن التفسير وهوامشه.

#### (ب) التشبيه :

تشبيه صام حسين بهتلر، والقاعدة بالمافيا، على سبيل المثال. لا يبدو أن التشبيه نفس التأثيرات السياسية والبلاغية التي للاستعارة، ربما لأن أداة التشبيه تلفت النظر وتستفز التساؤل عن حقيقة العلاقة بين طرفي التشبيه.

#### (ج) الافتراض المسبق :

من ذلك سؤال بوش في خطابه عقب الحادي عشر من سبتمبر المشهور **Why do they hate us?** (لماذا يكرهوننا؟) وولو الجماعة تشير إلى المسلمين والعرب و"ما إلى الأمريكان) الذي يفترض مسبقا صحة الاعتقاد بأن العرب والمسلمين يكرهون الولايات المتحدة، وقوله **The enemy of America is not our many Muslim friends** الذي يفترض مسبقا وجود عوٍ يترفع بالأمريكا وأن أمريكا لها كثير من الأصدقاء في العالم الإسلامي.

#### (د) التجميل :

من ذلك التعبير عن الاحتلال بالتهجير، وعن الحرب "على" العراق بالحرب "قسي" العراق. وعن الأخطاء الغيبة بالنيران الصديقة، ومن ذلك أيضا ما امتعاه به "الصخاف" وزير الإعلام العراقي في عهد "صدام حسين من خبره المسلة عن "الانتصارات" العراقية المتعاقبة في "معركة الحواسم" الأخيرة التي ذهب بعدها صدام والصخاف إلى غير رجعة، ومن ذلك التعبير عن الهزيمة بالنكسة، والانسحاب بالترجع، والقتلى والضحايا بالخسائر في الأرواح.

#### (هـ) التقييد :

من ذلك سبل الشتم التي سمعنا من "الصخاف" حين وصف القزاة الأنجلوأمريكيين بـ "فعلوج" ومصاصي الدماء و"جوش الاستعمار" و"عصابة الأوغاد الدولية". (بالإضافة إلى التنقل بين المبني للمعطوم والمبني للمجهول وتحويل الفعل إلى مجرد شياء تقع أو تحدث دون قصد أو دافعية إنسانية).



هكذا، ومن خلال متابعة لغة الحرب على العراق، نستطيع أن نتحقق من توظيف اللغة كسلاح مهم وفعل في تبرير الحرب أو مقاومتها من خلال تجميل الذات وتشويه الآخر. فقد علت الإدارة الأمريكية على تشويه صورة صدام حسين الذي قدم لها كل المساعدات الضرورية من خلال تصرفاته "الطائشة"، من وجهة نظر تلك الإدارة، وعينه بمفكرات شعبه، وقمعه إياه. في نفس الوقت، سعت الإدارة الأمريكية إلى تجميل صورتها، وتهميش كل أخطائها وخطاياها، وإخفاء دوافعها الحقيقية من وراء الحرب - صدام ليس الطاغية الوحيد، وهو ليس كذلك في نظر الجميع، ولم يكن في العراق سلطة نمر شامل، كما أن صدام - من وجهة نظر كثيرين - كاهن لأن صناعة أمريكية. على الجانب الآخر، أبقى حزب البعث على خطبه الذي يفزل مشاعر المسلمين والعرب من خلال التعلق بالستر الكعبة، وبقياء القومية العربية، وحدث الجهاد في سبيل الله، والعرض والشرف والكرامة. في نفس الوقت، بذل الصحف جهدا خارقا في تشويه الغزاة المستعمرين. لكن لغة الحرب العرقية المنهكة أخفقت، وأخفقت كذلك لغة حربها اللغوية. ولعل من أكثر نتائج تلك الحرب أهمية أن العالم قد أصبح أكثر وعيا بتوظيف اللغة كسلاح خداع شغل. لم يكن الأمر من قبيل الاكتشاف، لأن توظيف اللغة كالة للدعاية والحرب قديم قدم الإنسان نفسه، لكن المسألة لم تعد تحتل مزيدا من الانتظار للاهتمام بهذه الوظيفة على مستوى تناول الإعلام والبحث الأكاديمي.

كذلك نستطيع أن نتحقق من خلال مراجعة لغة الحرب على الإرهاب ثم على العراق من توظيف وسائل الدعاية propaganda اللغوية لتحقيق غايات سياسية ورد نكرها أعلاه. من ذلك ما حفل به خطاب الحريين من ألفاظ رنانة، وتعابير برفقة glittering generalities كالديموقراطية، والحرية، والعدالة، في صراعها مع الإرهاب، والديكتاتورية، والظلم، والخوف. حين ننقح النظر، نكتشف أن هذه الكلمات ليست لها نفس الدلالات عند المتحاربين، فما فعله صدام وابن لأن "جهاد في سبيل الله" تحوّل عند بوش إلى "إرهاب"، وما يفعله بوش "حرب على الإرهاب" تحوّل عند مسكر "الأعداء" إلى "إمبريالية"، و"غزو"، و"استعمار".

ومن ذلك خلط الأوراق card-stacking في سبيل التعتيم على الدوافع الحقيقية، فبدلاً من مناقشة الأسباب الحقيقية "لكراهية العرب" أمريكا، رأينا الإدارة الأمريكية تتسبب ذلك في ما تتمتع به الولايات المتحدة من حرية، وحضارة، وعدالة، وما ينقل كاهل العرب من قمع، وقهر، ومحاكم تفتيش، وأحكام عرفية، وطغيان، لم نسمع بوش يتناول تحيزات إدارته، ومكاييلها المتبائنة، وفتنتها المتعددة.

ومن ساليب الدعاية السياسية كذلك الحديث بلسان حل فعلة plain folks، والابهام بأن موقف القيادة ليس إلا تعبيراً عن مشاعر الشعب ورغباته. ومن ذلك أيضاً التصميم والتمتراس للتعبير عن الأغلبية، ليس في الدخول فقط بل في شتى أنحاء العالم، ويرتبط بهذه الوسيلة الدعائية التيقن من النصر band-wagon and inevitable victory - "أنا أعجز عن شعبي، والعالم المتحضر كله معي، وسوف تنتصر! إما أن تكون معنا أو علينا، وإذا قررت ألا تكون معنا، فسوف تكون حتماً من الخاسرين". هكذا تكلم جورج بوش الابن.

ومن وسائل الدعاية التي تابناها في الحربين كذلك التمييز بالانقلاب، والمسب، أو الشتم name calling، وقد وردت فيما سبق أمثلة لذلك في معرض الحديث عن لغة "الصحفا"، لم يقصر جورج بوش من ناحيته، فقد قم على صدمته ولبن لادن بسبل من الانقلاب التي تحمل العامة على كراهيتهما. ولقد أصبح لقب "رهابي" نهمة جاهزة لكل من تمسك له نفسه معاداة الأقوياء، الفللفلسطينيون "رهابيون"، والعراقيون الذين يقومون الاحتلال "إرهابيون"، و"محور الشر axis of evil محور لرهاب، وطغما وردت كلمة "الشر"، فقد انتقل الصراع من تنافس على هيمنة ومعى إلى تحقيق غايات سياسية واقتصادية، إلى صراع بين "الخير" و "الشر". ونحن جميعاً نعرف في أي مصرع نتحاز السماء. هكذا أصبح الدين وسيلة دعائية، وقلة حرب، لم يكن بوش راقداً في توظيف الدين لتحقيق غايات سياسية فقد سبقه في ذلك عند لا بأس به من القادة العرب، وسوف ترد إشارات أخرى في ذلك لاحقاً.

لم تنته القصة بعد، لكن المؤكد أن لغة الخطاب السياسي تحتاج إلى كثير من الاهتمام في علمنا العربي. بوسع البلاغة العربية أن تستوعب ما يستجد من مفاهيم تتطرق بوظائف الخطاب السياسي والدعاية السياسية.

ليس المقصود الإحياز لأن أيًا من الأطراف المعنية في الحروب التي نتحدث عنها لم يقدم للبشرية ما يستحق أن تحمده له أو أن تدافع به عنه (وهذه في ذاتها مقولة منحرفة). لكن المقصود هو الوعي والتنوعية.

## 1

### خصائص الخطاب السياسي

#### تحسين القبيح وتقييح الحسن

من طريف ما تحفل به بلاغة العربية ما كتبه أبو منصور الثعالبي - وهو صاحب بتيمة الدهر وفقه اللغة كذلك - في كتابه تحسين القبيح وتقييح الحسن. وقد جمع فيه ما قيل في تحسين ما تم التعارف على تقيحه، وتقييح ما تلقى الناس على تحسينه. ينكر الثعالبي في القبيح تقييح العلم، والشجاعة، والأب، والقسى، والعلم، والصبر، وغيره. وينكر حصولاً في تحسين الكذب، والفولحة، والذنوب، والمرض، والموت، والجبن، والسجن. على أننا لا ينبغي أن نقع في فخه البلاغي، فهو لا يمدح الكذب إطلاقاً، بل يمدح من الكذب ما يوصل به فرحاً ويتصلح للمتألمين. وهو لا يذم العلم في ذاته، بل يذم منه ما يورد صاحبه موارد التنزق ويلبسه لباس الفرور. يقول الثعالبي في تحسين الفرق وتقييح التناقض: "قل بعض الظرفاء: في الفرق مصالحة للتسليم، ورجاء الأوبة، والسلامة من الملل، وعسرة القلب بالشوق، والآس بالمكثبة! وكتب أبو عبد الله الزنجي الكاتب: جزى الله الفرق عنا خيراً! فبما هو زفرة وعبرة، ثم اعتصم وتوكل، ثم تامل وتوقع.. وفيه الله التلاقي! فبما هو مرة لحظة، ومساءة ليام، وابتهاج ساعة، وكتف زمان' (من موقع لورق).

في ختام تحليله

نصوصاً سياسية مهمة

لجورج بوش وأسماء

بن لادن ومناقشته

تربخ العلاقة بين اللغة

والسياسة وغير ذلك

من جوانب الخطاب

السياسي.

يلخص بول تشيلتون

Chilton (٢٠٠٤):

٢٠١-٢٠٥) سمات هذا

نوع من الخطاب فيما

يلي - مع كثير من

تصرف على سبيل

تبسيط:

(١) يعتمد الخطاب السياسي

على الإشارة - deixis -

بمعناها التوسع الذي سبق

توضيحه - إلى الزمان

والمكان والمكثنة والعلاقة

والسبق.

(٢) يقوم الخطاب السياسي

على التفاعل

Interaction الذي تنبئ

من خلاله الحدود التي تفصل

والروبط التي تجمع، تفصل

الآن عن الآخر وتجمعها

ومن يحلقها أو يشبهها أو

ينتمي إليها، وتتبدى من

خلاله كذلك المكثنة السياسية

والاجتماعية والاقتصادية

والأشور التي ينعها كل

طرف في التفاعل أو حوله.

(٣) يشتمل التفاعل على

نوع من التفويض والتداول،

تداول الواقع، ومراجعة

فرضيته المهمة، ومحاولة

فرض ما تفترض أو تسلم به

نحن على الآخرين.

إضفاء الشرعية وتجريد الآخرين منها

(لأن ليوين van Leeuwen, ٢٠٠٧: ٩٢، بصرف)

في "المربع الأيديولوجي" وفي وظائف الخطاب

السياسي تأكيد على ما يقوم به كل خطاب

أيديولوجي من إضفاء الشرعية على نفسه وتجريد

الآخرين - الخصوم والأعداء والمنفيين والحسد

والنقد - منها، ويستطيع منتج الخطاب أن يحقق

هذه الغاية - التي لا يخلو منها أو من بعض

درجاتها أو قائلها خطاب تمثلي - من خلال:

§ إسباغ السلطة Authorization - من خلال

استلزام الموروث والتقليد والصدات وقوانين

والاستشهاد بأصحاب النفوذ وتقدير تفكفي أو

لفكري أو سياسي، كرجل الدين والرموز

التاريخية.

§ إصدار الأحكام الأخلاقية Moral evaluation:

إصدار أحكام أخلاقية عن الخير والشر والفضيلة

والرذيلة والقيم والصواب والخطأ والحلال والحرام

والعلم والجهل وغير ذلك من ثقيبات.

§ العقلنة Rationalization: إضفاء العقلانية

على مقولة أو قضية أو موقف أو اتجاه، من خلال

الأرقام والاحصائيات والتسلسل المنطقي والاستشهاد

بالمختصين ونوي الخبرة والعلم والمعرفة.

§ الأسطورة والسرود Mythopoesis: حكيك

وقصص - حقيقية أو مؤلفة - مفادها أن كل ما هو

شرعي يحظى بالتهليلات السعيدة وكل ما هو خارج

عن الشرعية ينتهي نهايته لطبيعية - "كس مسلة

مهمات التاريخ" بتعبير جورج بوش في خطابه

عقب الحادي عشر من سبتمبر. لا بد أن ينزوح

"البطل" من "البطل" وأن يلقى القبض على المجرم

الشرير.

(٤) يشتمل الخطاب السياسي على توقع ما يفكر فيه الآخرون والتنبؤ بما سيقول المنطقون وما يؤمن به "الأعداء" ومن ثم تفنيده أو إضعافه أو تشويبه وتبجيحه.  
(٥) يتحقق قدر كبير من التفاعل في الخطاب السياسي بفضل قدرة اللغة على الدلالة على مستويات مختلفة، وقدرتها على التعبير عن الواقع، ثم التعبير عن التعبير عن الواقع.

(٦) يتحقق قدر كبير من التفاعل في الخطاب السياسي بفضل ثراء تعابير اليقين والشك وتعابير الضرورة والالتزام الأخلاقي والديني والاجتماعي - تعابير "فعل" و"لا تفعل" و"يجب" و"ينبغي" و"لا بد" و"علينا".

(٧) يركز الخطاب السياسي إجمالاً على تصنيفات ثنائية متعارضة، وربما متصارعة، بين الحق والباطل، بين الخير والشر، بين العدل والظلم، بين الشرعية وعدم الشرعية، بين الوطنية والخيانة، بين الحرية والقمع. عادة ما يكون صاحب الخطاب في المعسكر الأول وأعداؤه في "محور الشر".

(٨) لمفهوم الأنوار roles أهمية خاصة في الخطاب السياسي. والمقصود هنا هو ما يؤدي المشاركون في الخطاب من وظائف وأنوار اجتماعية أو سياسية أو عسكرية. سواء كانت هذه الأنوار حقيقة أو مفترضة أو مرجوة أو مطلوبة من الآخرين. والعلاقات التي تربط بين من يؤدون هذه الوظائف ويلعبون هذه الأنوار - "الحكم" و"المحكوم" و"الراعي" و"الرعية" و"الرنين" و"الشعب" و"الحكومة" و"المعارضة" و"الجمهوريون" و"الديمقراطيون" و"العزل" و"الفئات" و"أعضاء مجلس الأمة" و"وزراء" وهكذا.

(٩) للنوع بالمكان والمكانة أهمية خاصة في الخطاب السياسي. ومن ذلك ما ينطق بمفهوم "الحدود" و"المياه الإقليمية" و"دول الجوار" و"الشرق" و"الغرب" و"الاحتلال" و"الفرو" والهجرة و"الشمال" و"الجنوب" وما يرتبط بذلك من استعارات وتصورات وحقوق وواجبات.

(١٠) يشتمل الخطاب السياسي على قدر وفير من التفكير الاستعراضي. على مضي أن للاستعارة وظيفة مهمة في صياغة التصورات وتجسيد المفاهيم والأطروحات السياسية. من ذلك ما نجد في استعارة "اصطياد أسامة بن لادن" في هذا الجزء من التبسيط. لا تكفي الاستعارة هنا بتقريب قائد تنظيم القاعدة بل تنتقل من ذلك إلى تجريده من الشرعية ووضعه في مصكر الشر الذي تصبح محاربه الترمز لخلاتها مشروعاً.

(١١) من خلال الوعي بالمكان والتصورات الاستعرارية التي ترتبط به. تتشكل الجماعات والقوميات والشعوب والأقليات والدول والدويلات. ويتشكل كذلك وعيها بمن ينتمي إليها ومن لا ينتمي، وتتبلور الهوية identity السياسية والجغرافية والاقتصادية لتلك التجمعات. وتتبلور مفاهيم "نحن" و"هم"، من "معا" ومن "غيرنا". وقد يقع التبسيط المخل والالتباس بين الهوية الجغرافية وبين الهوية السياسية أو الدينية كما نجد في تصور هنتجتون Huntington صراعاً بين غرب "مسيحي" وشرق "موسم". ليس كل من في الغرب مسيحيين. وليس كل من الشرق الأوسط مسلمين.

(١٢) يبدو أن هناك ارتباطاً من نوع ما بين الخطاب السياسي وبعض المشاعر الإنسانية الغريزية كحب الوطن والغيرة على الدين والحفاظ على الحرمات والمحارم والأماكن المقدسة والنفور من الغرباء والرغبة في الانتماء وحب "الأهل" والأسرة والانتماء إلى دين أو عشيرة. وكلها مشاعر يجيد الخطاب السياسي توظيفها والتعريف على قوتها بما يحقق أغراضه وأهدافه.

(١٣) تكررنا لبعض ما سبق وتأسيساً عليه، تتجاوز الإشارة والتعبير الإشارية مجرد تحديد المكان إلى تحديد للمكانة والدور والعلاقة بين المشاركين في الخطاب، من مجرد الإشارة إلى من أنا ومن أنت ومتى، إلى تأسيس علاقة بين "أنا" وكل ما هو حسن وخير - وبين "عدوي" أو "منافسي" وكل ما هو قبيح وشر - وتحقيق التلاحم بين منتج الخطاب ومن يسعى إلى إرضائهم من نخبيين أو جماهير أو لجان أو هيئات. هكذا تبقى الإشارة بمعناها الرحب سلاحاً مؤثراً في جسد الهويات والانتماءات. درعاً يدفع وسيفاً يقتل، بدأ تضم "نوي القربى" وأخرى تحجب الغرباء.

## في العالم العربي

هناك وعي متزايد في الجامعات العربية بضرورة التحليل النقدي للخطب. وتحليل الخطاب السياسي. نجد هذا في دراسة سهام الفلاح El-Kareh (١٩٨٥) التي تتناول عينة من خطبات جمال عبد الناصر. ودراسة ملك هاشم Hashem (١٩٩٠) التي تتناول صراع القوى في قصة قصيرة. ودراسة أبو خليل Abu Khalil (١٩٩٤) التي تتناول الجهرية في خطبات جمال عبد الناصر وصدام حسين. ودراسة الرشيد Al-Rashid (١٩٩٤) التي تتناول بلاغة الخطاب السياسي في المملكة العربية السعودية في تسعينيات القرن الماضي. ودراستي وجيه Wageih (١٩٩٤، ١٩٩٦) وتتولان التفاوض الاجتماعي والسياسي. ودراستي علا حفظ Hafez (١٩٩٩، ٢٠٠٠) وتتولان أولاهما العلاقة بين الخطاب والقوة. وثانية الخطاب الجماهيري وما فيه من الثغرات وتبادل أدوار. ودراسة الحراصي (٢٠٠٢) التي تتناول الاستعارة المفهومية وتعرض على التحليل النقدي للخطب. مع تطبيقات على بعض خطب الإمام علي كرم الله وجهه. ودراسة رشا خيري Khairy (٢٠٠٠) التي تتناول النحبة وجوانب نحوية ودلالية وتداولية أخرى في لغة فضيحة ووترجست. ودراسات مزبد Mazid (١٩٩٩، ٢٠٠٤، ٢٠٠٧، ب. ٢٠٠٨) وتتول الأولى التحليل النقدي للخطب وتطبيقه في تحليل خطب السادات أمام الكنيسة الإسرائيلية وإعلان الاستقلال الأمريكي وأناس خطابية أخرى. وتتول الثانية كلام الجميل والفصح في خطاب الحرب على العراق. والثالثة التحليل النقدي لخطب الترجمة. والرابعة الافتراضات الممبقة في خطاب للرئيس بوش في أعقاب الحادي عشر سبتمبر. وتتول الخامسة صورة بوش وابن لادن في عينة من النصوص الكاريكاتيرية. ودراسة محمد Muhammad (٢٠٠٤) التي تتناول بالتحليل النقدي عينة من عناوين الصحف العربية والإنجليزية. ودراسة ميديا أحمد Ahmed (٢٠٠٧) التي تتناول بالتحليل النقدي لغة الصحف العربية والإنجليزية.

## في العالم العربي

هناك وعي متزايد في الجامعات العربية بضرورة التحليل النقدي للخطب. وتحليل الخطاب السياسي. نجد هذا في دراسة سهام الفلاح El-Kareh (١٩٨٥) التي تتناول عينة من خطبات جمال عبد الناصر. ودراسة ملك هاشم Hashem (١٩٩٠) التي تتناول صراع القوى في قصة قصيرة. ودراسة أبو خليل Abu Khalil (١٩٩٤) التي تتناول الجهرية في خطبات جمال عبد الناصر وصدام حسين. ودراسة الرشيد Al-Rashid (١٩٩٤) التي تتناول بلاغة الخطاب السياسي في المملكة العربية السعودية في تسعينيات القرن الماضي. ودراستي وجيه Wageih (١٩٩٤، ١٩٩٦) وتتولان التفاوض الاجتماعي والسياسي. ودراستي علا حفظ Hafez (١٩٩٩، ٢٠٠٠) وتتولان أولاهما العلاقة بين الخطاب والقوة. وثانية الخطاب الجماهيري وما فيه من الثغرات وتبادل أدوار. ودراسة الحراصي (٢٠٠٢) التي تتناول الاستعارة المفهومية وتعرض على التحليل النقدي للخطب. مع تطبيقات على بعض خطب الإمام علي كرم الله وجهه. ودراسة رشا خيري Khairy (٢٠٠٠) التي تتناول النحبة وجوانب نحوية ودلالية وتداولية أخرى في لغة فضيحة ووترجيت. ودراسات مزبد Mazid (١٩٩٩، ٢٠٠٤، ٢٠٠٧، ب. ٢٠٠٨) وتتول الأولى التحليل النقدي للخطب وتطبيقه في تحليل خطب السادات أمام الكنيسة الإسرائيلية وإعلان الاستقلال الأمريكي وأناس خطابية أخرى. وتتول الثانية كلام الجميل والفصح في خطاب الحرب على العراق. والثالثة التحليل النقدي لخطب الترجمة. والرابعة الافتراضات الممبقة في خطاب للرئيس بوش في أعقاب الحادي عشر سبتمبر. وتتول الخامسة صورة بوش وابن لادن في عينة من النصوص الكاريكاتيرية. ودراسة محمد Muhammad (٢٠٠٤) التي تتناول بالتحليل النقدي عينة من عناوين الصحف العربية والإنجليزية. ودراسة ميديا أحمد Ahmed (٢٠٠٧) التي تتناول بالتحليل النقدي لغة الصحف العربية والإنجليزية.



ودراسة لحلام الخطابي Khattabi (٢٠٠٨) التي تتناول لتجميل والتقييح والكلام لآزرق المضلل doublespeak في المؤتمرات الصحفية. ودراسة منى سعد Saad (٢٠٠٨) التي تتناول الاستجوابات البرلمانية المصرية من جوتبها النحوية ودلالية وما يتطرق بتنظيم خطاب الاستجواب interpellation بجمالاً. ودراسة برهومة (٢٠٠٨) التي تتناول دور لغة السياسة في تكريس الصور النمطية بين الغرب والشرق، وصراع القيم الحضارية في زمن التغيرات السياسية، وخطاب الاستعلاء الأمريكي وموقف الآخرين إزاءه.

هذا إضافة إلى دراسات مهمة تُعرف بالاتجاهات الوظيفية والتداولية كما نجد في كتب فضل (١٩٩٢) عن بلاغة الخطاب وعلم النص. أما المقالات الصحفية والإلكترونية - على ما فيها مما يعوق الفهم، ناهيك عن الاستماع - ففيها ترجمة بعض أفكار النحو الوظيفي، وأفعال اللغة، والمبدأ التعاوني، والكمية والتكسب، لكنها لم تقرب بعد التحليل النقدي للخطاب، أو تحليل الخطاب السياسي إلا فيما ندر. وتبقى الدراسات الأكاديمية المشتركة إليها محدودة بحدود أرفق مكتبتها، وحنود من يقبلون على مطالعتها باللغة الإنجليزية.

ليس ضعف الاتجاه النقدي والسياسي في الدراسات اللغوية العربية بمستغرب. بالنظر إلى طبيعة الثقافة العربية التي تؤثر سلامة على قدام و"قصادغ". وبالنظر إلى مساحة الحرية الأكاديمية المتاحة للباحثين العرب، هذا بالإضافة إلى سوء فهم "فنلذ" إجمالاً. بحيث يصبح مراتباً للتفتيش عن العيوب، وإلى ضعف الاتجاه النقدي التحليلي في المنظومة التعليمية العربية. هذا إلى ما يسيطر على كثير من "لنوتر" الأكاديمية العربية من قصر "الدراسات اللغوية" على النحو، والصرف، والأصوات، ودلالة، وما إليها، على مستوى المفردات، والعبارات، والجمل، لا النصوص، وكلّ الذين يدرسون تحليل الخطاب، والتداولية، والتحليل النقدي للخطاب يهرون من صرامة النحو والصرف والأصوات وعلم المعنى. حقيقة الأمر أنّ الاتجاهات الوظيفية تتطرق من كلّ ما سبق من مستويات التحليل اللغوي. ولا تتوقف عنده، بل تتجاوزها إلى بنى الكبرى، والغليات، والمقاصد، والنصوص في سياقاتها، واللغة كما "يتداولها" البشر وكما "تتداولهم".

## نصوص وتطبيقات

بعض ما يرد فيما يلي تحليل، وبعضه هو أمثلة على نصوص، وبعضه مسودات تحليل، ولا بد أن نعود فنقول مرة أخرى، قبل النصوص والتطبيقات، إن ما يصدق على النصوص اللغوية يصدق كذلك على النصوص البصرية، ففي الصور استعارات وتشبيهات، وتكرار، وحذف، وجناس، وطباق، وهكذا.

(١)

### دعاء الفرج

"اللهم احرمني بعينك التي لا تنام، واكفني بركك الذي لا يرام، وارحمني بقدرتك علي، فلا أهلك وقت رجائي: كم من نعمة قصت بها علي كل لك بها شكري، وكم من بلية ابتليتني بها قل لها عنك صبري، فها من قل عند نعمته شكري فلم يحرمني، ويا من قل عند ابتلائه صبري فلم يخذلني، ويا من رقي علي الخطيأ فلم يفضحني، ويا ذا النعم التي لا تحصى أهدا ويا ذا المعروف الذي لا ينقطع أهدا أعني علي ديني بنيائي وعلي آخرتي بتقواي، واحفظني فيما غبت عنه، ولا تكنني في نفسي فيما حضرت. يا من لا تضره الذنوب ولا تنقصه المظفرة، اغفر لي ما لا يضرني واعطني ما لا ينقصك، يا وهاب أسالك فرجا قريبا وصبرا جميلا والعافية من جميع البليات وشكر العافية".

### على سبيل التحليل

للدعاء نوع خطابي ديني يتوجه فيه العبد إلى ربه بطلب المظفرة، أو العون، أو الرزق، أو هؤلاء جميعا، أو ما عداهم، ولكن دعاء سبيلته المختلفة فهي تقسّم

بمناسبة دينية، أو حاجة إستراتيجية، أو لحظة حرجة في حياة من يتوجه بالدعاء. يتلصص الدعاء على عقيدة وإيمان بالله أولاً وبقدرته على تحقيق ما يرد في الدعاء. وللدعاء أدب وشروط - هي بمثابة مبررات نجاعته في نظرية فعل الثقة كما تقدم - ومنها الشعور بالافتقار والحاجة إلى الله، والدعاء بما ينفع لا ما يضر. غير أن شرط وأدب الدعاء في الإسلام تتجاوز ما نجد من شروط ومقدمات فعل الثقة كما ورد من قبل.

من هذه الشروط والأدب ما هو اعتقادي روحي، كالأخلاص لله تعالى، واليقين بالإجابة، وحضور القلب، ومنها ما هو سلوكي أو شعاعي، كاستقبال القبلة، وقضوع، والخشوع، والرغبة، والرغبة، وعدم الاستعجال، والدعاء في فرخاء والشدّة، وتحري لوقت الإجابة، والمبادرة باغتنام الأحوال والأمكن التي هي من مطلق إجابة الدعاء، وكثرة الأعمال للصالحه، ورد المظالم مع فتوية، ورفع الأيدي في الدعاء، والوضوء قبل الدعاء إن تيسر، والتقرب إلى الله بكثرة تقوّل. والبعد عن المعاصي، وأن يكون المأكّل والمشرب والملبس وغيرهم من حلال. ومنها ما هو لفظي، كل يبدأ من يدعو بحمد الله والثناء عليه، ثم الصلاة على النبي - صلى الله عليه وسلم - ويختتم بذلك، والجزم، والإلحاح في الدعاء، وألا يسأل إلا الله وحده، وعدم الدعاء على الأهل والمال والولد والنفس، وخفض الصوت بالدعاء بين المخافة والجهر، والاعتراف بالذنوب، والاستغفار منه، والاعتراف بالنعمة، وشكر الله عليها، وعدم تكلف الجمع في الدعاء، والدعاء ثلاثاً، وألا يعتدي في الدعاء، وأن يبدأ داعي بنفسه إذا دعا لغيره، وأن يتوسل إلى الله باسمه الحسنی وصفاته الطي، أو يصل صالح قام به الداعي نفسه، أو بدعاء رجل صالح له (بعض ما ورد في تخيص: الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين: "دعاء". من موقع <http://www.elafco.com>، بتصرف).

هذه الشروط والأدب، ومعظمها يرقى إلى مرتبة المؤمن، لأنها وردت عن الرسول صلى الله عليه وسلم، تفسر كثيراً من خصائص النص الذي بين أيدينا. وتحقيق له

المسك. ومنها تكرار المفردات: "صبري" و"شكري". والبنى النحوية: "أحرمني بحرمك  
 التي لا تتلم"، و"أفغني بركك الذي لا يرد"، و"أفرجا قريباً"، و"صبراً جميلاً"، و"على  
 ديني بنياني"، و"على آخرتي بتقواي"، وتكرار صيغة "فعل" التي لا تفيد الأمر، بل  
 الرجاء والتوسل والاستعطاف، وصيغة لا تفعل التي لا تفيد النهي، بل الدعاء  
 والالتماس، وترد مرة واحدة: "لا تكني". ويحفل الدعاء بكك بالطباق، والتعقيل،  
 والجناس، والسجع: "نعم" و"بلى"، و"غبت" و"حضرت"، و"كل شكري" "أفلم يحرمني"،  
 و"كل صبري" "أفلم يخذلني"، و"تضرر" و"يضر"، و"تفص" و"يفص".

ومن كمال الخضوع لله لأن المتكلم لا يرد في الدعاء إلا مفعولاً به أو لاجله:  
 "أحرمني" و"أفغني" و"أرحمني" و"أنصت بها علي" و"يتيتني" و"يحرمني" و"يخذلني"  
 و"ترقي" و"يلغضني" و"أعني" و"أحفظني" و"لا تكني". في المواضع التي يرد فيها  
 ضمير المخاطب الذي يعود على لفظ الجلالة في موقع المفعول به (لا تضره الذنوب"  
 و"لا تنقصه المغفرة" و"لا يضرنا" و"لا ينقصك") تنفي الأفعال جميعاً. ولا يرد المستكلم  
 في موقع الفاعل إلا في مقام التوسل (أسألك)، أو مجرد التوليد الذي لا يقع قطعه  
 على مفعول به ("غبت" و"حضرت"). لما الألب مع الله فيتجنى في ذكر بعض نعمة،  
 ومغفرته، ونجاوزه عن المعصية: "أفلم يحرمني" و"أفلم يخذلني"، وقشاء عليه عز وجل  
 والإقرار بقدرته: "بعونك التي لا تتلم" و"بركك الذي لا يرد"، ورحمته وكرمه: "إسا ذا  
 نعم، التي لا تحصى أبداً". هذا بالإضافة إلى ما تقدم من صيغ نحوية بلاغية تسجم  
 مع طبيعة العلاقة بين العبد وربّه.

## بلاغة إسلامية

### خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع

تبيها: لا بد أن يؤكد هنا أن التعامل مع خطبة الرسول صلى الله عليه وسلم ليس كتعامل مع سفر التصوف البشرية - وهذا جزء من عبادة المسلم. لا ينبغي أن تتعامل مع النص بهدف تفتيده أو نفيه، بل لتوقوف على ما فيه من سبك وحيك واستعارات وإشارات وغير ذلك مما ورد في متن هذا التبسط. وليس مطلوباً ممن لا يؤمنون بما يؤمن به المسلمون أن يتقنوا مع هذا الموقف.

”إن الحمد لله تامة تحمده وتمتغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهتد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله. أوصيكم عباد الله بتقوى الله، ولتحكم على طاعته، واستفتح بالذي هو خير. أما بعد،

أيها الناس، اسمعوا مني أبلغن لكم، فبني لا أدري لعلني لا ألقاكم بعد علمي هذا في موافقي هذا. أيها الناس، إن دماكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا هل بلغت، اللهم شهاد. فمن كنت عبده أمة فليؤدها إلى الذي أتمنه عليها، وإن ربا الجاهلية موضوع. وإن لوك ربا أبداً به ربا عني العباس بن عبد المطلب، وإن دماء الجاهلية موضوعة. وإن أول دم أبداً به دم عمر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وإن مائر الجاهلية موضوعة غير الصدقة والسفينة. والعنق قود، وشبه العدد ما قتل بالحصا والحجر، ففيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

أيها الناس، إن الشيطان قد يئمن أن يعبد في أرضكم هذه ولكنه رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحفرون من أعمالكم. أيها الناس، إنما الناس زينة في الكفر، يفضل به الذين كفروا، يحلونهم علماً ويحرمونه علماً، ليؤثثوا عدة ما حرم الله، وإن

لزمان قد استدار كهينته يوم خلق الله السموات والأرض. وإن عذة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق. السموات والأرض. منها أربعة حرم. ثلاثة متواليات. وواحد فرد، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم. ورجب الذي بين جمادى وشعبان. ألا هل بلغت، اللهم أشهد.

أيها الناس، إن لنسألكم عليكم حقا، وإن لكم علينا حقا، لكم علينا أن لا يوطئن فرشكم غيركم. ولا يدخلن أحدا تكةونه بيوتكم إلا بفئتمكم. ولا يأتين بفاحشة. فإن فطن فإن الله قد أن لكم أن تفضلوهن وتهجروهن في المضجع وتضربوهن ضربا غير مبرح. فإن اتتهن وأطعنكم فطعنكم ورزقهن وكسوتهن بالمعروف. وما أنساء عندكم عور لا يملكن لأفسهن شيئا، أخذتموهن بأمانة الله. واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيرا. أيها الناس، أما المؤمنون بخوة فلا يحل لامرئ مأل أخيه إلا عن طيب نفسه، ألا هل بلغت، اللهم أشهد.

فلا ترجعوا بعدي كفرا يضرب بعضكم أعناق بعض، فبقي قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا: كتاب الله، ألا هل بلغت، اللهم أشهد.

أيها الناس: إن ربكم واحد، وإن أبلكم واحد، كلكم لأنم، وأقم من تراء، تكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟ قلوا: نعم. قال: فليبلغ الشاهد منكم الغائب.

أيها الناس، إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، ولا يجوز لوارث وصية ولا تجوز وصية، في أكثر من الثلث، والولد للفراش وللعاهر الحجر، من دعى إلى غير أهله، لو تولى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

(العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي، نسخة موقع لوزق، ص ص ١٨٧-١٨٨).

فزمان قد استدار كهينته يوم خلق الله السموات والأرض. وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق. السموات والأرض. منها أربعة حرم. ثلاثة متواترات. وواحد فرد، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم. ورجب الذي بين جمادى وشعبان. ألا هل بلغت، اللهم أشهد.

أيها الناس، إن لنسألكم عليكم حقا، وإن لكم علينا حقا، لكم علينا أن لا يوطئن فرشكم أغراسكم. ولا يدخلن أهدأ تكهونه بيوتكم إلا بفئكم. ولا يقين بفلحشة. فإين فحن فإن الله قد أن لكم أن تفضلوهن وتهجروهن في المضجع وتضربوهن ضربا غير مبرح. فإن انتهين وأطعنكم فلعنكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف. وأما النساء عندكم عور لا يملكن لأفسهن شيئا، أخذتموهن بأمانة الله. واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فأتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيرا. أيها الناس، أما المؤمنون بخوة فلا يحل لامرئ مأل أخيه إلا عن طيب نفسه، ألا هل بلغت، اللهم أشهد.

فلا ترجعوا بعدي كفرا يضرب بعضكم أعناق بعض. فبقي قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا: كتاب الله، ألا هل بلغت، اللهم أشهد.

أيها الناس: إن ربكم واحد، وإن أبلكم واحد، كلكم لأنم. وأقم من تراب. فكرمكم عند الله أتقاكم. ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟ قلوا: نعم. قال: فليبلغ الشاهد منكم الغائب.

أيها الناس، إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، ولا يجوز لوارث وصية ولا تجوز وصية، في أكثر من الثلث، والولد للفراس وللعاقر الحجر، من دعى لى غير لبيه، لو تولى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

( العهد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي، نسخة موقع الوراق، ص ١٨٧-١٨٨).

لزمان قد استدار كهينته يوم خلق الله السموات والأرض. وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق. للسموات والأرض. منها أربعة حرم. ثلاثة متواليات. وواحد فرد، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم. ورجب الذي بين جمادى وشعبان. ألا هل بلغت، اللهم اشهد.

أيها الناس، إن لكم عليكم حقا، وإن لكم عليهن حقا، لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم غيركم. ولا يدخلن أحدا تفرهونه بيوتكم إلا بفئتنكم. ولا يلقين بفلحشة. فإن فعلن فإن الله قد أن لكم أن تفضلوهن وتهجروهن في المضجع وتضربوهن ضربا غير مبرح. فإن اتتهن وأطعنكم فطعنكم ورزقهن وكسوتهن بالمعروف. ولما أنساء عنكم عور لا يملكن لأنفسهن شيئا، أخذتموهن بأمانة الله. واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فأتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيرا. أيها الناس، إنما المؤمنون إخوة فلا يحل لامرئ ما أخيه إلا عن طيب نفسه، ألا هل بلغت، اللهم اشهد. فلا ترجعوا بعدي كفرا يضرب بعضكم أطباق بعض. فبقي قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا: كتب الله، ألا هل بلغت، اللهم اشهد.

أيها الناس: إن ربكم واحد، وإن أبلكم واحد، كلكم لأنتم، وأنتم من رب، تكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟ قلوا: نعم. قلنا: قلوبنا شاهد منكم الغائب.

أيها الناس، إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، ولا يجوز لوارث وصية ولا تجوز وصية، في أكثر من الثلث، والولد للفراش وللعاهر الحجر، من دعى إلى غير أبيه، لو تولى غير مواليه، فطليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

(الحق القريد لابن عبد ربه الأنلسي، نسخة موقع لوزق، ص ص ٢٨٧-٢٨٨).



## على سبيل التحليل

هذا نصٌ من النصوص المحورية في الثقافة الإسلامية - خطبة الرسول صلى الله عليه وسلم في لخر عام حجّ فيه قبل انتقاله إلى ربه عز وجل. في النصّ ما في جنس الخطبة من فتحة دينية، واستغفار، وشهادة، ودعاء، وحلل وحرام، وترغيب وترهيب، وشيء من سرد قليل في الحديث عن ربا الجاهلية، وفيها مفردات دينية تتعلّق بالمعتقدات، والعبادات، والقباسات من القرآن الكريم، وفيها أحكام وتعاليم تتناول حرمة الدماء والأشهر الحُرّم، والوصية بالنساء، والمورث، والنسب، والتقوى كعلامة فارقة، والحقوق والواجبات المتبادلة بين الزوج والزوجة، وبين المؤمنين كافة، وتكيد على المساواة بين البشر إلا فيما يميز بعضهم من بعض من تقوى.

سبق النصّ هو مكانه في مكة المكرمة، وزمانه حجة الوداع، والعلاقة بين المتكلم والمتلقّي هي علاقة سماع وطاعة وإقناع، ولعلّ هذا يفسّر ما نرى في النصّ من سلطة إقناع، والتعليم، والأمر والنهي، وهي سلطة إيجابية، نمت من قبيل القمع، أو القهر، أو التلاعب بالعقول، لأنّ غايتها هي صلاح امر المسلمين من خلال طاعة الله عز وجل، وتركيزه للنفس، وتحقيق العدل، وعسرة الأرض.

لما فوات النصّ لتحقيق غاياته البلاغية والتبليغية فستردّ الإشارة إلى بعضها فيما يلي. وقد نظم الكلام عن جنس النصّ وموضوعاته، غير أنّ من تصوير لوقوف على نضجة الخطبة لو إبقاها إلا من خلال ما نجد من نصّ مكتوب، وما نعرف عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وعن سياق للخطبة كما نرى فيما يلي من ملاحظات عبارة على نصّ مهم.

تشتمل الخطبة فتحة دينية تقليدية توارثها الخطباء والدعاة المسلمون عن الرسول صلى الله عليه وسلم، حتى أصبحت قلباً خطيبياً قديراً، وفيها الحمد والاستغفار، بما يرسّخ الانتماء إلى الله، وفيها القسمة الخالدة بين المهتدين والضالين، والمسهلّتين

بما يرتخ الانتماء إلى الإسلام، ثم النصيحة بتقوى الله وطاعته. يلي ذلك لفت انتباه المتلقي من خلال النداء "أيها الناس"، والأمر "اسمعوا مني". وتجنب غلبة غايات الخطاب - "ليبين لكم" - وتبرير أهميته - "لعلني لا ألقاكم". ثم ترد مجموعة من التعبيرات الإشارية المهمة يتركز فيها اسم الإشارة "هذا" للتقريب، فيحيل في وقت حج رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإشارة إلى المستقبل على سبيل القطن "لعلني لا ألقاكم...". تكتسب التعبيرات الإشارية دلالتها هنا من معرفة المتلقي ما تشير إليه والأرضية الاعتقادية التي يقف عليها خلف الرسول صلى الله عليه وسلم، وهي حرمة ما ورد في الخطبة، حرمة الزمان والمكان المشترك بينهما.

وفي النص من فتوازي التركيب ما يوحى بتبادل الحقوق وفواجبات في "كم عليهن" و"لكن عليكم"، وكثير من التكرار كما في "ألا هل بلغت...؟" للتحقق من بلوغ الرسالة، و"أيها الناس" للتنبيه، وفيه اقتباسات من القرآن الكريم منها "لما التمس زيادة في الكفر" و"إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب خلق السموات والأرض". تحتشد في الخطبة كذلك الجمل التقريرية اليقينية وكيفيات الالتزام من أوامر وفروض وتعليم وتحليل وتحريم، بما يناسب المقام ويناسب علاقة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمسلمين ويناسب أغراض الخطاب وغايته.

في الخطبة ما يبرز الإلحاح على تحقيق غايتها من حيث زمانها قبل وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وموضوعاتها التي لا يصلح بغيرها أمر المسلمين. من هنا كان التكرار وحشد الأحكام والتعاليم والوصايا والاستشهاد بالله وشهادته عز وجل على أداء المهمة في العلاقة التواصلية - علاقة الوحي ثم التبليغ - التي ينطلق منها النص بين المسلمين وخالقهم ورسوله صلى الله عليه وسلم.

## عن الإقناع في البلاغة الإسلامية

كَمَا لَمْ تَتَطَوَّرْ فِي الْبَلَاغَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ نَظَرِيَّةً مُتَكَمِّلَةً فِي الْإِقْنَاعِ؟  
رَبِمَا لِأَنَّ الْوَحْيَ هُوَ مَدَارُ الْإِقْنَاعِ وَهُوَ مَعْيَلُ مَا لِلْكَلَامِ أَوْ الْخُطْبِ مِنْ تَأْثِيرٍ فِي  
تِلْكَ الْبَلَاغَةِ. إِنَّ الرِّسَالَةَ السَّمَاوِيَّةَ، وَهِيَ كَلَامُ اللَّهِ الْمُعْجِزُ، تُحَقِّقُ الْإِقْنَاعَ. لَا مِنْ  
خِلَالِ بَنِيَّةٍ بَلَاغِيَّةٍ إِقْنَاعِيَّةٍ، أَوْ مِنْ خِلَالِ بَلَاغَةٍ خُطْبِيَّةٍ مُتَمَرَّسٍ. بَلْ مِنْ خِلَالِ مَا  
فِيهَا مِنْ كَمَالِ التَّوْحِيدِ وَالْإِسْجَامِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْجَمَلِ. وَذَا لَمْ يَتَحَقَّقِ الْإِقْنَاعُ،  
فَلَيْسَ الْخَلَلُ فِي تِلْكَ الرِّسَالَةِ، بَلْ فِي أَدَاةِ تَلْقِيهَا، أَيْ وَهِيَ الْقُتْبُ، فَالرِّسَالَةُ كَمَا  
نَزَلَتْ فِي أَكْثَرِ أَشْكَالِ الْبَلَاغَةِ كَمَالًا وَكُتْمَالًا. وَنَحْنُ بِهَا قَرْنٌ. وَهُوَ مَا يُشِيرُ  
بُوضُوحًا إِلَى أَنَّ التَّخْصِيرَ عَنْ إِثْرِكَ كَلَامِ اللَّهِ مُرَدُّهُ إِلَى عِزِّ الْفَرْدِ أَوْ لِمَجْمُوعٍ  
عَنِ السَّمْعِ أَوْ زَهْدِهِمَا فِيهِ.

لَنْ الْعِزُّ عَنْ سَمَاعِ كَلَامِ اللَّهِ مِنَ الْعَلَامَاتِ الَّتِي تُمَيِّزُ الشَّيَاطِينَ وَأَهْلَ الْقَارِ مِنْ  
بَشَرٍ: "... لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يُلْقِفُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَذْنَانٌ لَا  
يَسْمَعُونَ بِهَا..." (الأعراف، الآية ١٧٩).

وَغَدَمَا يَسْتَجِيبُ الْبَشَرُ لِكَلَامِ غَيْرِهِمْ أَوْ لِكَلَامِ اللَّهِ، دُونَ سُنِّيَّةٍ أَوْ تَخْصِيرٍ، فَإِنَّ  
فَعْلَ الْاسْتِجَابَةِ يَخْتَصُّ بِهِ السَّمْعُ، عَلَى مَضَى أَنَّ السَّمْعَ أَوْ الْاسْتِمَاعَ لَيْسَ مَجْرَدَ  
اسْتِقْبَالِ سَلْبٍ تَلْقَائِيٍّ، بَلْ هُوَ نَوْعٌ مِنَ الْفَعْلِ: قَا سَمِعَ أَوْ اسْمَعُ، إِذْ قَا فَعْلٌ.  
لِهَذَا السَّبَبِ، لَا تَتَطَلَّبُ الرِّسَالَةُ السَّمَاوِيَّةُ فِي الْعَقِيدَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ خُطْبِيًّا بَلِيغًا، بَلْ  
مُسْتَمْعًا وَاعِيًا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْمَعَ مَا يَصِلُ إِلَيْهِ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ، فَيَبْلَاغُهُ الرِّسَالَةَ  
وَكَمَالَهَا وَإِعْجَازَهَا بِمَا يَسْتَعِصِي عَلَى التَّرْجُمَةِ تَكُنْ فِي ذَاتِهَا لَا فِي بَلَاغَةٍ مِنْ  
يَنْقَلِبُهَا أَوْ يَبْلُغُهَا..." (هيرشكيند Hirschkind، ٢٠٠٦، ص ٥٠).

يُؤَكِّدُ هَذَا الْاِقْتِبَاسُ عَلَى حَقِيقَةِ مَهْمَةٍ، وَهِيَ أَنَّ الْاسْتِمَاعَ فَعْلٌ كَلْكَلَامٍ، وَرَبِمَا  
يَتَجَاوَزُهُ فِي الْأَهَمِيَّةِ فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ. وَهُوَ هَكَذَا خُصُوصًا فِي ثَلَاثَةِ صَوْنِيَّةٍ  
فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجَلِيَّاتِهَا. وَيُشِيرُ الْاِقْتِبَاسُ كَذَلِكَ عِدَّةً مِنَ الْفَضَائِلِ تَتَخَلَّقُ بِالْفُرُوقِ  
الْجَوْهَرِيَّةِ بَيْنَ الْإِقْنَاعِ الَّذِي يَقُومُ عَلَى الْاسْتِشْهَادِ وَالْاِقْتِبَاسِ، وَالْإِقْنَاعِ الْأَرْطَقِيِّ  
الَّذِي يَقُومُ عَلَى الْمَحَاجَةِ وَاسْتِثَارَةِ مَشَاعِرٍ مِنْ قَبْلِ الْخَوْفِ أَوْ الشُّكِّ  
pathos وتقديم الدليل العقلي logos والتأسيس لمصدرية المتكلم ethos.  
لَا يَنْبَغِي أَنْ نَقَعَ فِي أَشْرَاقِ الْقَوْلِيَّةِ الَّتِي تَصَنَّفُ التَّلَقُّغَاتِ فِي عَقْدِيَّةٍ مَعْنَوِيَّةٍ  
وَرُوحِيَّةٍ نَقْلِيَّةٍ، وَتَتَحَلَّزُ إِلَى بَعْضِهَا دُونَ بَعْضٍ، فَتُخْصِي الْوَحْيَ لِحَسَابِ الْعَقْلِ -  
وَكَلَّمَا يَعْجِزُ عَنْ مَخَاطَبَتِهِ - أَوْ تُسَمِّقُ الْعَقْلَ لِحَسَابِ الْقَلْبِ.  
وَهَذَا مَقْلٌ لَا قَبْلَ لِمَقَامِ التَّبَسُّطِ الرَّاهِنِ بِالْإِلْهَادَةِ بِهِ مِنْ جَمِيعِ جَوَابِهِ.

## خطابة سياسية إسلامية

من خطبة لأبي العباس السفاح بالشام

"خطب أبو العباس عبد الله بن محمد علي، لما قتل مروان بن محمد، فقال: ألم تروا الذين بدكوا نعمة الله ككراً ولحلوا قومهم دار البوار، جهنم يصلونها وبئس القرار. نكس بكم يا أهل الشام آل حرب، وأل مروان، يتسفعون بكم الظلم، ويتهوون بكم مداحض الزكقي، يطوون بكم حرم الله وحرم رسوله، ماذا يقول زعماءكم غدا؟ يقولون: ربنا هؤلاء أضلونا فقتلهم عذاباً عظيماً من النار. ماذا يقول الله عز وجل لكل ضيف ولكن لا تعلمون. إنما أئمة المؤمنين، فقد قتلت بكم التوبة، واغفر لكم الذنبة، وبسط لكم الإقالة، وعاد بفضله على أنفسكم، ويحلمه على جهلكم، فليرح روعكم، ولتطمئن به دارككم، ولتعتكلم مصرغ أوطانكم، فتك بيوتهم خوية بما ظلموا" (لقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي، نسخة موقع الوراق، ص ٥٠٨).

### على سبيل التحليل

لا بد أن ينالس تحليل خطاب كهذا على وصف متكلم للمسبق بما يشمل المتكلم، أول الخلفاء العباسيين، والقتل - مروان بن محمد، آخر خلفاء بني أمية - وأهل الشام وأل حرب وأل مروان، وما كان يجمع أو يفرق بين هؤلاء جميعاً، وكذا الحضور الذين توجه إليهم المتكلم بالخطاب، والظروف السياسية والاجتماعية التي نعلقت به. إنما غايت الخطاب فتشمل التوبيخ - "بدكوا نعمة الله ككراً" - ثم الإبلاغ بالظلم - "لما أضلونا فقتلهم عذاباً عظيماً من النار" - ثم التوبة - "لما غفر لكم الذنبة" - "واغفر لكم الإقالة" - "واعتكلم مصرغ أوطانكم" - "ولتطمئن به دارككم" - "ولتعتكلم مصرغ أوطانكم" - وفي الإبلاغ بالظلم جملة أفعال كلامية: قبل توبيخكم وغر زلتكم وقيل عرتكم وتفضل عليكم وقابل جهلكم بحلمه. وفي الانتفاذ والاعتذار مجاهدة ربما لأن الذنب كان عظيماً.

في النص ثلاثة مقدمات من القرن الكريم، لا ترد نقطة أو مقحمة. بل جزءاً من  
 نسجه. وكان المتكلم يريد أن يقول إن الآيات المقترنة قد نزلت في أهل الشام ومن  
 "نكص بهم" من آل حرب وآل مروان: "ألم تر إلى الذين بنكوا نصرة الله كفرة...".  
 "ربما هؤلاء أضلونا فاتهم عذاباً شديداً من النار". "وهلك بيوتهم خوية بما ظلموا".  
 إذا كانت القاعدة التفسيرية الإسلامية تقول إن العبرة بصوم اللفظ وليست بخصوص  
 السبب. فإن ما أراد المتكلم لجمهوره في ذلك السياق هو التسليم بأن ما وقع منهم  
 ومن آل حرب وآل مروان يندرج تحت تبديل "نصرة الله كفرة"، وغير ذلك مما يرد في  
 بقية المقدمات. (ويبدو أن هذه الوسيلة من سمات كثير من الخطب السياسية. فقد  
 شبه بوش صدام بهتلر، وشبه حسن نصر الله إسرائيل بفرعون وحاشيته. كما نجد  
 في خطابه في تطبيق لاحق في هذا التبسيط)

ليس هذا الخطاب الموجز فريداً في باب توظيف التلميح والحكم لقرن الكريم  
 لتحقيق غايات بلاغية سياسية في العالم العربي والإسلامي. حتى الذين لا يطبقون ما  
 فيه من أحكام يلونون به ليضمنوا تعاطف عامة المسلمين. ليست الآيات القرآنية  
 والأحاديث النبوية الشريفة وسيلة من أكثر وسائل الدعاية الانتخابية نجاعة في العالم  
 الإسلامي؟ لقد ظلّ الذين سلاحيهم مؤثراً فعالاً في يد التلميح والحكم بطول العالم  
 العربي الإسلامي وعرضه. في ماضيه وحاضره. يستعملون به القسوة. وربما  
 يتلاعبون بالمعقول. ويضمنون تأييد الرعية. ويجيشون به الجيوش. ويستولون به  
 نصر الله. حتى وهم يتقاتلون فيما بينهم.

وفي نص أبي العباس ثقات لآفة تميز مصكر أمير المؤمنين - حيث الحكمة،  
 والإيمان، والاحتياز إلى جانب الله، والبطولة، والكرم، والفضل، والحزم - من مصكر  
 الخارجين من أهل الشام ومن ضلّهم من آل حرب وآل مروان - حيث نكص العهد،  
 والتمير، والتمسك، والتهور، والاجترار على حرمت الله ورسوله صلى الله عليه  
 وسلم، والتضليل، والضلال، والنقص، والجهل. تتحقق القطيعة أو التفتت في الخطاب  
 من خلال الترافف والمجع بين مفردات الاحراف عن جادة الطريق والخروج على

حكم في "ينسجون" و"ينهورون" و"يطوون" و"اضلون"، ومفردات الضو والفضل والحلم في مصكر أمير المؤمنين، وما بين هاتين المجموعتين من المفردات من تقابل بين "الزلة" و"غفر"، وبين "فضلة" و"تقصم"، وبين "حكمة" و"جهلكم"، وهكذا. ويبقى على من ضلوا وجهلوا أن تعظم مصارع أوتلهم - وفي هذا استعارة فعل بشرى هو الوعظ والتعليم للكلام عن المصارع - فما أشبه قليلة بالبحرحة!

سوف نقل تلك التثنيات سمة جوهريّة من سمات الخطاب السياسي، وليس من غايات تحليل هذا النوع من الخطاب استخلاص أحكام تتحرّ في طرف على حساب غيره. من حق من يدرس الخطاب السياسي أن تكون له تحيزاته وميوله. فهو في نهاية الأمر بشر، لكن ليس من وظائفه أن يقضي بين أطراف صراع. إن غاية التحليل والدراسة في هذا الصدد هي الوقوف على ما في الخطاب من صراع، وجدليات، وطرائق التعبير عنها، ووسائل تبريرها، وما يمزس الخطاب من تجميل وتقييح، وإسباغ شرعيّة على النفس وتجريد المبادئ منها.

### الدعاية في التراث الإسلامي

بلغت برنارد لويس Lewis (٢٠٠٤) للنظر إلى العلاقة الاستثنائية بين مفردات "دعاة" و"الدعوة" و"الدعاية" و"الإذاعة" و"المذعي" و"الدعي" و"الدعاية". حيث ترد جميعها من أصل واحد هو الفعل الثلاثي "د ع و"، غير أنه - وهو المستشرق المشهور - يعرف أن بعض هذه المفردات سلب مستهجن. وبعضها مقبول ويجهي. على أساس ما يتحقّق للمتلقى من خير أو شرّ. وما يصد إليه المتكلم أو يكتب من صدق أو تحامل في الوصول إلى غايته البلاغية. بعد هذا التأسيس، يترجّع المستشرق على مراحل شتى في تاريخ الدعاية في الثقافة الإسلامية، فيتوقف عند الدعاية لبنى العباس في مواجهة بني أمية، وأغراض الفخر والهجاء والمديح في شعر العربي، وفيها ما فيها من دعاية للشاعر وقبيلته، وتشويه للخصوم والمناوئين والمنافسين، وتمجيد من يحظون بالمديح. وهذه فصول مهمّة في البلاغة الغريبة تستلزم وقفات تداولية عميقة مستفيضة.

## من أصداء السيرة الذاتية لنجيب محفوظ

"في صباي مرضت مرضاً لازمني بضعة أشهر. تغير الجو من حولي بصورة مذهلة وتغيرت المعاملة. ولت دنيا الإرهاب، وتلفتني أحضان الرعية والحنان. لمي لا تفارقي ولبي يمر علي في الذهاب والإياب. ولخوتي يقبلون بلهديا لا زجر ولا تعيير بالمسقوط في الامتحانات. ولما تماثلت للشفاء خفت أشد الخوف الرجوع إلى الجحيم. عند ذك خلق بين جوارحي شخص جديد، صممت على الاحتفاظ بجو الحنان والفكراسة. إذا كان الاجتهاد مفتاح السعادة فلأجتهد مهما كلفني ذلك من غناء. وجئت أتب من نجاح إلى نجاح، وأصبح الجميع أصنفني ولحيتي. هيهات أن يفوز مرضى بجمل الذكر مثل مرضي" (نجيب محفوظ: دنين قديم من أصداء السيرة الذاتية، ٢٠٠٦).

## ظروف وأحوال

هذه شذرة مُحكمة بليغة من شذرات أصداء سيرة نجيب محفوظ الذاتية. تتكى الشذرة على الطباق بين حالين والترايف بين عناصر كل من الحالتين، بين "الإرهاب" و"الزجر" و"تعيير بالمسقوط في الامتحانات" و"الجحيم"، من ناحية، و"فرعية" و"حنان" و"لا تفارقي" و"بمر علي" و"لهديا" و"السعادة" و"تنجاح"، من الناحية الأخرى. إشارتان زمنيّتان تلفتان القارئ إلى لحظتين فارقيتين في حياة المستكم في النص - "في صباي" و"عند ذلك". لما الحدث فهو المرض الذي لازمه شهوراً - "مرضت". ما ترأمن مع المرض من سلوك ودود رحيم ورعية وغنية - "تغير الجو من حولي" - أنتجت وعياً وإدراكاً - "خلق بين جوارحي شخص جديد" - وعزماً -

"صنعت على الاحتفاظ بجو الحنان والكرامة" - وخبرة تصبح منهج حياة - "إذا كان الاجتهاد مفتاح السعادة فلأجتهد مهما كلفني ذلك من عناء" - ثم فعلا يجلبها يتكرّر حتى يصبح عادة - "وجعلت أثب من نجاح إلى نجاح".

لقي قصبي صدقة ومحبة هذه المرة أيضا لكن لأسباب مختلفة. في فمريض كان قصبي موضع عطف وشفقة، ولم تكن له يد أو اختيار - بل كان مجرد مريض متبع يقع عليه فعل الرعاية ويحظى بصنوف العطف - "تلففتي"، "لا يفارقني"، "يمر علي"، "يقبلون بالهدايا (عليه)". حين يتخلق الوعي، يصبح قصبي قفرا على اتخاذ القرار، بل على تحقيق النجاح مرة إثر أخرى، في نشاط وحيوية وروادة - "تب". وفي "الوثب" استعارة المسلم الذي يرقى إلى أعلى، أو الطريق الذي يحفل بالصعاب والعقبات، وكناية عن القوة والحيوية. فلماذا لا ينكر المريض بكل الخير إذا كان قد حقق الوعي واستلكت القدرة على الفعل بسببه؟ غير أن المرض لم يكن هو العامل الفاعل، بل كحت الرعية والاهتمام وقد حلا محل "الإرهاب".

لا بد أن اختيار نجيب محفوظ "الشجرة" نواة لأصداء سيرته الذاتية كان مقصودا. والحال هكذا في عموم الخطاب الإنساني حيث يصبح الإطار frame الذي ينقل التجربة والخبرة الإنشائية جزءا مهما منها وأداة مؤثرة في نقلها. لعل محفوظ أراد لخبرته وخلاصة تجربته أن تنتقل إلى المتلقي في نصوص مركزة مكثفة تحفل بالرمز والمجاز وتتعد فيها طبقات المعنى. ومن قلائد كذلك تحوّل العلاقات في هذا النص القصير المحكم من إرهاب وقهر إلى رعية وغاية. ليس هذا كل ما يمكن أن يقال عن فنائير framing أو تحوّل العلاقات والاحيوات والموقف خلال التفاعل اللغوي footing - وهما مفهومان بالغا الأهمية من ميراث رفسنج جوفسان في التحليل النقدي للخطاب، إذ يشير الأول إلى الزاوية التي ينطلق منها الخطاب والإطار الذي يختاره منتجه من جد أو هزل أو سخرية أو غير ذلك. ويشير الثاني إلى تسلك الأحوال والعلاقات أثناء التفاعل اللغوي وما ينجم عن ذلك من تحولات في المفردات والأسلوب وغير ذلك، بل وما تلعب اللغة من دور في تجسيد هذه تبدلات والتحوّلات.



## خطاب الكرة

### إعلام المسيار ومتعب والزمالك!!

عبدالعزیز أبو حمر، المصريون، ٢ يونيو ٢٠٠٨

لم يكن مسئولوا الإسماعيلي فقط هم الذين اخترقوا خربة مصرر المنتخب الوطني قبل المباراة الهامة أمام الكونغو، بل فعل ذلك أيضا عبر الهاتف قناة تكتب في أحد المواقع الجماهيرية الإلكترونية، لتجري عشية اللقاء حوارا قل فيه عبد متعب مهاجم الأهلي كلاما في حق نادي كبير لا يجوز من لاعب بنادي كبير وبالقناعة يفترض فيه لاعب كبير. وإذا صدق ما كتب على لسان متعب من أن الحالة الوحيدة التي يمكن أن ينتقل فيها الزمالك هي أن يصاب بمس من الجتوت وفقدان الوعي، فإن ذلك يشكل إساءة مباشرة للزمالك تضاعف لإساءات كل من هب ودب للقلعة البيضاء في العهد الميمون للضارب بالذئف. ولا أدري ما ذنب الزمالك، وما فائدة هكذا تصريح وماذا سيضيف كلام ونضج بالقهاء للاعب ينتمي للنادي الكبير الذي يجب أن يعاقب لاعبه صغير العقل مثلما يجب على المسؤولين بالمنتخب اتخاذ إجراء ضد متعب على أساس أن هذا الحوار - إن صدق - تم ليلة مباراة الكونغو. ولجمالاً فلن نخول الجنس اللطيف من المشجعات إلى غمار الإعلام الرياضي الإلكتروني الجماهيري يطرح علامات استلهم عديدة. ونكرني حوار المتعب بلشا بتصريح كن الوحيد والأحد لشوقي بلشا عندما كان يجري الاختبارات في نادي ميلدزيرد الإنجليزي الصيف الماضي، وهو التصريح الذي نشر هو الآخر في موقع من المواقع الجماهيرية. وكتبته أيضا فتاة بدرجة مشجعة.. والمعنى أن قبلانيين لم يردا إلا على فتاتين!!! وحتى لا يتهم أحد العبد لله بأنه معادي للأنثوية، فما أضع تحته خطأ هو

التداعيات السلبية المحتملة لتحول المشجعات إلى إعلاميات مسير كحل مؤقت لضمان رد لاعب (روش) في زمن النجومية المطلقة مثل متعب على الهاتف.. والعد فـه يطالب حـمام البدرى مدير الكرة بالأهلى بالتحقيق فى الواقعة أو حتى الاستفسار من لاعبه عن صحة هذه التصريحات القبيـة.. والعـد فـه يطالب حسن شحاته بتفسير حول دلاء لاعب فى المنتخب بتصريحات ضد نادى منفس (مشجعة) عشية لقاء دولى هام ظل فيه اللاعب طيلة ٩٠ دقيقة تائه يبحث عن الكرة بعيدا عن المكان الذى تتواجد فيه الكرة!!.. والحقيقة أن الإعلام الإلكتروني الجماهيري المحسوب على الاندية ليس فقط لذي يفتح أبوابه للمشجعات المسير، فلكثير من اصحاب الاعلام الكبيرة تحولوا كذلك إلى (إعلاميين بدرجة مشجعين) يروجون للتنصب والتغيب، ويقت لا ترى أعينهم إلا لون واحد، فلا كلمة حق ولا منطق ولا بصيرة تحكم ما يقولون. وأصبح الوسط الكروي يقص بمثل هذا النوع الرديء من أصحاب الاعلام الحنجورية التي لم تخلص لسلبيهم الرخيصة إلا مع حفنة من المغيبين.. كفتا الله ويلكم شر أصحاب افلام المشجعين.. المسير والكبر!!

كلمة أخيرة: الخجل فضيلة.. بجهلها اصحاب الأوجه المكشوفة..

### على سبيل التحليل

فى هذه المقالة، عدد لا بأس به من الأخطاء النحوية والإملائية. وقرعيب المركبة التي يجد القارئ تحت بعضها خطوطا، وأهيا لبس بين "الخجل" و"الحياة"، لأن الخجل ليس فضيلة على الإطلاق، بل هو تأخر فى النمو الاجتماعى والنفسى. لكن الغاية هنا ليست التصيد، بل التعليق على بعض جوانب "خطاب لكرة" football discourse وما يتصل به من خطاب إعلامى وجماهيري فى ضوء بعض ما ورد فى التبسيط من مفاهيم ونظريات.

سبق المقالة - التي تأتي في أعقاب مباراة مصر ضد كوتونو في تصفيات المؤهلة إلى كأس العالم في جنوب إفريقيا عام ٢٠١٠ - هو "لوسط الكروي" في مصر. وما يحفل به من صراعات، وتصريحات، وتصريحات مضادة بين نقاد الفرق المتصارعة، ولاعيها، وجماعيها.

من المناسب. ونحن نتناول هذا النص الذي ينتمي إلى خطاب الكرة وما يتصل به من خطابات، أن نتناول السبك والحبك وطرائقهما، والاستعارات المهمة، والتجميل والتفبيح والمربع الأيديولوجي، وتعليق الكيسة والتائب وتلقضهما.

لما السبك فيتحقق باستخدام أنوات الربط وتكرر عدد من المفردات والعبارات - "بعد من" وتكرر "الكرة" على ثقله في "يبحث عن الكرة بعيدا عن الممكن الذي يتواجد فيه الكرة." و"كبير" (مقلا ومنزلة لا سنا) - والجناس - "مقيمين" و"تغيب"، و"يشاء" و"الباشرين" - والطباق - "الخجل" و"لمكتشفة" - والحقول دلالية - "ثنوية" و"روشن" و"مسير"، إضافة إلى المفردات الكروية. والمقالة لا يعوزها حبك، على ما فيها مما يمكن أن نتحفظ عليه، فهي تمهد الطريق بلفت الانتباه إلى "لخترق" - لخترق "حرمة" مصكر المنتخب قبل لقاء دولي مهم. ولخترق اعرف رياضية لخلقية. ثم تروي المقالة ما حدث، وتلجأ إلى التناص بالقباس بعض ما قل اللاعب تحقيقا لقاعدة الصديق وتجنباً لمناعب الاتهامات غير المبررة. بعد السرد يتي التفخيم، أو توضيح موقف الكاتب مما حدث، وهو موقف معارض كاره. وحتى لا يبدو الموقف "شخصيا"، يسوق الكاتب تبريره خطورة ما حدث بينما كان الفريق القومي في "حرمة" يتاهب للقاء دولي مهم في تصفيات كأس العالم، حلم "الأمة" وغيتها الكبرى - وكلها "فتنة" في زمن "حرب". الاختراق وإثارة الفتنة في مثل هذه الظروف جريمة لا ينفي المسكوت عليها - وهي ليست الحالة الوحيدة للفريدة فقد سبقها فنن أخرى مماثلة. من هذا المنطلق، تصبح "مطالب" الكاتب الصحفي منطقية. وهكذا تتحقق لفعل المطالبة مشروعته وربما نجاعته. في النهاية يلاحظ الكاتب أن لوسط الكروي "إجمالا" يشكو من التعصب والاحتياز وما ينجم عنهما من تقييد وعلة وظلم. ثم لدعاء إلى الله أن يكفي الكاتب ومن أزره من القراء شر الأقلام المنحرفة الداعة

## عن خطاب الكرة

من تداعيت الحداثة وما بعدها، وربما من مبرراتهما، تهيئ الحدود بين "فنيخيوي" و"فنيخي" أو الجماهيري، بين المتنون وفهواش، بين المركز والاطراف أو "الضواحي" الثقافية واللغوية - بين اللهجات المحلية واللهجات الرسمية، بين الأغانيات والأغانيات، في غناء "شعبان عبد الرحيم" عن القضية الفلسطينية وزمة "الرسوم الممينة" وغيرها، وفي "استلهام" إحدى أغانيات "أم كنون" في فيلم لـ "محمد سبط"، وهكذا، وفي تدخل الأنواع الأدبية وتثريتها بالحياة المعيشة. غير أن الأمر لم يقف عند هذا الحد، فقد حلت الهواش محل المتنون، وأصبح "الجماهيري" يحظى بالاهتمام والحفاوة والتنظية والمتابعة والتحليل والتطبيق، وتزوى "فنيخيوي" في ركن الحياة وهواشها. قلن مثلاً بين التنظية الإعلامية، والتحليل، والتطبيق، واللقاءات، والمؤتمرات الصحفية، والأغانيات، والشعارات، والمسيرات التي تصاحب مباراة مهمة في كرة القدم أو "حفلة" لمطرب أو مطربة، وبين ما يصلح مؤتمراً علمياً أو مناقشة رسمية أكاديمية.

لم بعد هناك بذل لدراسات الخطاب من أن تعترف بالتحول دون أن تتخلى عن اشتغالها التي تراها مهمة، لأن التحليل النقدي للخطاب ليس نخبوا بطبعه. وفي الاعتراف لا بد أن تبقى تلك الدراسات بعيدة عن إشراك التنصّب والتصنيف والاهتمام، لأن من يهولون وراء الرياضة والفن بشر كالبشر، ميولهم ليست كميوننا، ولا أولوياتهم كنولوياتنا، ولا قيمهم كقيمنا. إذا جاز لمن ينشغل بالثقافة والفكر أن يحتقر من ينشغل أو يشتغل بالفن أو الرياضة وما يتصل بهما، فمن حق أهل الفن والرياضة وما يتصل بهما أن يتهكموا على أهل الفكر والثقافة، ولكل أسبابه وعواقبه وأسلحته، وفي الحرب كل شيء مباح.

الموتورة، ثم الحكمة الختامية عن فضيلة "الخجل" التي لا يعرفها أصحاب "فوجوه المكشوفة".

ها هو الكاتب يقف إلى جانب الفضيلة والخجل، وينحز إلى القيم الدينية، يدفع عن "حرمة" المنتخب قبل اللقاء المهم، ويتحدث بلسان "الحق" و"المنطق" و"الحيصرة" وهو يطلب بمحاسبة من أثار الفتنة. من هذا المكان، يكتب ضد "كل من هب ونب" في "العهد الميمون" "للضارب" "بالدفا"، ضد كلام "تنصح بالفداء"، ولاعب "مغير العقل" - "لمنعب باشا" الذي "أاد" طوال المباراة المذكورة - و"شوقي باشا"، وهما لا يجيبان إلا الفتات، وضد "تصريحات غيبة"، و"إعلاميت مسيلر" و"مشجعت مسيلر"، و"اعلاميين بدرجة مشجعين".

لا يعرفون "الحق" ولا "البصيرة" ولا "المنطق"، لا تصلح لسيبهم إلا مع "لمغيبين". لا يتوقف الكاتب الصحفي عند ثنائية الخير والشر، الحق والباطل، لزواج الشرعي وزواج الممسيلر، وتجميل "الأنا" مع تقبيح "الأخر"، بل يتجاوز ذلك إلى تكريس خطاب الكرة بوصفه "كلاما كبيرا" يليق أن تستعير له "الحرمة" و"الممسيلر" و"التغيب"، وأن تعبر من خلاله عن معتقداتك ومواقفك للفقهية من زواج الممسيلر - ومن الواضح أن الكاتب لا يعتبره زولجا شرعيا، بل مجرد زواج مؤقت لتحقيق غيت نبوية مؤقتة، تشبه استخدام فتات لجذب نجوم الكرة المعروفين "بالروشنة" - مع الاعتذار لمجتمع اللغة العربية - وإقناعهم بإجراء حوار.

ومن نفس المكان، وحتى يتحقق التجميل والتقبيح يصعد الكاتب - "قصدة"، على سبيل التواضع - إضافة إلى ما سبق، إلى تأكيد براسته من معاداة الانثوية - ولطه يقصد feminism - وتأكيد أن ما يقول هو "الحق" و"الحقيقة" فـ "صدق" ما ورد عن اللاعب، في الاتجاه المعاكس، يصعد الكاتب إلى تشويه اللاعب، وإعلام الممسيلر، ونقد التغريب، و"الأقلام الحنجورية"، على سبيل الاستعارة، فلا نجد إلا الحد الأدنى من الكياسة على سبيل المخزية في "العهد الميمون" و"باشا"، والتعظيم وتقدي الصدام في "الضارب بالدفا"، والتكريم في "القلعة البيضاء"، التي تشير على سبيل الاستعارة إلى نادي الزمالك، خصم النادي الأهلي الذي ينتمي إليه اللاعب "منعب".

لقد أصبحت الهوامش والفروع، بل فروع الفروع، تشغل الناس عن الأصول والقضايا التي تستمر بها حياتهم. لن نلحظ بين استقبال رسمي لفريق كرة قدم فتر ببطولة وبين استقبال عالم كبير حصل على جائزة علمية عالمية مرموقة. لأن المقارنة تُفكر عادة على أنها نوع من الحسد والغيرة من قبل المشتغلين بالثقافة. فما مضي أن ينشغل الناس بالغن وبالكرة عن مشكلاتهم الأسرية، وعن أعمالهم ودراساتهم، وتطوير مهاراتهم وقدراتهم، وتنمية ملكاتهم، وعن مشكلاتهم وبناتهم، و"رغيف الخبز" الذي عزّ ونزّر، وانهيار التعليم، وفتش الفساد، وترجع الجامعات العربية في وجه غيرها من جامعات، شرقا وغربا وشمالا وجنوبا؟ من اليسير أن نقع في شرك الخطبة هنا، لكن السؤال مشروع ومطلوب.

ومن ثلاث أن "الفن" و"الكرة" - وقد أصبحت لهما مؤسساتهما، ومنظمتاهما، وقوانينهما، وشراحيهما، ومحلوها، ومؤرخوها، ومنظروها - قد جاوزا مرحلة الهزل أو الهواية والتسوية إلى مرحلة الاحتراف والمهنية. ولعلنا نلاحظ التحول المعتظم في كل الثقافات على نطاقات محلية وعالمية في التعامل مع الفن والرياضة بوصفهما "عبا" لا ترضاه الأسرة "العريقة" أو "حرفا" أو "مضيعة للوقت". إلى أسر وقّع على الأسرة والمحيطين للتكيف معه، ثم إلى مصدر سعادة وأسواق وشهرة، وفي النهاية إلى نماذج يحتذىها الصغار ويحلمون بها، إلى "طريق إلى المجد" وسما من "انجوم" و"الكوكب" وأرض تحفل بها لا حصر له من "اصنام" - وفكلمة ليست لسي، بل من البرنامج الأمريكي الشهير American Idol - تتفوق في شهرتها ونفوذها وتأثيرها وبريقها وثروتها على "اللات" و"العزى" و"هبل" و"مناة"، و"يوت" و"يعوق" و"تسر"، و"فرويديت"، وغيرها ممن سكن جبال الأوليمب، فكيف لا تتفوق على مفكر أو باحث أو مدرّس؟

هناك محاولات للتوفيق أو التوافق ولتضييق المسافات والتقريب بين العتوان والهوامش، ولغرى لرد الاعتبار إلى الهوامش التي كانت متونا وخسرت لبشرية كثيرا جراء تهميشها. نجد ذلك في المبادرات المهمة لتقديم الثقافة "الرفيعة" من نقد

شعر وزلوية وقصة ومسرحية وغيرها عبر قنوات فضائية ومواقع إلكترونية، وفي الجوائز التي أصبحت تمنح للمفكرين والكتاب والمثقفين، وهناك محاولات توفيق، أو تنسيق، نجدها في استخدام بعض - "بعض" - الدعاة أساليب فنية وتمثيلية. وربما غنائية، في خطبهم الديني، ونجدها في تقريبهم وربطهم بأهل الفن والرياضة والإعلام. وهناك محاولات جادة - غير أنها نادرة وليست راجعة - لاستخدام الفن والرياضة لتحقيق غايات "تبليغية" كانت منوطة بفكر أهل الفن والرياضة - كجمع التبرعات والدعوة إلى التعاطف مع "المقهورين" و"المظلومين" في الأرض.

لقد أصبحت كرة القدم محور اشتغال الملايين، وتشجيعهم، وصخبهم، وولعهم، وجنونهم أحياناً، وأصبحت لها صحف ومجلات، ومواقع إلكترونية، وطوّرت خطبها لخاص - "خطاب الكرة" أو "خطاب كرة القدم". في هذا الخطاب استعارات تنتقل من مجال الحرب والصراع والقتال إلى مباريات كرة القدم، وغيرها من أنواع الرياضة، كما نجد في "مصكر"، و"خط الدفاع"، و"الهجوم"، و"التغطية"، و"الاختراق"، و"التسلل"، و"خطة هجوم"، و"خطة دفاع"، و"لكل حصون الخصم"، و"تكتيك مدوية"، و"هتاف"، و"المرمى"، و"الحارس"، و"ضربات" الزلوية و"الجزاء"، وغيرها، والهجوم "قشرس"، و"الدفاع المحكم"، و"الحائط الدفاعي"، و"هجوم خاطف"، و"هجمة مرتدة"، و"تصحر"، و"هزيمة". وهكذا، كما أصبحت كرة القدم تغذي غيرها من الخطب باستعاراتها المحورية، كما نجد في "البطافات الصفراء" و"الحمراء" التي تشهرها الزوجات في وجوه زواجهن في الرسوم الكاريكاتيرية، وغير ذلك من تعبير تتسلل من الكرة إلى العلاقة الزوجية في "مختلف" جوانبها.

كذلك أصبحت الرياضة - خصوصاً كرة القدم - ساحة صراع، وتسلط هويات، وتنافس بين عرقيات وجنسيات. وقد رأينا "كرة" تحمل لأعلام شعوبها من خلال فريق "قومي" و"وطني"، في الاستقلال والانفصال عن الكيانات الكبرى كالإتحاد السوفياتي الذي تحللت أوصاله إلى دول ودويلات، ورأينا أن المباريات بين دول يعنها نظراً لمتنبهة شرسة تحفل بالتوتر على خلفية الانتماءات والصراعات السياسية. بين

قوات المتحدة وإيران، وبين عدد لا بأس به من الدول العربية وجاراتها. ولدينا ونرى كيف يعجز اللاعبون عن انتماءاتهم السياسية والدينية والقومية بما يقولون وبما يحملون من رسوم وشعارات على ملابسهم الرياضية - هذا إضافة إلى الانتماءات "المؤقتة"، "مدفوعة الثمن"، إلى بعض المنتجات والأسماء التجارية. الرياضة اليوم "حياة موازية" تلقى بظلالها الكثيفة على حياتنا. بل تحركها أو توقفها. كما نجد في شوارع مدينة القاهرة أثناء مباراة مهمة بين فريقين كبيرين أو بين مصر ودولة أخرى في مسابقة مهمة، أو في ظروف "كروية" حرجية. بل أصبح الرياضيون والمولعون بالرياضة يطلبون منا أن نتعلم منها لصالح حياتنا. فلماذا لا نلعب في حياتنا بروح الفريق؟ ولماذا لا نتعاون؟ ولماذا لا نتحلى بروح رياضية؟ ولماذا يجب أن نخسر بسبب الأتنية أو فقدان الحماس؟ في اتجاه معكس، يطلب الحكماء من الرياضيين أن يتعلموا من أمجادهم. وبطولاتهم القومية. وإجراتهم الحضارية، وأن "يعدوا" لأنفسهم ما استطاعوا "من قوة". وأن "يجاهدوا" لرفع راية بلادهم. وأن يكونوا في جهادهم "أسرة" ولحدة. وسوف "ينصرهم الله" حتماً.



## نافذة على النافذة

"ولمّا رآها السيد بن تنكس الغرفة مرة أخرى فتحت صامتة لأن الغرفة نظيفة ولأن هذا مجرد عثر لكي يتطلع إلى جسمها الجميل. تفتح النافذة، بعد أن يخرج السيد، تصطحب الهواء الذي يستقبلها بضحكة عذبة، "تطيرين؟" "أطير". بلحذاً إلى مكان تراه فيه الألوان وتومض تحت انعكسات في الجدول حيث الماء نقي وشفاف. النساء تستمع والرجال يطفون ثمار الأشجار والأطفال يمرحون على العشب. نسأل طفلاً: "كلّوه منذ وقت طويل ألا تشع بجوع؟" يضحك الطفل: "عم تتحدثين؟" فنقول له: "سوف تمرض إذا لم تكل". بهز الطفل رأسه: "كنت جوعاً ولم أمرض قط". نقول: "ولكن الموت". يضحك عالياً. نسأله: "كمذا تفتح فمك هكذا وتطلق هذا الصوت الغريب؟" يجيبها بدهشة: "أنا اضحك". ثم يجري بعيداً عنها. نحاول أن نلعل منته. تفتح فمها وتلفح صوتاً ممزقاً من صدرها. "ماذا تظنين؟" تلقى النافذة بسرعة. كان السيد يتأمل ظهرها. "تتبعين كالكلية" (أمين صالح: نافذة، ١٩٧٥).

للقوف على بعض ما يشتمل عليه التحليل الوظيفي من إشكاليات وما يتيح من أفاق دلالية وبلاغية، نطلع جزءاً من قصة قصيرة جداً هي نافذة لأمين صالح. وتحديداً ما فيها من أفعال وأحداث وحالات. مجرد مسودة تحليل، وخطوط عريضة تفنر إلى الشمول والصق:

§ "لمّا رآها السيد": فعل لفظي، يقع (ثبوت) ويشي بسطة السيد عليها ويؤسس علاقة فهو تمتد إلى النهاية.

§ "تنكس الغرفة": فعل مادي، لم يقع بعد. غير أنه لا بد أن يحدث تأسيساً على العلاقة بين الطرفين.

§ "فتحت صامتة": فعل مادي، لا يقع. الاحتجاج فعل مؤثر. إذا وقع، لكنه يبقى هنا مجرد صوت داخلي غير مسموع.

§ "الغرفة نظيفة": كينونة، حالة، تقرير. هكذا ترى الخادمة الغرفة. وعلى هذا الأساس تستنتج ما يلي.

§ "هذا مجرد عذر": كينونة، استنتاج. لما سبق. وربما لسبق عهدها بمسئدتها. وإلا فلماذا اليقين والقصر؟

§ "ينطلع إلى جسمها": فعل ذهني، إدراك، استنتاج أو ملاحظة. لما سبق. وربما لسبق عهدها بمسئدتها.

§ "تفتح النافذة": فعل مادي، يقع (ثبوت). هذه لحظة مهمة، وفعل مادي مؤثر إيجابي مثبت.

§ "يخرج السيد": فعل مادي، يقع (ثبوت). فعل آخر مادي إيجابي يتيح الفرصة لنسب من الحرية.

§ "تصافح الهواء": فعل مادي، يقع (ثبوت). لحظة فطلي إيجابية. هي التي تصافح الهواء. على معنى أنها تملك زمام الفعل.

§ "يستقبلها بضحكة عذبة": سلوكي، يقع (ثبوت). رد فعل إيجابي إزاء فطلتها وتواصلها.

§ "تطيرين": فعل مادي، لا يقع. هذه دعوة من الطفل تقبلها الخادمة على الفور.

§ "تطير": فعل مادي، لا يقع. قبول الدعوة لا يعني أنها الآن تطير.

§ "ياخذها إلى مكان": فعل مادي، يقع (ثبوت). فعل مادي مؤثر وإيجابي يقع على الخادمة بمحض إرادتها.

§ "ترهو فيه الألوان": كينونة، حقيقة؛ "تومض": مادي، يقع (ثبوت)؛ "تحدث تعكست": مادي، يقع (ثبوت)؛ "الماء نقي وشفاف": كينونة، حقيقة. تتلقى الطبيعة في حالاتها وحركاتها تعبيراً عن لحظة الاعتاق والتحرر.

§ "النساء تستحم": مادي، يقع (ثبوت)؛ "الرجال يقطفون ثمار الأشجار": مادي، يقع (ثبوت). ويتناغم البشر مع الطبيعة. ربما يوحي الفعلان "تستحم" و"يقطفون" بتلبية

نداء الشهوة ومن ثم التجدد؛ "الأطفال يمرحون على الضرب": مادي وذهني. يقع (ثبوت).

§ "تسل طفلاً": لفظي، يقع (ثبوت). المرح غريب عليها، من هنا وجب التساؤل. لها طفلة أكثر من الأطفال في وعيها بالمرح والانطلاق.

§ "تلهو منذ وقت طويل": مادي وسلوكي، يقع (ثبوت)؛ ألا تشعر بجوع؟ ذهني، استلهم. افترض. هذه هي حسبتها: إذا طال وقت اللهو. لا بد من الجوع. لكن حسبة الطفل مختلفة، لأن اللهو والمرح إشباع من نوع غير الذي لفنه هي.

§ "يضحك الطفل": سلوكي، يقع (ثبوت)؛ "عم تتحدثين": لفظي. يقع (ثبوت). الاختلاف في الوعي بالجوع والتعب هو الذي يثير الغربة والسؤال.

§ "تقول لـ": لفظي، يقع (ثبوت)؛ "موف تمرض": صيرورة؛ "فأ لم نكل": مادي، سلوكي.

§ "يهر الطفل راساً": مادي، يقع (ثبوت).

§ "لمت جعاً": كينونة، ذهني، حقيقة. "لم امرض قط": صيرورة، حقيقة.

§ "تقول": لفظي، يقع (ثبوت).

§ "يضحك عالياً": سلوكي، يقع (ثبوت).

§ "تسل": لفظي، يقع (ثبوت). في لحظة الاعتق يصبح التساؤل نوعاً من التعرّف في العالم الذي لم تلافه الخادمة.

§ "لماذا تفتح فكوك هكذا": مادي، يقع (ثبوت). السؤال عن شيء ربما تبدو في نظر غيرها بديهيات وأموراً غريزية.

§ "تطلق هذا الصوت الغريب": لفظي، يقع (ثبوت). ليس هذا الصوت موقوفاً لدى الخادمة.

§ "يجيبها بدهشة": لفظي، يقع (ثبوت). لكن الطفل يبقى على تواصله. ويجب عن سؤالها.

§ "أنا اضحك": سلوكي، يقع (ثبوت). ربما لم يجب الطفل عن سؤال كهذا من قبل، ومن هنا تأتي الدهشة.

§ "ثم يجري بعيدا عنها": مادي، يقع (ثبوت). يعود الطفل إلى علمه. لأن علم الخادمة يبدو ضيقا عليه، أو لأن لكل منهما خطته وحيته.

§ "تحاول أن تفعل مثله": مادي، لا يقع. المحاولة لا تعني الفعل. ولكنها فضل من عمه.

§ "تفتح فمها": مادي، يقع (ثبوت). يبدو أنها لم تعرف الضحك من قبل. وها هي تحاول أن تتعلمه.

§ "تدفع صوتا مزقًا من صدرها": مادي، يقع. فعل إيجابي، مع ما في الصوت من ألم ومعاناة.

§ "ماذا تفطين": مادي، يقع (ثبوت). حذف واستكمل. لا استفهام.

§ "تطلق الانفذة بسرعة": مادي، يقع (ثبوت). عودة إلى سجن القهر. ونهاية لحظة التحرر. فعل الإغلاق ينهي ما بدأ عندما فتحت الانفذة.

§ "كن السيد يتلمظ ظهرها": ذهني، يقع (ثبوت). يتلمظ جسمها. لا يتغلكها هي. أي يتلمظها شيئا أو موضوعا، لا بشرا.

§ "تسبحن كالكلبة": لفظي، يقع. (ثبوت) برك. هكذا يراها سيدنا وهذا هو ردُّ فعله تجاه لحظة انطلاقها، وهو يختلف تماما عن ردُّ فعل الطفل والطبيعة. وكان الطلونة والطبيعة هما ما تبقى لها من لحظات بهجة وانطلاق.

لم تكن غاية هاليداي مجرد تصنيف الأفعال وما يرتبط بها من فور، بل الانتقال من ذلك إلى فهم ما تفعل اللغة وهي تصور الواقع وتؤمّن علاقات مع الآخرين ومع نفسها. حين تنتبج الأفعال وما يحيط بها من ظروف وأحوال في قصة الانفذة. نقف على علاقات القوة والقهر التي تصل، بل تفصل، بين السيد والخادمة التي حولها القهر كقنا بدائيا لم يعرف الضحك بعد.

تتجلى علاقة القهر في هذه القصة القصيرة من بديتها - "يلمرها السيد" ... "ينتلع في جسمها" - ولا تكتفي البداية بالإخبار عن محتوى الفعل. بل تشير كذلك إلى لفظة التي ينتمي إليها، وهي لفظة الأمر Directives. والأمر في أصل دلالاته يقصد به طلب فعل الشيء على جهة الاستعلاء، كما لورد رجب (٢٠٠٩) في تناوله لغة طفلة لخرين. وهو في السياق الراهن استعلاء السيد على الخادمة. فما ردُّ الفعل أو أثره، فطاعة مرعّة، واحتجاج "صامت".

هكذا تقع الخادمة تحت قهر السيد من خلال أمره إياها، دونما حاجة حقيقية لما يلزمها به، ومن خلال استلاب عونه جسمها. لا تستطيع الخادمة المقبولة على أمرها أن تفعل شيئاً من تلقاء نفسها - "تلتح النافذة" - أو أن تخرج من حيز قهرها إلا عند خروج السيد. ما يتبع ذلك مساحة مؤقتة من الحرية - "تصفح الهواء". "يستقبلها بضحكة عذبة". يدعوها الطفل إلى الطيران، فتقبل، ويلبّسها إلى مكان "ترهو فيه الألوان"، فتذهب، لتشاهد تلاقى الطبيعة في حالاتها وحركاتها تعبيراً عن لحظة الاعتاق والتحرر. في فضاء التحرر "النساء تستحم"، و"الرجال يقطفون ثمار الأشجار"، و"الأطفال يمرحون على العشب"، فيما يشي بالنجدة والبهجة. تنتقل الخادمة إلى فضاء وجودي ودلالي جديد تستطيع فيه التنازل. وتعرف معنى الضحك. تلك السلوك الغريب عليها، وتكتشف أن البهجة تُشبع. وتفي المرض.

حين تحاول البهجة، لا تجد إلا قيود سيدها من جديد. يستنكر محاولتها الضحك ويختزل لحظة الحرية، بين فتحها النافذة من تلقاء نفسها وإغلاقها إياها تحت سطوة الخوف. ويعود بها إلى الاستلاب: "كان السيد يتأكل ظهرها" - يتأكلها شيئاً لا بشراً - ولا يجد في الصوت الذي تخرجه إلا نباحاً كنباح "كلبة". هكذا يصف السيد صوت الخادمة في صيغة تقريرية مستهجنة وتشبيه يجردّها من أقيمتها - "تتبعين كالكلبة". وهكذا تُعيد لفظة إنتاج الواقع، واقع القهر والسلطة، وهي سلطة مركبة معقدة، تجمع بين السلطة الذكورية وسلطة السيد على الخادمة. من خلال أنواع الأفعال وثبوتها ونفيها، وبنية الجملة من حيث من يفعل ومن يقع عليه الفعل.

ولعلنا نلاحظ فيما سبق بعض ما يقترن بالتحليل الوظيفي. وفق نسق هاليداي. فسي  
سابق عربيّ من صعوبات وإشكاليات، فليس كلّ ما يُعدّ فعلاً في اللغة الإنجليزية فعل  
في لغة كالعربية. على سبيل المثال، في جملة "الغرفة نظيفة" في نسختها الإنجليزية،  
هناك فعل هو "تكون" IS، أمّا في اللغة العربية فهي مسند إليه ومسند. موضوع  
ومحمول. لو مبتدأ وخبر. ما يندرج تحت لفعال القلوب. والتصيير. والمقاربة.  
والشروع. واليقين. والرجحان، هو من قبيل الأفعال الناسخة. أمّا الأفعال الأساسية  
في الجملة العربية، فلا يبدو أنّ لها تصنيفاً يشبه تصنيف هاليداي في فعل ملابسة،  
وذهنية. وسلوكية. وهكذا. من ناحية أخرى لا ينمّر تصنيف كلّ فعل في فئة واحدة  
من الأفعال حتى في اللغة الإنجليزية.



في يوم المقاومة والتحرير، في يوم الانتصار التاريخي العظيم والكبير، نلتقي هنا في عبق المنطقة التي استعادت الوطن واستعادت الوطن، في لجوء أربعين نبي عبد الله سيد الشهداء الإمام الحسين بن علي عليهما السلام. لنؤكد من جديد مقلته وخطه، لنثبت من جديد أن الدم هنا ينتصر على السيف، وأن الدم هنا قهر السيف وهزمه، وأن الدم هنا حطم كل قيد، وأن الدم هنا أفل كل طاغية ومستكبر. (٢)

نلتقي هنا لنحتفل بالنصر الذي صنعته الشهادة، وصنعه النماء. عندما نتحدث عن هذا النصر، عن تحرير الأرض، عن حرية الإنسان، عن كرامة الوطن، عن عزة الأمة.. يجب أن نتذكر كل أولئك الذين ساهموا في صنع هذا النصر. قبل كل شيء وبعد كل شيء، نحن عباد الله نعلن أمام العالم كله أن هذا النصر من الله سبحانه وتعالى، هو الذي هدانا إلى طريق المقاومة، هو الذي لنا سواء المسيل، هو الذي ثبت قلوبنا منذ سنوات طويلة، هو الذي ملأ قلوبنا طمأنينة وطمأنينة عشقا للشهادة وهو الذي ألقى في قلوب أعدائنا الرعب، هو الذي رمى وهو الذي أصاب، هو الذي بمر الموضع، هو الذي هدم الحصون، هو الذي قتل الجبلية، وهو الذي صنع هذا النصر. الله، سبحانه وتعالى، الذي نشكره ونحمده ونسبحه ونستغفره ونسب إليه ونخضع له وندعوه أن يتم لنا نصرنا بأن يحرر كل الأرض وكل الأخوة وكل هذه الأمة المظنة والمظلومة. (٣)

لتم فرضتم على العدو شكل الاسحاب ووقته، واسقطتم لهم العدو في ميليشيا تطون لحد، هو كان يراهن على أن تتمترس هذه الميليشيا في مواقعها وتطلق النار، ثم يدخل موكب الأمم المتحدة للتفاوض مع الدولة، وفي مقابل إخلاء المواقع يحصل

(١) الجماعة في مواجهة عدو مشترك، وتكيد لتمام المتكلم إلى جمهور السامعين.

(٢) صراع الدم والسيف، صراع من بشر ومن لا بشر، الإنسان والجماد، إلا فرين قتداء والتضحية والآخر فرين حبش والاعتداء.

(٣) النصر من عند الله، فتهبب النصر الفرقي من خلال الأسلية والفردية، لا تقتصر وظيفة استدعاء النصر الفرقي على التبرك، بل تتجاوز في استدعاء زملائه ولحقه، بحيث تصبح الحرب بين حزب الله وعدوه غزوة بدر جديدة.



الصلاء المجرمون والخونة على العلو. هذا الأمر انتهى أيضا. انتهى بأقل صورة ممكنة لهؤلاء الصلاء الذين شاهدتم صورهم. صور إلالهم عند بوابات فلسطين المحتلة. وشاهدتم كيف تخلى عنهم هذا العدو. (٧)

لما التهديد والوعيد الإسرائيلي فلا نخاف منه اليوم... هم الخائفون على امتداد هذه الحدود وهذا الشريط. لقد خافوا من بعض النساء والأطفال الذين يقفون على الحاجز الحديدي... يخافون من حجر يرمى عليهم (٨) ... أنتم الآن هنا بنت جبيل امنون سداء. وهم على امتداد مستعمرات شمال فلسطين المحتلة خائفون ومرتعون أمام المستقبل المجهول... لقد انتهى الزمن الذي كنا نخاف فيه من التهويل والتهديد الإسرائيلي. وهو يعرف أن الزمن الذي كانت فيه تستطيع طفرته سماحا قد ولى. وأن الزمن الذي كانت تستطيع دباباته أرضنا قد ولى. وأن الزمن الذي كانت تستطيع فيه زورقه مياهنا الإقليمية قد ولى، وإن أي اعتداء على لبنان لن يقابل بشكوى إلى مجلس الأمن (من مجلس الأمن هذا؟! ولا بالدموع... لن يقبل إلا بالمقومة.. "إسرائيل" إذا اعتكت على لبنان ستطع إثمها غالية. (٩)

قول لكم يا شعبنا في فلسطين: إن إسرائيل هذه التي تملك سلاح نووية وقوى سلاح جو في المنطقة، والله هي لو من بيت العنكبوت! لكن إذا كنتم تريدون الاعتماد على الاتحاد السوفياتي كما كان في السابق فلن تصلوا إلى نتيجة، إذا كنتم تنتظرون المجتمع الدولي فلن تصلوا إلى نتيجة، إذا كنتم تراضون على المعدلات فلن تصلوا إلى نتيجة. (١٠)

(٧) "نتم"، "نحن" ولا "أنا". المتحدث هو القاعل الذي يستحق الشاء. تواضع حسن نصر الله وربما نكساره في يظهر هذا التواضع من خلال الاحتفاء بالمستمع. لا بدات. وتهوين من قدر العدو الآخر. أنتم المنتصرون الأمون. وهم الخائفون.

(٨) الآخر الخلف.

(٩) نتم وهم. الأمن والخوف: من الماضي إلى الحاضر - من التهديد إلى الخوف (إسرائيل). ومن الخوف إلى الثقة (حزب الله) - إلى المستقبل - حزب الله يتوعد وبهذا.

(١٠) الآخر الضعيف. والآخر الذي لا يرجى منه خير أو عون.

يا شعب فلسطين: إن تصبروا الله ينصركم ويثبت قدركم. يا شعب فلسطين: إن ينصركم الله فلا غالب لكم. (11)

وقول لشعبنا العربية والإسلامية: أيتها الأمة العربية، يا علمنا العربي والإسلامي، الحزبي والهزيمة والفشل والعار من الماضي. هذا الانتصار يؤسس لحقبة تاريخية جديدة ويقلل الباب على حقبة تاريخية ماضية (12).. ضخوا قلوب جنتها وتسليحوا بالأمل. ضخوا قلوب جنتها واشحنوا الهمم والعزائم (13). تنسى اليوم، باسم كل الشهداء في لبنان، باسم كل المظلومين في لبنان، أطالب الحكومات العربية، بالحد الأدنى، أن توقف التطبيع مع إسرائيل، أن تقطع علاقتها بـ "إسرائيل"، أن ترفض موقفها وقررها على إسرائيل، وأطالب الشعوب العربية بأن تقف إلى جانب فلسطين وشعب فلسطين. وأن ترفض أي شكل من أشكال التطبيع مع هذا العدو (14).. إسرائيل الكبرى هزمتها المقاومة، إسرائيل العظمى تهزمها المقاومة. ونجد تشكيلها المهمة مقاومة لتطبيع. (15)

وكل نصر وكل عيد وأنتم بخير  
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

---

(11) اقتبس من القرآن الكريم. واستطاع الموقف الذي نزلت فيه الآية على التحفة فراهة، بما في ذلك من تصنيف ضمنى في فئة تقتل في سبيل الله والحرى كفره.

(12) لحظة فارقة بين حطينين.

(13) سمعنا دقة تجعل من المنجذبات فردية تلحق وسلحة تحمل أو تتخذ.

(14) لوقوع في شرك التعريف المستورد من الغرب.

(15) اعادة تعريف المقاومة.

## تعقيب

هذا خطاب يتكى على النص القرآني والتراث الإسلامي، لتحقيق قدر كبير من بلاغته وتوصيل رسالته، من خلال الأكتباس الصريح، والأسلبة، أي استلهم أسلوب القرآن الكريم، وتركيبه، ومفرداته، واستلهم المشاهد القرآنية التي تصف موجهات المؤمنين مع غير المؤمنين، وكذا استلهم الشخصيات التي تنتمي إلى هذين المصكرين، من وجهة نظر المتكلم - الإمام الحسين في مواجهة فرعون وهامان. ليس من الضرورة إلقاء كل طرائق المسك والحبك في الخطاب، فهما من موقماته التي لا تستعصي على متكلم بلرع مثل نصر الله، أصبح حضوره "بلاغياً" بارزاً، وحقق شعبية جارفة من مبرراتها قدراته الخطابية ووعيه اللغوي. على سبيل التمثيل لا الحصر ما نجد من توفّر تركيبه وتكرار في: "أنّ الزمن الذي كنت فيه تستبيح طفرته سماعاً قد ولي"، و"أنّ الزمن الذي كنت تستبيح ببلغة رضاً قد ولي"، و"أنّ الزمن الذي كنت تستبيح فيه زوارقه مياها الإنكليزية قد ولي". في هذه التركيب اغتصاب واحتلال وقتها يقع على "سمناً" (سماء المتكلم ومن ينتمي إليه) و"لرضاً" و"مياها" على يد "طائرات" (طائرات العدو) و"نبهات" و"زوارق".

وفي الخطاب ما في جملة الخطابة السياسية من توظيف الاستعارة. على سبيل التمثيل ترد استعارات "الدم ... ينقصر على السيف"، و"الدم ... حطم كل شيء"، و"صنعت الشهادة"، و"صنعت الدماء"، و"تحرير الأرض"، و"كرمة لوط"، و"عزة الأمة"، و"ضعوا لباس جثبا وتسلحوا بالأمل"، و"ضعوا لوهن جثبا ونشحنوا الهمم والعزائم". يبدو أنّ الاستعارة المحورية هنا هي استعارة الدم والسيف، ويرد التفريق بينهما في هامش على الخطاب. ولا بدّ أن يقع التعاطف. على الأكل تعاطف الأخير الطيبين، مع الدماء التي تميل، لا مع السيوف التي تقتل.

وفي الخطاب موجهة بين مصكرين - هما بلغة جورج بوش مصكر "الخير" ومصكر "الشر". غير أنّ الشرل بوش ليسوا هم الشرل نصر الله. ولا أخواره أخواره

- بين المتكلم. ولخوته وأخواته المستمعين، والمناصرين، والشهداء، والمستضعفين، وأنباء فلسطين، والإمام الحسين، وما يرتبط به من قيمة الاستشهاد والنضحية والدماء ("نحن" في المربع الأيديولوجي للخطاب)، من ناحية، وبين فرعون، وهامان، واسراقيل، ومن يستعدها، وعلمة المفسدين، والطفلة، والمكبرين، وما يحملون في وجه المؤمنين من سيوف، ومعهم الغلاء المنجرون والخونة ("هم/ الآخر العدو" في المربع الأيديولوجي للخطاب)، من الناحية الأخرى.

تتحّد بؤرة الخطاب من حيث زمانه ومكانه في "لنتقي هنا" (مكان) "في يوم المقاومة والتحرير، في يوم الانتصار التاريخي العظيم والكبير" (زمن). "ولنتقي هنا في عسك المنطقة التي استعانت الوطن واستعدها للوطن" (مكان)، "وفي لجوء أربعين أباي عبد الله سيد الشهداء الإمام الحسين بن علي عليهما السلام" (زمن). من هذه البؤرة يشير الخطاب إلى ماضٍ قريب، ماضٍ من التهديد والعدوان والاحتلال الإسرائيلي - "لزمن الذي كُتبت تسبّيح دبابته أرضنا قد ولى، و... لزمن الذي كُتبت تسبّيح فيه زورقه مياها الإقليمية قد ولى"، و"الخزي والهزيمة والفذل والعز من الماضي. هذا الانتصار يؤسس لحقبة تاريخية جديدة ويقفل الباب على حقبة تاريخية ماضية" - وماضٍ بعيد، ماضٍ الفزوات الإسلامية الكبرى والإمام الحسين. كما يشير الخطاب إلى أماكن أخرى - "واسقطم لغم العدو في ميليشيا قطون لحد"، و"صور لألالم عند بوبت فلسطين المحتلة"، و"هم الخائفون على امتداد هذه الحدود"، و"هم على امتداد مستعمرات شمال فلسطين المحتلة خائفون"، وإلى المجتمع الدولي والاتحاد السوفيتي الذي لا يبقى المتكلم في قدرة أيٍّ منهما على مساعدة فلسطين، وإلى الامتين العربية والإسلامية، وما ينبغي عليهما، من وجهة نظر المتكلم، من ضرورة مقاومة فتطيع مع اسراقيل.

تجاوز الإشارة معاًها القريب هنا لتؤسس، من خلال الاستلهام والتهبّس، وربما الاقتداء كما في "لنؤكد من جديد مقولته وخطأ، انتماءات وتكتلات تمتد عبر الزمان - من فرعون وهامان إلى اسراقيل، ومن غزوة بدر والإمام الحسين إلى حزب الله -

والمكان - لبنان وفلسطين والأمم العربية والإسلامية في مواجهة إسرائيل وأعوانها.

وفي الخطاب يمانُ بقضاء الله وقدره - قد يقول من لا يحب حسن نصر الله أنه يهجم بالإيمان. لو وسيلة بلاغية لتحقيق غايات تواصلية سياسية - ينسجم مع قنماء المعتكف وعقيدته. وينسجم مع جملة الانقباضات القرآنية والاحالات في التراث الإسلامي. ويتبدى، إضافة إلى ما سبق، في نسبة فعل النصر وما يرتبط به إلى الله تعالى. من خلال أفعال ذهنية، وتعالير مجازية يرد فيها ضمير يشير إلى لفظ الجلالة - "هو" - متبوعاً بجملة موصولة، الفاعل فيها هو هذا الضمير. وقد صار مستتراً، ومن يقع عليهم الفعل بالملب هم الأعداء، وعلى مصكر الإيمان بالإيجاب: "هذا النصر من الله سبحانه وتعالى، هو الذي هدانا إلى طريق المفقومة. هو الذي بَلَّغَنَا سواء السبيل. هو الذي ثَبَّتَ قُلُوبَنَا منذ سنوات طويلة. هو الذي مَلَأَ قُلُوبَنَا طمأنينة ورفضاً عشقاً للشهادة وهو الذي لَقِيَ فِي قُلُوبِ أَعْدَانَا الرعب. هو الذي رَمَى وهو الذي فَصَلَ. هو الذي نَضَرَ المواقع. هو الذي هَدَمَ الحصون. هو الذي قَلَعَ الحجارة. وهو الذي صَنَعَ هذا النصر".

حين ينسب المعتكف لفعلاً إيجابية إلى البشر، فإنه ينسبها إلى الحضور: "انتم فرضتم على العدو شكل الانسحاب ووقته، وأسقطتم لغم العدو". أنا هو فوطלב. ويشعر، ويعتقد، وفي هذا تكريم لمن شاركوا، من "فرضوا" ومن "أسقطوا". واستجلاب لمزيد من ولائهم وانتمائهم، وفيه كذلك إنكار للذات من جانب المعتكف. أنا الآخرون فمنهم الصلاة والخونة (من يتواطؤون مع إسرائيل)، ومنهم من يحتاج نصيحة نصر الله (الامتنان العربية والإسلامية وأبناء فلسطين)، ومنهم من يحتمى بترسانته العسكرية، وبينه نوهن من بيت الشكوكوت (إسرائيل)، ومنهم من لا يجب الاعتماد على دعه لو عونه (الاتحاد الموفيتي والمجتمع الدولي)، ومنهم من يستحق المسخرية (مجلس الأمن - "من مجلس الأمن هذا؟!"). هذه اللفظة الأخيرة تشير على استحياء إلى سمة من سمات المعتكف الخطابية، وهي توظيف الفكاهة والسخرية.

وهكذا، يبقى المتكلم على حضوره وتأثيره من خلال فعله اللغوية البلاغية، أي من خلال ما يفعل بالكلمات والاختصاصات والإحالات، فيؤسس قسمة بين معسكرين عبر الزمان والمكان، معسكرنا (الخير والدم والشهادة والإيمان والانتماء إلى الله)، ومعسكرهم (الشر والسيف والعدوان والظلمين ومعاداة الله عز وجل)، ويوظف الانتصار الذي تحقق للتمييز بين حقيقتين - من حقبة الخوف إلى حقبة الأمن والثقة عند حزب الله، ومن حقبة التهديد والاعتداء إلى حقبة الخوف في إسرائيل.

(٨)

## نصوص بصرية



تجريد (المطومات في رسم بياقي) ثم تجسيد (الرسم البياقي في جسم ليليل للمجد)  
(من الوطن السعودية، ٣ يوليو ٢٠٠٨).



إعلان على شبكة الإنترنت تتضار فيه الاستعارة اللغوية ("الحولج" اللغوية)  
مع الاستعارة البصرية ["الجدار" الذي ينهزم].



في كل استعارة اندماج fusion بين علمين أو فئتين دلاليين. الاندماج في هذا النص بين  
علم البشر - "موجلي" - وعلم الكائنات البحرية - الإخطبوط ما ينتج عن الاندماج هو "رجل  
بخطبوط" أو "بخطبوط بشري" (الخليج، ٥ يوليو ٢٠٠٨)